

جيمس هنري برستيد

جيمس هنري برستيد

انتصار الحضارة تاريخ الشرق القديم

ترجمة: أحمد فخرى

تقديم هذه الطبعة: ممدوح محمد الدماطى



1809

**انتصار الحضارة
"تاريخ الشرق القديم"**

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1809
- انتصار الحضارة: تاريخ الشرق القديم
- جيمس هنرى برستد
- أحمد فخرى
- ممدوح محمد الدماطى
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

The Conquest of Civilization
By: James Henry Breasted

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House. El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

انتصار الحضارة

"تاريخ الشرق القديم"

تأليف: جيمس هنرى برستيد

ترجمة: أحمد فخري

تقديم هذه الطبعة

ممدوح محمد الدماطي



2011

برستد، جيمس هنرى.

انتصار الحضارة: تاريخ الشرق القديم / بقلم:
جيمس هنرى برستد؛ نقله إلى العربية أحمد
فضرى. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠١١.

٢٢٠ ص؛ ٢٤ سم. - (المركز القومى للترجمة)

تدمك ٨ ٨٣٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الحضارة القديمة.

٢ - الحضارة الشرقية.

أ - فضرى، أحمد. (مترجم)

ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٣٩٩ / ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 836 - 8

ديوى ٩٣٠

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

عندما قام عالم الآثار الجليل أحمد فخري بتعريب كتاب انتصار الحضارة "The Conquest of Civilization" ذكر أنه لم يتردد كثيراً في قبوله هذا العمل لثقته التامة بأن القارئ العربي وخاصة الطلبة في مسيس الحاجة إلى مثل هذه الأعمال الجادة وكان يرى أن كتاب "انتصار الحضارة" من خير الكتب التي ألقت لمنفعة الطلبة، إذ إنه كتب للطلاب المبتدئ الذي يريد أن يعرف كيف تطورت المدنية وكيف ارتقى الإنسان وكيف ارتقت حضارته في مصر والشرق الأدنى القديم.

وكان أصل هذا الكتاب هو كتاب "العصور القديمة - Ancient Times" الذي نشر عام ١٩١٦ وانتشر بين أيدي المتخصصين وغير المتخصصين حتى مع الطلبة في كل أنحاء العالم إلا أن برستد زاد عليه ونقحه وأعاد طبعه قبل وفاته بعنوان "انتصار الحضارة" "The Conquest of Civilization" ثم نشر مرة أخرى بعد موته بثلاث سنوات.

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى نشأة جيمس هنري برستد صاحب هذا المؤلف لنعرف دوره كأول رواد علم المصريات الأمريكان ومؤسس مدرستها المميزة في جامعة شيكاغو، فهو كغيره من الأمريكان من أصل أجنبي هاجر جدوده ذوو الأصل المزدوج الإنجليزي الهولندي إلى أمريكا في القرن السابع عشر، وعمل أبوه في التجارة واهتم بتعليمه، وبعد أن أنهى برستد دراسته للماجستير عام ١٨٩٢ في جامعة بيل في اللاهوت واللفة العبرية على يد أستاذه اليهودي وليم رايني هاربر William Rainey Harper والذي

شجعه على السفر إلى برلين لاستكمال دراسته في علم المصريات، فحصل على الدكتوراه عام ١٨٩٤ تحت إشراف العلامة أدولف إرمان Adolf Erman والذي يعد من الرواد الألمان في علم المصريات، وأصبح برستد بذلك أول أمريكي يحصل على الدكتوراه في علم المصريات، وتزوج برستد في نفس العام من السيدة فرانسيس هارت Frances Hart وذهب العروسان لقضاء شهر العسل في مصر، وتحول شهر العسل إلى شهر عمل كرس فيه برستد جهده لتأسيس مجموعة من الآثار المصرية لجامعة شيكاغو.

وبعد عودته إلى شيكاغو بدأ عمله مدرساً في جامعة شيكاغو، وبعدها بخمس سنوات قبل دعوة من الأكاديمية البروسية في ألمانيا للمشاركة في مشروع قاموس اللغة المصرية القديمة فيما بين ١٨٩٩-١٩٠٨، ثم كرس جهوده في هذه الأثناء في تأسيس مدرسة لعلم المصريات في شيكاغو وأصبح أول أستاذ لعلم المصريات وتاريخ الشرق في جامعة شيكاغو وبدأ في الترحال للقيام بحفائر في مختلف بلاد الشرق القديم، في مصر وفي العراق وفي فلسطين وفي سوريا وفي إيران وفي تركيا، ثم قام بنشر العديد من الأبحاث والكتب عن مصر والشرق الأدنى القديم الذي أطلق عليه مصطلح "الهلال الخصيب" Fertile Crescent ويقصد بها المنطقة من جنوب العراق حتى جنوب الساحل الفينيقي، وكان يؤمن برستد بأن فهم الحضارة المصرية ودورها في رقى البشرية يكتمل بفهم ودراسة حضارات الشرق الأدنى القديم والتي تمثل دراستها وحدة متكاملة لمن يرغب في دراسة نشأة الحضارة، فهي حضارت عاصرت بعضها بعضا واتصلت ببعضها وأثرت وتأثرت فيما بينها، تفاعلت مع بعضها في علاقات تجارية وسياسية وعسكرية وكذلك بهجرات لبعض سكانها من حين لآخر، لذلك يعتمد كثير من الباحثين في كثير من الأحيان عند دراسة بعض القضايا المتصلة بأحداث مشتركة بين بلدان الشرق الأدنى القديم على المصادر المعاصرة عند الأطراف المتصلة بتلك القضايا، وخاصة أن المصادر والآثار تعبر عن وجهة نظر أصحابها والتي تختلف في كثير من الأحيان، ومن الأمثلة الشهيرة لذلك الوثائق التي تتحدث عن معركة قادش التي حدثت في العام

الخامس من حكم الملك رمسيس الثانى والتي كانت بينه وبين الملك مواتالى ملك الحيثيين، فقد أمر رمسيس الثانى بتسجيلها على العديد من معابد عصره كمعبد الأقصر ومعبد الكرنك ومعبد الرامسيوم ومعبد أبو سمبل الكبير كما سجلت أيضاً على البردى، وأراد رمسيس الثانى أن يخلد نصره على الحيثيين ويشيد ببطولاته فى هذه المعركة وأنه انتصر انتصاراً مظرفاً، هذا طبعاً من وجهة النظر المصرية، وعلى الجانب الآخر نجد الوثائق الحيثية وهى عبارة عن لوحات طينية كتبت بالخط المسمارى وقد عثر عليها فى بوغاز كوى فى الأناضول تذكر العكس بأن الجيش الحيثى ألحق الهزيمة بالجيش المصرى، وعلى الرغم من انقسام المؤرخين بين الروايتين ويميل البعض لتصديق الرواية المصرية، ويرى البعض الآخر تصديق الرواية الحيثية، فإن الروايتين تكمل كل منهما الأخرى، فلم يحقق أى من الفريقين نصراً كاملاً على الآخر، ويؤكد هذا سير الأمور السياسية بين البلدين بعد المعركة والتي انتهت بإبرام معاهدة سلام بين رمسيس الثانى فرعون مصر والملك خاتوسيل الثالث ملك الحيثيين، حفظت نسختها المصرية على جدران معبدى الكرنك والرامسيوم، والنسخة الحيثية على لوحات طينية عثر عليها أيضاً فى بوغاز كوى فى الأناضول، وقد أرخت النسخة المصرية بالعام ٢١ من حكم رمسيس الثانى، وهنا نجد أن الروايتين مكملتان لبعضهما البعض مما يعطى صورة أكثر شمولية عن هذا الحدث الفريد والأول من نوعه فى حضارات العالم القديم، مما يشير إلى أهمية آثار الحضارات المعاصرة للحضارة المصرية.

وبهذا التكامل لحضارات الشرق الأدنى القديم رأى برستد أن يبدأ الطالب دارس التاريخ بدراسة حضارة الشرق الأدنى القديم عامة ليتعرف على أصل الحضارة، وكان هذا الهدف هو الدافع لإعداد هذا الكتاب للطالب الأمريكى.

وتناول الكتاب سرداً لقصة الحضارة وانتصارها من البدايات الأولى من العصر الجليدى الكبير ثم بداية نشأة الإنسان وكيف عاش الإنسان الأول طوال العصور الحجرية القديمة، وهى العصور التى تبدأ بالعصر الحجري القديم وتنتهى بالعصر

الحجرى الحديث، وهى عصور مهدت على الرغم من طولها إلى العصور التاريخية، وقد تشابهت أحوال إنسان ذلك العصر فى مصر مع مثيلاتها من مناطق التجمعات الأولى للعصور الحجرية القديمة فى مختلف مناطق العالم المسكون آنذاك، فهو إنسان جامع للطعام يعيش على الصيد ويقتات من نبات الأرض، وقد استخدم لذلك أدواته الحجرية التى تطورت وتنوعت أشكالها مع الوقت لتتنفق مع وظائفها التى طالما استحدثت مع تطور الإنسان وتنوع احتياجاته، ثم تحدث برستد عن الكهوف والمآوى الصخرية، والتى تعتبر بما تحويه من رسوم الإنسان الأول سجلاً حافلاً عن حياته ونشاطه، ثم ينتقل الكتاب إلى كيف طور إنسان العصر الحجرى القديم من معيشته حتى وصل إلى العصر الحجرى الحديث والذى يمثل أهم نقلة فى تاريخ البشرية لأنه عصر الاستقرار الذى تحول فيه الإنسان من ملتقط وجامع لطعامه إلى منتج للطعام باكتشافه للزراعة وما ترتب عليها من استقرار وتطور فى شتى مجالات الحياة، وبهذا العصر تبدأ فى مصر وجيرانها فى الشرق الأدنى القديم الحضارة بمقوماتها وطابعها المميز الذى يعد اللبنة الأولى فى صرح حضارات مصر والشرق الأدنى القديم وفى هذا العصر بدأت تتباين فيه سمات الحضارات وتبلورت فيه مقوماتها من موطن لآخر؛ فهو فى مصر يختلف عن بلاد النهرين عنه فى الشرق الأقصى أو أوروبا، كما اختلفت بدايته من مكان لآخر حسب اكتمال مقومات هذا العصر الذى يميزه التحول الخطير فى حياة الإنسان وهو تحول الإنسان من جامع للطعام إلى منتج للطعام، تحول إلى نشأة المجتمع الأول والاستمرار الذى مهد هذا العصر لبداية العصور التاريخية والتى يميزها معرفة الكتابة.

ثم انتقل برستد إلى الحديث عن حضارات مصر وجيرانها فى الشرق الأدنى القديم باعتبارها أصل الحضارات فى العالم، فبدأ بتاريخ حضارة مصر القديمة فى الفصلين الثالث والرابع، وتناول فى أولهما قصة مصر من أقدم العصور مروراً باكتشاف الزراعة وعصر الاستقرار، ثم نشأة الكتابة والعصر التاريخى والذى تنطلق فيه مصر لتسجل أعظم تاريخ عرفته البشرية فى عصر بناء الأهرام بما فيه من رقى فى الفكر والعقائد،

ورقى فى الإدارة والاقتصاد، وورقى المجتمع وفنائه، وورقى فنون العمارة والنقش والنحت. ثم استكمل برستد بقصة مصر فى الفصل الرابع متحدثاً عن عصر الضعف الأول، والذى يمثل الفترة التى بين عصرى الدولة القديمة أى عصر بناء الأهرام وعصر الدولة الوسطى الذى استعادت فيه مصر مكانتها الراقية مرةً أخرى وارتقت فيه الآداب والعلوم، ثم انتقل إلى عصر الدولة الحديثة والمعروف أيضاً بعصر الإمبراطورية المصرية، وهو يمثل أزهى عصور مصر الفرعونية، عصر الرفاهية والثراء إذ تدفقت الأموال على مصر من كافة أنحاء الإمبراطورية المصرية من الشمال حتى أعالي نهر الفرات فى آسيا وحتى الشلال الرابع جنوباً. وكانت الأقصر هى عاصمة مصر بل عاصمة الإمبراطورية فى هذا العصر لذا تمتعت باهتمام ملوكها أمثال تحتمس الأول والثالث وحتشبسوت وأمنحوتب الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى وزخرت بأهم عمائر الحضارة المصرية كمعابد الكرنك ومقابر وادى الملوك. ثم ينتقل برستد بقصة مصر إلى نهاية العصر الفرعونى الذى بدأ مع ضعف حكام مصر فى نهاية الدولة الحديثة. ثم ينهى هذا الفصل بالحديث عن جهد عالم الآثار الفرنسى شامبليون فى الوصول إلى قراءة اللغة المصرية القديمة من على حجر رشيد فاتحاً بذلك الباب لمعرفة قصة الحضارة المصرية.

ثم يستتبع برستد قصة انتصار الحضارة فى غرب آسيا، فبدأ فى الفصل السادس بقصة السومريين باعتبارها أقدم حضارة فى بلاد الرافدين، كيف بدأت وكيف كتبت لتسجل تاريخاً راقياً فى فنونه وآدابه، ثم ينتقل إلى العصر الأكدى ويعتبره العصر السامى الأول والذى كان من أهم ملوكه الملك سرجون الأول الذى قام بفرض سيطرة الدولة الأكدية حتى اتحدت مع دولة سومر القديمة، واعتبر بذلك أن اتحاد ملوك سومر وأكد هو اتحاد السومريين والساميين، ومن العصر الأكدى إلى العصر البابلى الذى يفرض سيطرته على بلاد الرافدين معتبراً برستد ذلك انتصاراً ثانياً للساميين، وهم جماعات سامية استقرت فى بابل وجعلت منها حاضرتها التى انتقلت منها لتسيطر على ما كان للسومريين والأكديين، وكان حمورابى أشهر ملوك هذا العصر.

وفى الفصل السادس تناول برستد تاريخ حضارة الأشوريين التى نشأت فى المنطقة الشمالية الشرقية لمنطقة الهلال الخصيب، وفرضت سيطرتها على أرض الرافدين لتهنى ما يعرف بالعصر البابلى الأول وتؤسس الإمبراطورية الأشورية والتى كان من أعظم ملوكها الملك سرجون الثانى وابنه سنحاريب والملك آشور بانيبال. ثم ينتهى هذا الفصل بالحديث عن سادة بابل الجدد وهم الكلدانيون الذين أسسوا العصر البابلى الثانى وأقاموا الإمبراطورية البابلية والتى كان الملك نبوخذ نصر من أشهر ملوكها وهو الذى دمر أورشليم عاصمة دولة يهوذا العبرانية فى عام ٥٨٦ ق.م.

ثم ينهى برستد قصته فى الفصل السابع بقدم الشعوب الهندوأوربية وإقامة دولة الحيثيين فى منطقة الجبال المرتفعة فى غرب آسيا، ثم ينهى هذا الفصل بقيام الإمبراطورية الفارسية وانتشار الحضارة الفارسية.

وبذلك أراد برستد أن يروى للطالب الأمريكى قصة أصل الحضارة ونشأتها والتى بدأت من مصر والشرق الأدنى القديم أو منطقة الهلال الخصيب كما أطلق عليها، وكيف كان لها السبق والفضل فى رقى تاريخ البشرية أى إنه انتصار الحضارة.

ممدوح محمد الدماطى

القاهرة فى ٢٨ شوال سنة ١٤٣١هـ

الموافق ٧ أكتوبر سنة ٢٠١٠م

انصار الحضارة

The Conquest of Civilization

تاريخ الشرق القديم

محتويات الكتاب

صفحة	
١	— تقديم
٩	الفصل الاول :
	— كيف بدأ الانسان حياته جامعاً للغذاء
	أقدم أساليب المعيشة الانسانية
٢٢	— العصر الجليدى الكبير
	والانسان فى العصر الحجرى القديم
٣٥	الفصل الثانى :
	— منتجوا الغذاء والعصر الحجرى الحديث
	سكان وادى النيل يصبحون منتجى غذاء
٤٥	— العصر النيوليتى فى أوروبا
٥٧	— ربيع الكرة الأرضية
	الذى تمت فيه الحضارة وتطورت
٦٥	الفصل الثالث :
	— قصة مصر - أقدم الحضارات
	وعصر بناء الأهرام
	وبدء التنظيم الإدارى فى مصر
٧١	— قيام الحضارة المصرية المبكرة
	على أساس الزراعة
٨٥	— بناء الأهرام

— عقائد المصريين وآراؤهم الدينية

— عصر الأهرام

الاقتصاد - المجتمع - الفن

الفصل الرابع :

— قصة مصر

عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى والامبراطورية
اضطراب النظام الحكومى وبدء عصر الفترة الأولى

— الأدب والعلم فى عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى

— تأسيس الامبراطورية

— حياة الرفاهية فى أيام الامبراطورية

— تدهور وسقوط الامبراطورية المصرية

— شبرليون يحل رموز الكتابة المصرية

الفصل الخامس :

— غرب آسيا - بلاد بابل

— أقطار وأجناس آسيا الغربية

— أقدم الحضارات الهامة فى وادى الرافدين

(السومريون)

— الإبتصار السامى الأول

عصر سرجون

— اتحاد السومريين والساميين

ملوك سومر واکد

الفصل السادس :

— آسيا الغربية - الآشوريون والكلدانيون

بلاد آشور القديمة ومناقسوها الغربيون

٢١٤

— الامبراطورية الآشورية

٢٣٠

— الامبراطورية الكلدانية

٢٣٨

الفصل السابع :

— غرب آسيا - قلوب الأقبام الهندو - أوربية

الشعوب الهندو - أوربية وتوزيعها

٢٤٣

— الحيثيون

٢٥٦

— الشعوب الآرية والنبي الأيراني زرادشت

٢٦٢

— قيام الامبراطورية الفارسية

٢٦٦

— حضارة الامبراطورية الفارسية

تقديم

قابلت « برستد » للمرة الأولى في حياتي في أوائل عام ١٩٢٦ . وكنت إذ ذاك طالباً أدرس الآثار ، ورأى زملائي أن ندعو ذلك العالم الشهير إلى حفلة شاي صغيرة في فندق الكونتنتال .

كنا جميعاً متشوقين لرؤيته ، وكثيراً ما سمعنا اسمه يتردد على ألسنة أساتذتنا ، وكانت مؤلفاته بين أيدينا منذ الأسبوع الأول في دراستنا ، ولكن هذا الشوق لمقابلة برستد لم يكن لأجل لقاء عالم عظيم فحسب ، بل كان له مغزى آخر .
جاء برستد إلى مصر في ذلك الشتاء ومعه عرض من الثرى الأمريكى چون رو كفلر لتقديم مبلغ عشرة ملايين دولار إلى مصر لبناء متحف على أحدث طراز للآثار المصرية وما يلحقه من مكتبة ومن معامل لصيانة الآثار ووسائل المحافظة عليها .

ولم يشترط صاحب الهبة شيئاً أكثر من أن تقدم مصر الأرض اللازمة لإقامة المبنى عليها ، وأن تشرف على المتحف وملجقاته لمدة ثلاثين عاماً لجنة مكونة من ثمانية أشخاص يمثل اثنان منهم دولة من الدول الأربع : مصر ، وأمريكا ، وانجلترا ، وفرنسا . ثم يؤول بعدها كل شيء إلى مصر .

ولكن لأسباب لاداعي لذكرها رفضت حكومة مصر بعد مفاوضات دامت عدة شهور هذا العرض ، وانقسمت الصحافة بين مجذ وناقد ، ولكتنا شعرنا ونحن طلبة حديثو السن أن مصر خسرت خسارة كبرى من هذا الرفض ، ولهذا أردنا أن ندعو الرجل إلى حفل بسيط لنعبر له عما نشعر به . وتحدث برستد إلينا مجملاً ما حدث ، وشاكرآ لنا ما أحسننا به . وأظهرت الأيام بعد ذلك أن مصر خسرت كثيراً وأضاعفت عليها فرصة كبيرة .

ودارت الأيام دورة أخرى وقابلت برستد مرة ثانية في ربيع ١٩٣٥ عندما

كان في آخر زيارة لمصر ، لم أره هذه المرة للحظة قصيرة ، أو استمعت إليه وهو يلقي خطاباً ، بل كان لي حظ لقائه مرات ، وكنت في ذلك الحين مفتشاً للآثار في الأقصر ، وكنت أكثر من الذهاب إلى مكتبة المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو للاطلاع ، فكان لي حظ لقائه والاتصال به ومصاحبته في الذهاب إلى كثير من مواقع الآثار .

كان يتحدثني عن ذكرياته وهو طالب في أمريكا وفي ألمانيا ، وكان يجب أن يتحدثني عن ذكرياته في المناطق الأثرية وخاصة عندما زار آثار الأقصر للمرة الأولى في عام ١٨٩٤ . وكان يتحدثني عن نتائج حفائر بعثات المعهد في مختلف بلاد الشرق ، وكان يسألني عن دراستي وعن هواياتي ، وكنت أحس بعد كل مقابلة أن الرجل فتح عيني على حقائق لم أكن أعرفها . وكانت له شخصية تجذب الإنسان في العلم والعلماء ، وكان يؤمن بعظمة مدنات بلاد الشرق القديم . وبالرغم من أن اختصاصه الأساسي كان في علم الآثار المصرية ، إلا أنه كان يؤمن إيماناً صادقاً أنه لكي نفهم دور الحضارة المصرية على الوجه الصحيح يجب أن يبدأ الطالب بدراسة حضارة الشرق القديم عامة .

لم يكن هذا رأي برستد في عام ١٩٣٥ فقط أو أنه بدأ يؤمن به بعد أن اتسعت آفاق دراسته وأبحاثه ولكنه آمن به منذ أن كان طالباً في شيكاغو ، وبدأ يدرس اللغة العبرية استعداداً لدراسة اللاهوت ليصبح رجلاً من رجال الدين . وزاد إيمانه به يوم أقنعه أستاذه في اللغة العبرية أن ينبذ فكرة دراسة اللاهوت لأنه خلق ليكون مستشرقاً ونصحته بالاتجاه نحو الآثار المصرية . وكل إيمانه عندما أتم دراسته في أمريكا وسافر إلى برلين رغم كل الصعاب المالية ، وقرر أن يتخصص في دراسة علم المصريات .

حصل برستد على الدكتوراه من برلين في عام ١٨٩٤ ونشر أول أبحاثه بعد ذلك في عام ١٩٠٠ عن الملك تحوتمس الثالث . وفي عام ١٩٠٣ نشر كتاباً له عن

موقعة قادش التي خاضتها الجيوش المصرية في سوريا ، ثم نشر بعد ذلك كتباً متعددة جعلت اسمه على كل لسان وخاصة كتبه عن تاريخ مصر .

وفي عام ١٩١٦ ظهر له كتاب جديد هو كتاب « العصور القديمة - Ancient Times ، الذي لاقى نجاحاً لم يلقه كتاب من نوعه في جميع الدوائر العلمية ، والذي انتشر بين أيدي الطلبة في كل أنحاء العالم وهو الكتاب نفسه الذي نقحه ونشره بعد ذلك بعشر سنوات تحت اسم انتصار الحضارة The Conquest of Civilization والذي زاد عليه ونقحه مرة أخرى قبل وفاته ونشر بعد موته بثلاث سنوات ، وهو أيضاً الكتاب الذي نقلنا منه الفصول الثمانية الأولى إلى العربية ونشرناها في هذا الكتاب .

وهناك قصة طريفة عن سبب قبول برستد هذا المؤلف .

كان لبرستد جار صديق اسمه هيلتون من المساهمين الرئيسيين في إحدى شركات النشر الكبرى ، حاول هيلتون كثيراً في عام ١٩١٢ أن يغري برستد بكتابة مؤلف عن التاريخ القديم ليكون في أيدي طلبة المدارس الثانوية هناك ولكنه كان يرفض قبول كتابته رغم ما كان فيه من ضائقة مالية شديدة لأن ذلك سيضطره لتعطيل أبحاثه الخاصة مدى ثلاث سنوات على الأقل .

ولم يأس هيلتون ، وعمد إلى حيلة بارعة إذ جمع الكتب التي كانت في أيدي الطلبة عن التاريخ القديم وأرسلها إلى صديقه ليطلع عليها ويحجيه عما إذا كان ضميره يسمح أن تكون هذه الكتب مصدراً لثقافة الطلبة الأمريكيين . ويذكر شارل برستد ابن المؤرخ العظيم في كتابه عن حياة أبيه أن تلك الكتب ظلت عدة شهور لدى أبيه دون أن يتمكن من فحصها ، فلما فعل كان أثر هذه الكتب في نفسه هو ما أراده هيلتون . ورأى برستد أن كل هذه الكتب ماعدا اثنين أو ثلاثة كادت تهمل الشرق إهمالاً تاماً وكان الفضل كله يرجع إلى اليونان والرومان ، وفي تلك الكتب التي أشار فيها مؤلفوها إلى الشرق كانت كتاباتهم عنه قليلة وفيها

الكثير من الغموض بل والأخطاء الصارخة . وكتب برستد في مذكراته اليومية في ذلك التاريخ عن مؤرخي حضارات اليونان والرومان فقال أنهم يريدون قتل حضارة الشرق عمداً لأنهم يريدون إخفاء الحقيقة ، ورد على هيلتون قائلاً : « إني أقبل أن ألبى طلبك وأكتب كتاباً لطلبة المدارس عن التاريخ القديم على شريطة أن تسمح لي أن أخصص تلك صفحاته للشرق القديم ، ، وانقطع برستد نحو ثلاث سنوات لتأليف هذا الكتاب الذي صدر أخيراً في يوم ١٤ أغسطس ١٩١٦ عندما كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها .

آمن برستد أن الشرق القديم هو مهد المدنيات والحضارات وأنه كان المعلم الأول للبشرية ، وفي مختلف بقاعه بدأ الانسان يخطو خطواته الأولى نحو المدنية . لم يكن هذا الشرق صاحب الفضل فيما وصل إليه من كثير من أسس مدنيته المادية فحسب بل كان له فضل أعظم وأكبر من ذلك لأنه كان مبعث ذلك النور الروحاني الذي أضاء نفوس الناس وهذب من طباعهم ، فعلى ضفاف النيل بدأ الناس منذ آلاف السنين يؤمنون بالبعث ويدعون إلى حياة طاهرة ، ووصلوا منذ آلاف السنين إلى أسس ما يفكر فيه الناس من دعوة إلى الخلق الكريم ، وكان في مصر كما في غيرها ديانات وأساطير وآداب انتشرت بين شعوب العالم القديم وتغلغت معانيها ومراميتها في النفوس ، وكان لها أثرها الكبير عندما أخذت تلك الشعوب ترقى سلم المدنية وقدر لها أن ينتشر دينها وأدبها بين غيرها من شعوب العالم .

وزاد إيمان برستد بأهمية حضارات الشرق بعد أن بدأ يجوب بلاده منذ عام ١٩٢٠ وأخذ يعد العدة لتحقيق حلم قديم له وهو إنشاء معهد للدراسات الشرقية في شيكاغو والقيام بحفائر في مختلف بلاد الشرق القديم ، في مصر ، وفي العراق ، وفي فلسطين وفي سوريا ، وفي إيران ، وفي تركيا . وأخذت حفائر المعهد الشرقي تأنى بنتائج باهرة جديدة ، وزاد اهتمام العالم كله ببلاد الشرق القديم ، واهتمت حكومات البلاد الشرقية والمعاهد والمتاحف الأوروبية بدراسة آثار الشرق وحضاراته ، فشهد العالم

بين أعوام ١٩٢١ ، ١٩٣٩ نهضة أثرية لم يكن للناس عهد بها من قبل ، وأدت بعثات المعهد الشرقى وعلمائه واجههم خير الأداء ونشروا أبحاثهم فى مئات من المقالات والكتيبات والتقارير والكتب ، وكان برستد شيخ المؤرخين حركة دائبة مستمرة بين شيكاغو وبلاد الشرق ، وكانت أعماله الادارية ومسئولياته كثيرة ولكن لم يمنعه ذلك من أن يفكر فى اصدار طبعات منقحة جديدة أو بعبارة أخرى يعيد كتابة بعض مؤلفاته . ومنها كتاب « انتصار الحضارة » الذى أعد له كثيراً من الزيادات والاضافات ، ولكنه مات فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ وهو فى سن السبعين دون أن يقدمه للطبعة ، فقامت بذلك مساعدته الدكتورة إديث وير Edith Williams Ware وظهرت الطبعة الأخيرة فى عام ١٩٣٨ تحمل اسم مؤلفها وعلى صفحتها الأولى كتب الناشر : « طبعة جديدة . أعيدت مراجعتها وترتيبها إعادة كاملة . تحوى نصاً جديداً فيه استدراكات وملاحظات المؤلف نفسه ،

ولكن موت برستد لم يمنع معهده من الاستمرار فى تأدية رسالته ولم يمنع مساعديه وتلاميذه من السير بالأبحاث الأثرية إلى الأمام ، ونشر كثير منهم كتباً عدة فى تاريخ مصر وغيرها من بلاد الشرق القديم ولكن لم يكتب واحد منهم كتاباً ليحل مكان كتابه عن « انتصار الحضارة » رغم مضى سبعة عشر عاماً على ظهوره .

وانى مؤمن أشد الإيمان بأنه لن يمكن لأى طالب من طلبة التاريخ فى أى شعب من شعوب الشرق أن يفهم تاريخ بلاده القديم دون أن يدرس فى الوقت نفسه تاريخ الأمم المعاصرة لها ، ويعرف ما أخذته مدينة بلاده وما أعطته ، ويجب عليه أن يدرس أولاً تلك الحضارة مجتمعة ثم يستزيد من أى واحدة منها كما يشاء . وكتاب « انتصار الحضارة » من خير الكتب التى ألقت لمنفعة الطلبة ، لم يقصد به مؤلفه أن يكون للبختين أو للتعلمين فى البحث أو الذين يعنون بالتفاصيل

ولكنه مكتوب للطالب المبتدىء الذى يريد أن يعرف كيف تطورت المدينة وكيف ارتقى الانسان وماذا وصل إليه فى حضارته فى كل بلد من بلاد هذا الشرق . كتبه بلغة سهلة مقبولة ، وهو موضوع فى الأصل للطالب الأمريكى ، ولكنه صالح دون شك لكل طالب فى كل مكان .

ويحوى كتاب «انتصار الحضارة» ثلاثين فصلا ومجموع صفحاته ستائة وخمسون لم يترجم منها فى هذا الكتاب إلا الفصول الثمانية الأولى ومجموع صفحاتها مائتان وأربع وثلاثون وهى التى تتناول شعوب الشرق القديم فقط اذ يبدأ تاريخ اليونان وغيرهم من شعوب العالم بابتداء الفصل التاسع .

ولم اتردد كثيراً فى قبولى الاشراف على نقل هذه الفصول الثمانية إلى اللغة العربية لثقتى التامة بأن القارىء العربى وخاصة الطلبة فى مسيس الحاجة إلى مثلها ، وأسأل الله جل شأنه أن يستفيد منها أبناء الشعوب العربية ما استفاده زملائهم من الطلبة الغربيين . فانها فصول كتبها رجل عالم عظيم آمن بحضارة اجدادهم وظل إلى يوم وفاته يعمل بجد واخلاص لنشر فضل الشرق ومدنيته على البشرية جميعا .

أحمد فخرى

والله ولى التوفيق

القاهرة فى ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٤ هـ
الموافق ٢٢ ابريل سنة ١٩٥٥ م

المخطوات الأولى
في تقدم الإنسان

كيف بدأ الإنسان حياته جماعاً للغذاء أقدم أساليب المعيشة الإنسانية ..

لم تمض غير قرون قليلة على الوقت الذي كان فيه منظر هجوم ذئب جائع من الغابة ليخطف طفلاً من الطريق في قرية من قرى شمال أوروبا أمراً عادياً ، بل وفي أيامنا هذه مازال النمر الآكل للبشر في الهند ، والأسد المفترس في أفريقيا ، مستمرين في قتل الانسان ونهش لحمه .

وانقرضت تدريجياً الحيوانات الكبيرة الثديية رغم قوتها العظيمة ، ولم تستطع مقاومة القوى الطبيعية التي استطاع الانسان أن يتغلب عليها ، إذ ربي الانسان في نفسه المقدرة على مواجهة الحيوانات الثديية التي كانت تنافسه في السيطرة على الأرض ، وبهذا أصبح تقدمه ساحقاً لا يعرف الرحمة ، فاخفت الزراعة والفيل من شمال وادي النيل في بداية العصور التاريخية ، على الرغم من أن الأسلحة التي استعملها الذين عاشوا في عصر ما قبل التاريخ كانت أسلحة بدائية ، وكذلك تسبب الملوك المحبون للصيد في بلاد الشرق القديم في القضاء على القبيلة الآسيوية من سهول أعلى الفرات منذ بضعة آلاف من السنين .

وكلنا نعلم جيداً كيف تم القضاء على حيوان اليبسون في أمريكا وكذلك كيف أصبحت الفصائل الباقية من الغوريلا على وشك الاختفاء من أفريقيا ، مما جعل علماء التاريخ الطبيعي يرون أن تقدم صناعة الأسلحة في الأجيال القليلة الماضية كاد يجعلنا نصل إلى آخر عصر الثدييات .

وليس هذا إلا مثلاً واحداً واضحاً لانتصار الإنسان ، فإن تفوقه لم يأت إلا بطيئاً

جداً، وعلى مراحل تدريجية . واستطاع العلم الحديث أن يتتبع تطور تلك المراحل على مدى مئات الآلاف من السنين ، ونستطيع أن نرى بجلاء ، وخطوة بعد أخرى ، كيف ازدادت مقدرة هذا الإنسان في الدفاع عن كيانه بين العناصر المتنافسة على الحياة ، وتحصين نفسه أمام قوى الطبيعة ، وقد ازدادت إلى حد كبير عندما أصبح هذا الإنسان أول المخلوقات بل والوحيد من بينها الذي أمكنه صنع الأدوات .

ونحن نعرف عن بعض الحيوانات قدرتها على مسك العصا أو قطعة من الحجر واستعمالها كأداة في يدها ، ولا شك أن السلف من أجدادنا الذين عاشوا في أقدم عصور الانسانية فعلوا ذلك أيضاً ، ولكن هؤلاء السلف الأوائل خطوا خطوة إلى الأمام وكانت خطوة أساسية لم يستطع غيرهم من المخلوقات أن يخطوها . لاحظ الإنسان أن حجره الذي التقطه من الأرض لم يكن ملائماً تماماً لغرضه ، لقد فحص شكله ولم يرض عنه ، وعدم الرضاء عامل مهم في التقدم بل أساسى له . وهكذا ربما خطر لأحد الرجال البدائيين والذي كانت لديه موهبة التفكير أكثر من غيره أن يضرب حجراً بأخر ، وهكذا تمكن من تحسين شكل الحصى التي التقطها وجعلها أكثر ملاءمة للغرض الذي أراد أن يستعملها فيه ، وبهذا صار أول المخلوقات التي صنعت الأدوات . أصبح مخلوقاً يستعمل ذكاه لالسد جوعه بما يجده من مواد غير حية فحسب بل يستعمل ذكاه أيضاً لتشكيل بعض أنواع الجماد لتصبح أدوات تساعد كثيراً في السيطرة على دنياه التي حوله وما فيها من كائنات حية أو غيرها . وتقدمت خبرة هذا الانسان في صناعة الأدوات والآلات وتدير الحيل الآلية . ولم تقف هذه الخبرة عند الحد الأول بل استمرت وكان لها أعمق الأثر في ارتقائه . وكانت مقدرته في صناعة الأدوات السبب الرئيسى في تطور مركز هذا الانسان في الحياة الانسانية .

ولكى ندرك هذا الأمر يجدر بنا أن نتلفت أولاً حولنا ثم ننظر إلى الوراثة

فإننا نعرف جميعاً أن أجدادنا لم يستمعوا في حياتهم إلى جهاز الراديو أو رأو طائرة عندما كانوا في سن الطفولة ، وأن قليلاً جداً من بينهم من استقل سيارة في يوم من الأيام. وعاش آباء هؤلاء أكثر أيام حياتهم بغير نور كهربائي أو تليفون في منازلهم. وكان أجدادهم مضطربين لقطع مسافات شاسعة في عربات السفر التي تجرها الجياد. ومن بين هؤلاء من مات دون أن تكتحل عيناه برؤية القاطرة . فقد اخترعت هذه الأشياء واحدة تلو الأخرى ووصلت إلينا ، وسنخترع أشياء أخرى وستؤثر في حياتنا . وكل واحد من هذه الاختراعات يستند إلى ما كان قبله ، ولولاها لكان من المستحيل أن تتحقق إذا لم تسبقها أبحاث أقدم منها ، وإذا تعمقنا قليلاً في دراسة تاريخ الجنس البشري فإنه يسهل علينا أن نتصور اليوم الذي عاش فيه الإنسان وكان من المستحيل عليه عمل عربة سفر أو أى نوع من العربات لأن العجلة لم تكن قد اخترعت بعد ولأن أحداً لم يذلل الجواد البرى .

وقبل تلك الأيام لم تكن هناك سفن ولم يكن هناك سفر أو تجارة عن طريق البحر ، ولم تكن لديه أدوات معدنية لأنه لم يكن هناك من رأى معدناً إذ ذاك . وكان من المستحيل أن تقام مبان جميلة أو أى أبنية من الحجر إذ لم يكن الإنسان قد عرف استعمال أدوات من المعدن لقطع الأحجار . ولم يكن ميسوراً لأحد من الناس أن يكتب شيئاً لأن الكتابة لم يكن قد اخترعها أحد . وبالتالي لم تكن هناك كتب أو أى معرفة بالعلم .

فاذا ما تعمقنا أكثر من ذلك في الإلمام بقصة الانسان نجده همجياً ولكنه أرقى قليلاً من الحيوانات التي حوله مهما كانت متقدمة ، إنه لم يكن يمتلك شيئاً غير يديه الفارغتين يستعملهما لحماية نفسه وإشباع جوعه وتأدية كل أغراضه الأخرى . ولا شك أنه كانت تعوزه القدرة على الحديث المنتظم ولم يكن في مقدوره أن يشعل النار ولم يكن هناك من يعلمه شيئاً من ذلك . وهكذا كان أقدم البشر مضطربين لأن يتعلوا كل شيء بأنفسهم عندما بدأوا في تلك الحالة . وكان سيئهم

إلى ذلك التجربة البطيئة والمجهود الطويل . لقد مرت أجيال طويلة على هذا الإنسان وكان في ذهنه الهمجي شيء من شعاع الذكاء ولكنه لم يحقق شيئاً من هذه الاختراعات بل لم يفكر في أنه في استطاعة الإنسان أن يتمكن من إنتاجها . ثم جاء الوقت الذي أخذ فيه يخترع كل أداة من هذه الأدوات مهما كانت بسيطة لأنه لم يكن هناك شيء منها . وهكذا نرى أن قصة تاريخ الإنسان هي - إلى حد غير قليل - قصة الانتصار على الموارد المادية باستعمال حيل مختلفة وأدوات وأشياء آلية ، إذا ما أدخلنا في حسابنا النتائج التي ترتبت على اختراع هذه الأدوات في النواحي الاجتماعية والسياسية والفنية والدينية . لقد كانت قطعة الحجر التي استصلحها هذا الإنسان البدائي ليستعملها كسلاح في قبضة يده رمزاً مميزاً للعصر الحجري قبل ما تسمى ألف سنة مضت . كما أصبح البخار أو الاسطوانة الكابسة في الآلات التي تدار بالبتروول رمزاً على عصرنا الحاضر (١)

لم يعد يعيش على سطح الأرض أي قوم على الحالة التي كان عليها يعيش أقدم البشر أي دون أن يكون لديهم أي علم بالأدوات أو الآلات . ولكن هناك بعض أقوام متأخرين يحيون حياة همجية وكانوا عند العثور عليهم يحيون حياة من أخط أنواع الحياة السائدة بين القبائل الهمجية ، ويكادون يشبهون أسلافنا البدائيين . ولنضرب مثلاً لذلك بسكان جزيرة تسمانيا (٢) الذين انقرضوا الآن فقد كانوا عندما اكتشف الهولنديون جزيرتهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة يعيشون عراة الأجسام ولم يكونوا قد تعلموا بعد كيف يصنعون قوساً أو سهاماً ولم يعرفوا

١ - كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية صحيحاً أما الآن فإن الاختراعات تقدمت كثيراً وغطى استخدام الذرة على ما سبقه من اختراعات وأصبحت هي الرمز المميز للمصر الذي نعيش فيه - المغرب
٢ - جزيرة Tasmania تابعة لأستراليا وتقع إلى الجنوب منها يفصلهما مضيق باس Buss Strait
اكتشفها الملاح الهولندي الشهير أبل تسمان Abel J. Tasman في عام ١٦٤٢ - وهو الذي يرجع إليه الفضل أيضاً في اكتشاف نيوزيلاندا وجزائر فونجا وجزائر فيجي - المغرب

صيد السمك إلا بواسطة استعمال الحرابة . ولم يكن لديهم خيول أو حتى كلاب . ولم يسمعوا في حياتهم شيئاً عن بذر الحب أو زرعه ليخرج محصولاً من أى نوع . ولم يعرفوا أن الطين يصبح صلباً إذا وضع في النار . وترتب على ذلك أنه لم يكن لديهم أوان أو أباريق أو أطباق من الفخار لحفظ الطعام . وبالرغم من أنهم كانوا عراة ولا مأوى لهم ، فقد تعلم هؤلاء التسمانيون كيف يؤدون القليل من حاجات الإنسان ، ومع ذلك فإن هذا القليل الذي تعلموه حملهم إلى الامام مسافة غير قليلة تفوقوا فيها على الحالة التي كان عليها أقدم أفراد الجنس البشرى . كان في استطاعتهم أن يوقدوا النار التي كانت تدفئ أجسامهم في أيام البرد ، وكانوا يطهون عليها اللحم . وتعلموا كيف يصنعون حراباً من الخشب كانت جيدة الصنع جداً ، ولكن لم يضعوا قطعة من المعدن في آخرها لأنهم لم يكونوا قد سمعوا به . بل كانوا يضعون في آخر هذه الحراب الخشبية قطعاً من الحجر بدلاً من المعدن . وأحسنوا استعمال هذه الحراب ، وكانوا يقذفونها بدقة عظيمة فيصيرون صيدهم الذي كانوا يحتاجونه للطعام ويطاردون بها أعداءهم من الناس . وكانوا يعرفون أيضاً كيف يأخذون حجراً مسنوناً ويشذبون أطرافه ويجعلونها رقيقة فتصبح سكيناً استعمالها رغم أنها كانت غير متقنة وبدائية الصنع لسليخ الحيوانات التي اصطادوها وتقطع لحومها . وكانوا مهرة جداً في صنع فناجين وأواني وسلال من لحاء الشجر . لكن أهم من ذلك كله أنه كانت لهم لغة بسيطة تحتوي على كلمات لجميع الأشياء العادية التي استعمالها أو فعلوها في حياتهم اليومية .

عاش أقدم البشر عدة مئات من آلاف السنين حياة أقل حضارة من حياة التسمانيين ، وقد عثر العلماء على مخلفات هذه الحياة غير المتمدية في كثير من أرجاء أوروبا وآسيا وإفريقيا ، ولكن لا يعرف أحد في أى مكان تمت جميع المراحل التي ساعدت على تكوين الإنسان كما نعرفه الآن ، أو بعبارة أخرى المكان الذي تمت فيه عوامل

ما نسميه الآن بالنشوء وهناك أدلة لا بأس بها تجعلنا نظن أن ظهور الانسان لأول مرة كان في أفريقيا . كما أن هناك أدلة لا بأس بها أيضاً على أنه نشأ في آسيا . وكان ظهور الانسان في ذلك الزمن البعيد الذي يسميه الجيولوجيون باسم البليوسين Pliocene أى منذ بضع ملايين من السنين ، وكان في نشأته الأولى لا يكاد يختلف عما حوله من الحيوانات الأخرى التي عاش بينها . كانت هذه الحيوانات أقل ذكاء منه ولعكته شابهها في عدم تركه وراءه ما يبقى على مر الأيام ليدل على وجوده ، فقد كان التقدم الذي رفعه إلى مستوى أعلى من مستوى الحيوانات المنافسة له يكاد لا يحس به أحد في البداية ، كان بطيئاً جداً ، إذ استغرق التقدم الذي أوصله إلى عتبة الحضارة ملايين السنين كما استمر هذا البطء أيضاً بعد أن خطا تلك الخطوة وبعد أن أسرعت به اختراعاته وأدواته التي صنعها يديه منذ مليون سنة على الأرجح .

واستطاع الأثريون في غرب أوروبا أن يجمعوا من مصادر متعددة ما مكنتهم من كتابة قصة مفصلة جداً لحياة الإنسان قبل ظهور المصادر المكتوبة ، وجاءت الاكتشافات الحديثة في إفريقيا وآسيا وشرق أوروبا فأيدت إلى حد كبير النتائج التي وصل إليها ملاوهم العلماء الذين كانوا يعملون في غرب أوروبا ، وهكذا أظهرت الأبحاث في كل المناطق التي كانت ميداننا للبحث تشابهاً عاماً في تتابع مراحل التقدم الإنساني نحو الحضارة . ولكن كيفما كان الأمر فمن الواضح أن مثل هذا التقدم لا يمكن أن يحدث في وقت واحد أو على وتيرة واحدة في أمكنة مختلفة في العالم . فمثلاً استطاع كل من سكان مصر وغرب آسيا من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربي أوروبا أية طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة . وكذلك استعمل المصريون وسكان غربي آسيا الأدوات المعدنية وكانت لهم صلة تجارية بغيرهم من الأمم بواسطة السفن في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون مازالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر ، ولم يعرفوا على الأرجح أية وسيلة من وسائل الملاحة غير الزورق المنحوت في

جذع الشجرة . ومع هذا فهناك أمر اتفق عليه جميع الباحثين وهو أن مراحل الحضارة القديمة التي كانت أساسا لحضارتنا الحالية لم تنشأ في قارة أوروبا بل إنها تطورت في الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط في كل من مصر وغرب آسيا ، ولكنه من الأسلم بل ومن الأفضل أن نتبع قصة حضارة الإنسان في أقدم عصوره في كل بلاد البحر الأبيض بدلا من تتبعها في قطر واحد لان هؤلاء الناس عاشوا حول هذا البحر ثم انتشروا منه إلى داخل القارات فذهبوا شمالا إلى البحر الشمالى وعبروا إلى الجزر البريطانية وانتشروا جنوبا عبر إفريقيا في المنطقة التي نسميها الصحراء الكبرى واتجهوا أيضا نحو الشرق حتى اجتازوا الخليج الفارسي . كانت أراضي منطقة البحر الأبيض المتوسط عندما ظهر الإنسان مختلفة عما هي عليه الآن فكانت الغابات الشاخنة على ضفتي مجارى الانهار في أوروبا ، وكانت تملأ كثيرا من وديانها المتسعة ، وكانت تغطي أيضا أجزاء من هضبة الصحراء الكبرى التي كان أكثرها في تلك الايام منطقة خضراء وفيها المياه الكافية . وكانت أفراس النهر ذات الحجم الهائل تتمرغ على شاطئ تلك الانهار ، وكان وحيد القرن الشرس الطباع يهاجم ما يعترض طريقه في النباتات الكثيفة على جانبي الانهار . وكانت هناك فيلة ذات أنياب هائلة الحجم ترعى إلى جانب ما بقى إذ ذاك من حيوانات . أما في أوروبا فإن أسلاف ماشيتنا الاليفة كانت ترعى في المرتفعات ، وكانت أسراب الايائل تأوى إلى بعض أشجار الاماكن الفسيحة في وسط الغابات . وكانت قطعان الخيل الوحشية تتجول هنا وهناك ووصل بعضها جنوبا إلى إيطاليا . وكانت بعض الثدييات الافريقية ذات الحجم الضخم تتجول كما يحلو لها في كل مكان من أوروبا وإفريقيا ومن بينها الفيل الجنوبي (Elephas meridionalis) الذي كثيرا ما يعثر على عظامه الآن فوق المنحدرات العليا لنهر السين (Siene) أو وادي التيمس (Thames) وهذا يثبت أن أفريقيا كانت متصلة بأوروبا في عصر ما ، وأن هذه الحيوانات وصلت برأ من الواحدة إلى الاخرى .

أما الناس فكانوا يضربون في عرض غابات أشجار السيكويا (sequoia) محترسين عراة الأجسام يجمعون قوتهم اليومي من بين جذور النباتات والحجوب والفواكه البرية حيثما يعثرون عليها ، ينصتون بحذر إلى صوت حيوانات الصيد الصغيرة التي عسام يحصلون عليها بمساعدة عصيهم الخشبية البسيطة ، لأنه يجب أن نفترض أنهم استعملوا مثل هذا السلاح الخشبي لأن الغابات كانت مملأى بفروع الأشجار الجالقة التي سقطت على الأرض .

وفي هذا العصر الخشبي الذي زالت كل ادواته وأسلحته أحس الانسان البدائي بأول دافع في هذا الكون بأنه في حاجة إلى تشذيب فروع الأشجار التي سقطت على الأرض ليجعل منها أداة أو سلاحاً لتأدية غرضه ، ومعنى ذلك أن أول مخلوق صنع الأدوات ولد في ذلك العهد ، وكان بهذا الجسد الأكبر لكبار المخترعين أمثال « وات ، Watt و « اديسون ، Edison .

وفي فترة من فترات التطور البدائي لهذا الانسان تطورت أيضا إشارات الصوتية المعبرة عن الخوف أو الجوع أو العطش أو الأسى إلى أبسط نوع من أنواع الكلام . فكانوا إذا أحسوا بضجة الحيوانات الكبيرة في الغابة أو لمحوا قطعان الفيلة آتية من بعيد يفرون مذعورين وهم يتصايحون لينبها إخوانهم . وفي الليل كان الصيادون ينامون في كل مكان أو صلهم إليه صيدهم ، ينامون بعد تقطيع لحم فريستهم بمدى من الخشب على الأرجح ويأكلونها دون طهي ، ولم يكونوا قد عرفوا النار ليدرأوا بها الحيوانات المفترسة فكانوا يقضون ليلهم يرتجفون في الظلام عند سماعهم لزئير النمر الكبير ذى الأنياب الحادة . وأخيرا عرفوا ما هي النار ، عرفوها على الأرجح في الغابة عندما أصاب البرق شجرة فالتهمت ، ولا بد أنهم تعلموا أيضا كيف يخافونها عندما كانوا يقفون بعيدا ويرون البراكين المخيفة مثل « إتنا ، Etna ، و « فيزوف ، Vesuvius ، وكانت خطوة كبرى يوم عرف

بجعة
عن تورينيه وكوستاري براهاب



SWAN
(After Tournier
and Costa de
Beauregard)

طائر
عن باسا-



BIRD
(After
Passemerd)

عن ليوردى



INEX
(After Lemoz)

جمار وصغيره
عنه فروبنيس - اوبر ماير



ASS AND FOAL
(After Frobenius-Obermaier)

بقرو حشى
عن كاپيتان - بريك - برونى - برونيه



WILD CATTLE
(After Capitan-Breuil-Peyrony
Bourinnet)

خنزير بربرى
عنه اوبر ماير وقرنوت



BOAR
(After Obermaier-Wernert)

دب
عن كاپيتان - بريك - برونى



BEAR
(After Capitan-Breuil-Peyrony)

أسد يفتقر من مرثا
عن فلانمان



LION DEVOURING ANTELOPE
(After Flamand)



RHINOCEROS
(After Capitan-Breuil-Peyrony)

شكل ١ : حيوانات العصر الحجري
تلك هي بعض الحيوانات التي نجدها في النقوش الملونة والرسوم التي تركها
الإنسان الذي عاش في العصر الحجري . انظر أيضا شكل ٦

هؤلاء الأوائل بعد وقت طويل كيف يشعلون نارا بأنفسهم، فاستطاعوا أن يعدوا طعامهم ويدفئوا أجسامهم ثم جعلوا نهاية حراهم الخشبية أشد صلابة بوضعها في تلك النار . ولكن لم يستطيعوا أن يجعلوا سكاكينهم البدائية أكثر صلابة كما فعلوا بالحرا . وربما كانت نتيجة ذلك أنهم تعلموا صناعة هذه السكاكين من العظم ، وكثيرا ما التقطوا أيضا حجرا صغيرا مكسورا من حجر آخر واستعملوا حده غير المشذب فيما يستعملون فيه تلك السكاكين من أغراض . وفي يوم من الايام - وكان ذلك في أغلب الظن قبل مليون سنة تقريبا - عرف الانسان كيف يهذب الحجر ليصبح ملائما لحاجته وصنع منه آلة بسيطة أو سلاحا ، وبهذا دخل فيما نسميه الآن العصر الحجري (Stone Age) .

كانت هذه الأسلحة والأدوات الحجرية خيرا بما سبقها فلم تتعفن ولم يقض عليها الزمن مثل مثيلاتها من الخشب والعظم ، وبقيت إلى الآن ، وأصبح في ميسورنا أن نقبض بأيدينا على الأدوات الحجرية نفسها التي تمكن بواسطتها أوائل الناس من الاحتفاظ بوجودهم أثناء نضالهم المستمر ليحصلوا على القوت ويجدوا مكانا بين مناوئهم من الحيوانات الضخمة التي كانت حولهم ، وأوضحت لنا هذه الأدوات الحجرية وبقايا أجسام الأوائل التي عثر عليها في الطبقات الجيولوجية في صورة لا تقبل الشك مدى الزمن الطويل الذي مضى على الانسان منذ ظهوره في هذه الدنيا ، وكان من المفروض حتى وقت قريب أن التاريخ الانساني كان قصيرا نسبيا . وكان من المفروض أيضا أن أجدادنا الأقدمين في أوائل وجودهم على الأرض لم يخلفوا وراءهم ما يدل عليهم . فنحن نعرف مثلا من خطاب مؤرخ في عام ١٧١٤ أن صيدليا عثر على عظام فيل في بقعة ملاءى بالحصى على مقربة من لندن ، وإلى جانب هذه العظام وجد أيضا سلاحا من الظران . وقد نشر هذا الخطاب عقب الاكتشاف مع رسم لهذا السلاح الحجري واستنتج الكاتب أن ذلك الحيوان لم يكن إلا فيل من الأفيال التي كان يستعملها الرومان في الحرب وأنهم أتوا به إلى تلك البلاد ، ولم يلق



شكل ٢ : جماعة من هنود أمريكا الشمالية يصنعون آلات الظران

يقوم الشخص الاخير فى الصورة بانتقاء حجر كبير ، وتلك هى المادة الاولية التى يأخذها الهندى الذى فى الوسط ليحطمها فوق صخرة الى قطع صغيرة .
ويأخذ الهندى الثالث احدى تلك القطع بعد ذلك فى يده اليسرى ويضربها بحجر فى يده اليمنى ، فتتناثر شظايا الظران وقد برع ذلك الهندى فى عمله وأصبح من السهل عليه أن يشكل تلك القطعة الى فأس من الظران . وكانت هذه العملية ، وهى عملية تشكيل الظران بوساطة الطرق أو القرع هى أقدم الطرق وأكثرها سداجة ، وكانت لاتنتج إلا الادوات الحجرية الخشنة الصنع

أحد بالا إلى هذا الاكتشاف وسرعان ما نسيه الناس . وفي مدى قرن من الزمان بعد ذلك تكرر العثور على أمثال هذا الاكتشاف سرا في إنجلترا أو في القارة الأوروبية وكان مصيرها أيضا النسيان . وظل الأمر كذلك حتى عام ١٨٦٠ أى بعد مضي ما يقرب من قرن ونصف على العثور على هذا الاكتشاف . ففي ذلك الوقت فقط تفتحت عيون العلماء على حقيقة طول فترة وجود الانسان على سطح الأرض ، وعرف العلماء أن الانسان خلف وراءه كثيرا من تلك الأدوات الحجرية منذ مليون سنة ^(١) على الأرجح وعرفنا من دراسة هذه الأدوات كيف كان هذا الانسان يحسن وسائل حياته وذلك من تقدمه في صناعة وتشكيل الأحجار واطراد التحسن في الصناعات الأخرى التي بدأ يتعلمها . كانت أوروبا وخاصة فرنسا أولى البلاد التي بدأ فيها بحث العلماء عن أدوات ومخلفات الانسان الذي عاش في العصر الحجري . إذ ترك الصيادون الأوائل بعض آلاتهم الحجرية البدائية وأسلحتهم جنبا إلى جنب مع عظام الحيوانات الكبيرة التي قتلوها . وبقى كل ذلك في الرمال والحصى على جوانب مرتفعات الوديان التي كانت تجرى فيها أنهار فرنسا قبل أن تعمق مجراها . وعثر الحفارون في فرنسا على الكثير من مخلفات الحياة في العصر الحجري . وكانت كثيرة إلى حد جعلهم ينشئون مجموعات في المتاحف لتلك الأدوات

١ - أثبتت أبحاث بعثة دراسات ما قبل التاريخ التي قام بها المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو في مصر أن المرحلة الأولى التي بدأ فيها الانسان يصنع الأدوات ترجع الى فترة البليوسين (Plio-Pleistocene) أى الى العصر الذي يسبق مباشرة بداية البليستوسين أو العصر الجليدى أما الجيولوجيون الامريكيون فيرون أن منطقة أعالي نهر المسيسيبي هي خير مكان في العالم لدراسة العنصر الزمني في العصر الجليدى . وقد وصل الدكتور جورج كاي George F. Kay بعد دراسات طويلة متصلة وخاصة في قطاعات في ولاية أيوا (Iowa) الى القول « ويلوح أنه امر محقق اذا قلنا ان عصر البليستوسين (أى عصر الجليد) استمر مليون سنة وربما ضعف هذا الوقت » (انظر خطابه كنايب رئيس الجمعية الجيولوجية الامريكية *George F. Kay, Classification and Duration of the Pleistocene Period.* في مجلة *Bulletin of the Geological Society of America*, vol. 42 (1931) P. 466

ولكننا يجب أن نضع في ذهننا أن ما وصلت اليه معلوماتنا في البحث في هذا الموضوع لا يكفي لوضع تاريخ محدد لا يحتمل الشك

الحجرية ، وظهر بعد ذلك الكثير من أمثالها وبنفس الكثرة أيضا في ممالك أوروية أخرى ، وهكذا كان الأمر في شمال أفريقيا إذ عثر الباحثون على آلات حجرية في منطقة تبدأ من الجزائر إلى أسفل وادى النيل ، وفي آسيا أيضا على امتداد الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

وبالرغم من أن هؤلاء الأوائل من بنى الانسان كانوا على ما يظهر يموتون بكثرة نتيجة لحياتهم المحفوفة بالمخاطر فإنهم استمروا آلاف السنين في كفاح مر لأجل البقاء ، وتحسنت أسلحتهم البدائية المصنوعة من الحجر ، وكان هذا التحسن بطيئا ، ومن المحتمل أنهم تعلموا أيضا كيف يصنعون أدوات أخرى من الخشب ، ولكن الأخيرة تعفنت واختفى أثرها ولم نعد نعرف شيئا عنها .

لم يكن هناك حيوان لم يجد فيه هؤلاء الصيادون عدوا لهم ، وكان عليهم أن يجرؤوا كلا من أسلحتهم الصغيرة ومكرهم ليحاربوا بها قوة الحيوانات ومكرها . لم يكن هناك حتى ذلك العهد كلب أو شاة أو طير يعطفون عليه ، إذ كان سلف هذا الكلب الأليف ما زال حيوانا مفترسا شبيها بالذئب يعيش في الغابة يشب على كل صائد لا يكون على حذر . وكانت أسلاف حيواناتنا الأليفة بوجه عام تتجول في الغابات في حالة وحشية . ولكن مع كل هذه الصعاب ورغم كل ما كان يعوق طريقه في سبيل البقاء فقد كان ذلك الانسان الذى عاش في عصر البليستوسين أسعد حظا من أخيه الذى جاء بعده ، وذلك أنه كان يعيش في جو دافئ معتدل حيث كان جمع القوت أمرا سهلا ميسورا .

العصر الجليدي الكبير والإنسان في العصر الحجري القديم

كانت الأرض في ذلك الوقت غنية بحيوانها ونباتها ولكنه كان مقدرا لها أن تمر بفترة من أخرج الفترات في تاريخها . كانت هناك عمليات تكوين في الجبال وحركات أرضية في عصر البليوسين Pliocene ولما كانت هذه العمليات مرتبطة بتغيرات مناخية هامة تأتي على أثرها فإن نتائجها كانت دائما وخيمة العاقبة . ولم يكتشف الجيولوجيون والمناخيون حتى الآن السبب الذي جعل المناخ يصبح أشد برودة وأكثر رطوبة مما كان عليه منذ آلاف السنين ، وتساقطت الثلوج بكثرة وخاصة على قمم الجبال نتيجة لهذا التغيير وبدأت تلك الثلوج تتراكم وتنتشر حول مراكز سقوطها . وفي النهاية تكونت طبقات هائلة من الثلج فوق الأرض تقدر مساحتها على سطح الأرض بنحو ١٢ مليون ميل مربع . وفي العصر الذي بلغ فيه الثلج أقصاه يرى بعض الباحثين أن الثلج امتد عبر أمريكا الشمالية وجنوبا حتى جزيرة لونج (Long Island) وغربا حتى وديان أوهيو (Ohio) وميسوري (Missouri) وفي أوروبا وآسيا وصلت حواف الطبقات الجليدية الشمالية العظيمة إلى الساحل الجنوبي لإنجلترا وامتدت جنوبا وشرقا عبر أوروبا حتى خط عرض ٥٠ في وادي الدينير Dnieper ، ومن هناك اتجهت شمالا وشرقا إلى جبال أورال . ويظهر أن مساحات أخرى من الثلجات زحفت من جبال البرانس (Pyrenees) والألب وجبال الكاربات Carpathians والبلقان في أوروبا ، ومن سواحل آسيا الصغرى ، ومن لبنان والقوقاز والزاغروس (Zagros) وغير ذلك من جبال إيران في غرب آسيا ومن القمم المرتفعة في وسط آسيا .

أما في نصف الكرة الجنوبي فإن الثلجات تركزت في القارة المتجمدة الجنوبية .

وسنطلق على هذا العصر الجليدى ، اسم « العصر الجليدى الأعظم » ، تفرقة له من عصور جليدية أخرى حدثت في فترات سابقة من تاريخ الأرض .

ويعمل الجيولوجيون على تحديد حركات وامتداد طبقات الجليد من الآثار التى خلفتها . ومثل هذه الظواهر - ظواهر تحركات طبقات الجليد - توجد فى الوديان المتكوّنة من تآكل التربة . وتوجد مثل هذه الدلائل عن تحركات الغطاء الجليدى فى أماكن وجود الصخور المتقلّبة ، وتوجد أيضا فى طبقات الطين المترابكة فوق بعضها أو فى المستويات المتوازية المحفورة فى الصخور التى مرفوقها الغطاء الجليدى .

ومن النتائج التى وصل إليها العلماء فى دراسة مجارى الثلجات ، القطع بوجود عدة عصور جليدية تفصل بينها فترات أدفا عندما ذابت الثلوج تماما أو قلت نسبيا . ويختلف الجيولوجيون الآن فى تحديد عدد العصور الجليدية إلا أنهم متفقون فى وجود اختلاف فى المناخ أثناء العصر الجليدى الأعظم وماتلا ذلك خلال نحو مليون من السنوات عندما كانت الطبقات الجليدية تزحف وتراجع مرات عدة . ومن الواضح أن المساحات المحيطة بالطبقات الجليدية كانت شديدة البرودة ، ولكن بالرغم من هذا فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من فرنسا والنمسا والمانيا لم تكن مغطاة بتاتا بالثلوج وأن كثيرا من رواسب الفترات التى تخللت العصور الجليدية تحتوى على بقايا حيوانات مما تعيش فى المناطق المعتدلة أو النصف استوائية مثل فرس النهر والأسد فى إنجلترا والجل وحيوان التابير (tapir) فى جنوب أمريكا الشمالية . وفى خلال الفترات التى فصلت بين العصور الجليدية كان مناخ أوروبا وأمريكا الشمالية دافئا كما هو الآن . وعلى هذا يمكننا القول بأن مساحات كبيرة من أمريكا الشمالية وأوروبا كانت آهلة بالسكان طوال العصر الجليدى الأعظم الذى يطلق عليه الجيولوجيون اسم پليستوسين Pleistocene

وكان زحف الجليد سببا فى جعل حياة الناس الأوائل شمال حوض البحر

الأبيض المتوسط شديدة قاسية ، ومن الجائز أن هؤلاء الأوربيين الأقدمين تقدموا كثيرا في ثقافتهم في الفترات التي توسطت عصور الثلج ، وإذا فحصنا خريطة لشمال إفريقيا فإنا نرى أن في المنطقة الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط لا توجد إلا مساحة واحدة من تلك المساحات التي كانت تغطيها الثلوج وهي التي تقع في أقصى الغرب في المنطقة المجاورة لجمال أطلس . ومن ثم لم ترحف الثلوج على الهضبة المستوية في شمال إفريقيا وهي المنطقة التي نسميها الآن هضبة الصحراء الكبرى . ومن المحتمل أن نفس الرطوبة الجوية التي كونت الثلجات الهائلة على الجانب الشمالي للبحر المتوسط كانت هي العامل نفسه الذي سبب سقوط أمطار غزيرة على الجانب الجنوبي فوق تلك الهضبة ، وكان من أثرها نمو المراعي والغابات والأحراش في أجزاء كثيرة منها . ومن المحتمل أن الصيادين تتبعوا الحيوانات عبر هذه الأراضي الخصبية في شمال إفريقيا كما هو الحال الآن في الهضاب الواقعة في وسط جنوب إفريقيا . وكان هؤلاء الصيادون الأوائل يسرون وراء الحيوانات إلى المجرى الذي حفره نهر النيل عبر الحد الشرقي للصحراء . وكان النيل في ذلك العهد أوسع بكثير مما هو عليه الآن . وكان مثل نهر الميسوري (Missouri) يغير مجراه ولا يرجع إلى مجراه القديم مرة أخرى . وقد كشف البحث منذ وقت غير بعيد عن أحد المجرى الجافة لهذا النيل القديم الذي يبلغ طوله أكثر من ٥٠ ميلا موازيا لمجرى النهر الحالي . وعند الحفر في تراب مجراه إلى عمق أكثر من ١٨ مترا وجد الأثريون بعض أسلحة حجرية للصيادين الأوائل من الهضبة المستوية (الصحراء الكبرى) فقدوها أثناء بحثهم عن الحيوانات على ضفاف النهر ، وكان ذلك منذ مليون سنة على الأرجح .

وتسمى أقدم الآلات التي صنعها الإنسان باسم الباليوليتية Paleoliths ويسمى الأثريون الوقت الذي صنع فيه الإنسان هذه الأدوات بالعصر الباليوليتي أو العصر الحجري القديم . وإذا أردنا تحديد مكان هذا العصر بين العصور الجيولوجية

من تاريخ الأرض فإنا نرى طبقات البلايستوسين Pleistocene strata في الطبقات الباليوليتية Paleoliths في جميع الأراضي الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط . وعلى هذا فإن العصر الحجري القديم للإنسان اتفق مع كثير من فترات العصر الجليدي الأعظم ، وتلك الأدوات الباليوليتية مصنوعة من الطران ، وكانت تهذب لتأدية الشكل المطلوب بطريقتين : أولاها وأقدمها طريقة الطرق أى شظف قطعة بضربات من قطعة أخرى ، وثانيهما الطريقة الاحداث وهى الضغط وذلك باستعمال قطعة صلبة من العظم أو القرن لتهذيب جانب واحد ثم بلى ذلك تهذيب الجانبين معا (١) . ومن أهم الأدوات التى تميز أدوات العصر الباليوليتى نوع من الفؤوس هو أقدم الآلات اليدوية الثقيلة . وهذا النوع هو ما اصطلاح الأثريون على تسميته باسم « قبضة اليد » (Coup de poing) وقد وجد الكثير من الفؤوس فى الحصى فى كثير من المناطق حول البحر الأبيض المتوسط كما وجدت أيضا فى كثير من الاجزاء الأخرى فى الكرة الأرضية . وكانت فؤوس قبضة اليد أوسع اختراعات الإنسان انتشاراً . وهناك أدوات أخرى مصنوعة من الطران صنعها الإنسان الباليوليتى واستعملها كمنحازز ومكاشط ونصالوسكاكين وأسنة (ربما كانت تستعمل ليرموا بها ما يريدون صيده) ومقاطع ومطارق .

وإذا أردنا دراسة حالة الإنسان الباليوليتى من الناحية الاجتماعية أو الصناعية نجد أنه ينتمى إلى المجموعة التى يطلق عليها علماء الاجناس البشرية اسم « جامعى الغذاء » . وهم البدائيون الذين يأخذون ما تهبهم الطبيعة ولا يعملون شيئاً ليزيدوا الانتاج الذى يأتىهم من الطبيعة . وكان الرجال يجلبون إلى بيوتهم اللحوم التى حصلوا عليها من الصيد ، أما النساء فكن يجمعن الفاكهة والحبوب التى يجمعنها نامية . وبالرغم

١ - عند اكتشاف جزيرة تسمانيا كان سكانها يصنعون أدواتهم كما كان يصنعها الذين عثروا فى العصر الحجري القديم

من أن مثل هؤلاء الناس لم يكونوا يعيشون في أماكن ثابتة ويتجولون عادة لجمع القوت من مكان لآخر بعد أن يستنفدوا ما فيه من قوت، إلا أنه من الطريف أن نجد في أوروبا الباليوليتية بعض أماكن إستمر الإنسان في سكنها عصر أ بعد عصر



هذه الآلة كان يقبض عليها باليد من الناحية الأكثر سمكا ولم يكن لهذه الفأس يد بالمرّة . والفأس التي تبدو في الصورة يبلغ طولها نحو ١٨ سنتمترا . وقد عثرت عليها بعثة المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو

شكل ٣ : فأس قبضة اليد
وجدت في مجرى قديم من مجارى
نهر النيل

وإذا أردنا معرفة السبب الذى جعل هؤلاء الناس يعيشون في تلك الأماكن فإننا نرى أن السبب الرئيسى ربما كان الرد الشديد وقلة الكهوف والمآوى الصخرية الدافئة الجافة . كما أن هناك سبباً آخر لاستمرار وجود أمثال هؤلاء الناس في أماكن معينة هو وجود الظران الذى يصنعون منه أدواتهم ، وهكذا أصبحت بعض الكهوف والمآوى الصخرية سجلا لتقدم الإنسان الذى عاش في ذلك العصر، وذلك عند حفر طبقات تلك الكهوف ودراسة ما تركه ذلك الإنسان منذ اليوم الذى تمكن فيه من تشكيل أدوات الظران .

وفي هذه الأماكن الباليوليتية وجدت مدافن تحوى بقايا آدمية وأدوات شخصية للزينة وأسلحة أو آلات - وربما كانت هذه الأخيرة لأجل الحياة الأخرى

بعد الموت . وترينا هذه المدافن أن الرجل الباليوليتي لم يكن حيواناً مفكراً وحسب بل أن بقايا عظامه ترينا أيضاً بعضاً من خصائصه الجثمانية ، إذ ثبت لنا من قامته القصيرة (من ١٤٢-١٦٠ سم) ومن وضعه المنحنى ورأسه إلى الامام ومن أرجله القصيرة وجهته المتراجعة ، ومن البروزات الظاهرة فوق عينيه ، ومن أنفه العريض وفكه البارز أنه كان صورة للإنسان في مرحلة من مراحل تقدمه ، تلك هي صورة إنسان النياندرتال (Neanderthal Man) الذي أخذ تسميته من إحدى المناطق الألمانية حيث عثر على مثل من أحسن الأمثلة التي تحمل طابعه في سنة ١٨٥٦ . عاش رجل النياندرتال آلاف السنين وتطورت حياته بالتدريج إلى أن جاء الوقت الذي نجد فيه رجل الأوريغانس (Aurigancian Man) نسبة إلى كهف أوريغانس في فرنسا حيث عثر على سبعة عشر جثة منه تختلف فيما بينها ولكنها جميعاً أطول قامه وأكبر من النياندرتالين ولكن واحداً من هذه الأنواع الأوريغانسية كان غير طويل القامة إذ لم يزد عن ١٦٧ سم بينما نجد نوعاً أوريغانسياً آخر إسمه « كرومانيون » (Cro-Magnon Man) نسبة إلى المغارة الفرنسية التي تحمل هذا الاسم ، تصل قامته أحياناً إلى ١٩٥ سم وليس هناك أي ظل من الشك في أن هؤلاء الأوريغانسيين أقرب إلى الانسان كما هو الآن .

كان الصيادون الأوريغانسيون أكثر حنكة ومهارة ممن سبقهم من النياندرتالين . عرفوا كيف يشظفون أدواتهم المصنوعة من الطران ياتقان وتناسب أكثر من ذي قبل . وكانت نصال سكاكينهم الصوانية ذات الحواف المشطوفة حادة لدرجة تكفي لتقطيع وتشكيل العظم والعاج وخاصة قرون أيل الرنة (Reindeer) . وأمد حيوان الماموث (Mammoth) هؤلاء الصيادين بالعاج ، وعندما احتاجوا للقرون وجدوا قطعاناً عظيمة من الرنة دفع بها الجليد نحو الجنوب ، وهكذا أصبحت الرنة في ذلك الوقت من أكثر الأشياء التي اعتمدها الإنسان ، إذ استعمل الجلد لللبس واللحوم للطعام والقرون والعظام للأسلحة بما حدا ببعض

الباحثين لأن يطلق على هذا العصر ، عصر الرنة ، واستطاع الصيادون أن يصنعوا أسنة ذات شعب بفضل ما كان لديهم من أدوات . وكانوا يربطون خطافات الصيد

شكل ٤ : منظران لرامية حراب واحدة ، كان يستعملها صياد باليوليتي

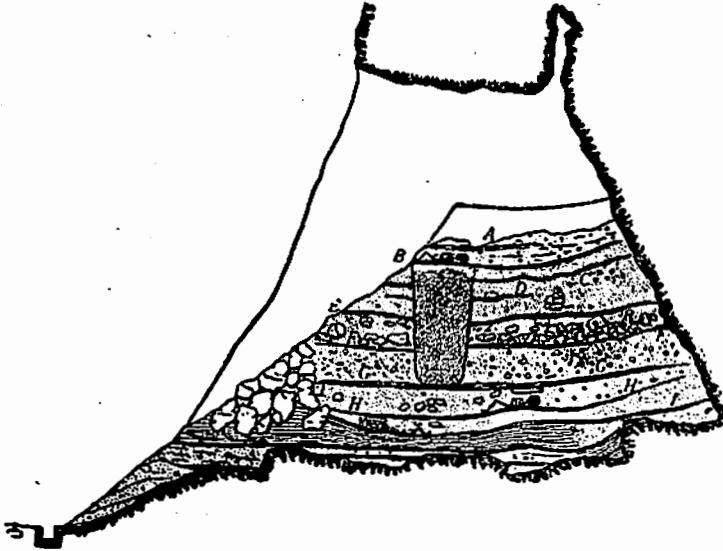
١ - كما ترى من الامام ب - كما ترى من الجنب وهي محفورة من قرن الرنة وفيها الرأس والارجل الامامية لتيتل Ibx . لاحظ الخطاف في قمة ب لاساك الهدف الذي تصوب نحوه الحربة . ورامية الحربة والقوس هما أقدم مخترعات الانسان لقذف أسلحته بسرعة



إلى حراب خشبية طويلة ، وكان يحمل كل فرد منهم حول وسطه خنجر احاداً من الطران . وفي تلك الفترة اخترع الإنسان القوس والسهم أيضاً لأننا نجد رسوماً على الصخر تصور الصيادين وهم يستعملونها ، وتوصلوا بذلكهم إلى صناعة ما يمكن أن نسميه مقدم الحربة ، وكانت من قرن الرنة ، وكانت تستعمل لضمان عدم تقوس الحراب أو السهام . وتوصلوا أيضاً إلى اختراع ناجح يوم تمكنوا من صناعة أداة من القرن أو العاج مكنت الصائد من رمي حربه الطويلة إلى مسافة أبعد . وقوة أكثر من ذي قبل . وتدلنا شصوص الصيد والخطاطيف على أن رجل العصر الحجري بدأ يكون صياداً للسماك كما كان صياداً للحوانات . وتدلنا الإبر

العاجية الدقيقة الصنع على أن هؤلاء الناس تعلموا أن يقوا أنفسهم من البرد ومن أشواك النباتات البرية وذلك بوساطة ملابس كانوا يحصلون عليها بنخاطة جلود الحيوانات المقتولة إلى بعضها . وبذلك أصبح صيادو العصر الباليوليتي المتأخر أعداء أقوياء بالنسبة للحيوانات إذا قارناهم بمن سبقوهم . وقد استطاع الأثريون أن يخرجوا من كهف واحد في صقلية عظام مالا يقل عن ألفين من فرس الماء التي كان الصيادون قد قتلوها . وفي فرنسا قتلت جماعة من هؤلاء الناس خيولا برية كثيرة لطعامهم لدرجة أن العظام التي ألقتها حول محلة نيرانهم تجمعت في أكوام ، وفي النهاية كونت طبقة يبلغ سمكها ٦ أقدام في بعض الأماكن ، وتغطي مساحة قدرها ٤٠٠٠٠ قدم مربع وهي مساحة مساوية تقريباً لأربع مربعات في إحدى المدن الحديثة مساحة كل منها ٥٠ × ٢٠٠ قدم مربع . عثر الحفارون في مثل هذه الأماكن على البوق الكبير الحجم الذي كان يستطيع الصياد بواسطته أن يعلن عودته لأسرته الجماعة التي تنتظره في الكهف . وعند وصوله إلى هناك كان يجد مسكنه وقد أحاطت به أكوام كريمة من النفايات . ووسط الروائح الكريهة المتصاعدة من اللحوم المتعفنة كان هذا الأوروبي المتوحش يزحف داخل الكهف الذي كان يتخذ مسكناً بالليل ، غير مدرك أنه على عمق عدة أقدام تحت أرضية مغارته تتجمع بقايا أجداده طبقة فوق طبقة بفعل آلاف السنين .

وبالرغم من الظلام والوحشة اللذين كانا يكتنفان حياتهم اليومية فإن هؤلاء الصيادين البدائيين كانوا على وشك اقترابهم من الشعاع العظيم الذي ينير النفوس . فعندما كان كل واحد منهم يستلقي ليلاً في مغارته كان يستطيع أن يغلق عينيه ويرى في مخيلته صورة الحيوانات الهائلة التي كان يتبعها طول النهار . وبالمثل كان يستطيع أن يسترجع في ذهنه صورة أشجار غريبة تذكره أشكالها بحيوان من الحيوانات . أو كان يرى وهو يتقلب صورة كتلة بارزة من الصخر في مغارته تشبه في هيئتها شكل الحصان . وهكذا ظهرت في عقله فكرة المشابهة تدريجياً (الحيوان والشجر التي تشبهه



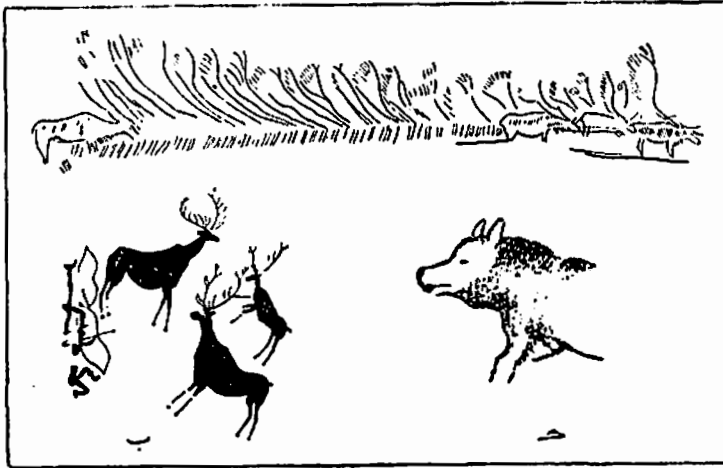
شكل ٥ : قطاع يبين طبقات الرديم والبقايا الانسانية في كهف من العصر الباليوليتي

وهذا الكهف في جريمالدى Grimaldi على الساحل الايطالى للبحر الابيض المتوسط . يوجد المدخل في اليسار والجدار الخلفى في اليمين ونرى الارضية الصخرية الاصلية في القاع وفوقها طبقات الرديم التى يبلغ عمقها ٣٠ قدما وتمثل الخطوط السوداء التى بين I, A طبقات الرماد و٠٠٠ الخ . وهى مخلفات تسعة اماكن نيران تعاقبت وراء بعضها ، ولا بد أن الاهالى استعملوا كل واحد منها سنين طويلة وتتكون الطبقات الاكثر سمكا (المظلمة تظليلا خفيفا) من عظام الحيوانات والنفائيات والصخور التى سقطت من سقف المغارة على مر السنين . وتحوى الطبقات السفلى (تحت I) عظام الكركدن (وهى تدل على المناخ الحار بينما احتوت الطبقات العليا على عظام الرنة (وهى تدل على مناخ بارد) . وقد عثر المكتشفون على خمسة مدافن في الطبقات B, C, H, I . احتوت الطبقة C على جثتين لطفلين . وكان المدفن الذى في اعلى طبقة (فى I) على عمق ٢٥ قدما من سطح الرديم في الكهف . وبعد أن نشر المكتشفون هذا الرسم حفروا امام الكهف فوجدوا على عمق ٦٠ مترا تحت السطح الاصلى للرديم أدوات من الظران وغير ذلك مما خلفه الناس الذين عاشوا هناك (عن ديشليت Dèchelette)

والجواد والصخرة المستديرة التي تماثله). واستمر هذا التفكير وبدأ يلاحظ أنه يجب عليه أن يعمل على زيادة مشابهة الصخرة البارزة بيديه لتصبح أكثر مشابهة للحصان. ثم استطاع أن يقلد شكل شيء معين بتشكيل شيء آخر يشبهه . وبهذه الطريقة أمكن لعقله أن يعي التقليد ، وفي هذه اللحظة ولد الفن ، ودخلت نفس الانسان في عالم جديد جميل مملوء بنور لم يضيء حياته من قبل . كان جسده يتطور منذ عصور ، ولكن هذا الاكتشاف الجديد الذي وصل إليه وهو أنه يستطيع أن يخلق أشكالاً جميلة مستوحاة من الصور التي في ذاكرته جعلت عقله يرتفع إلى مستوى عالٍ جديد . ومن الأشياء التي عثر عليها الباحثون بعض رسوم على أحجار صغيرة صنعها أناس مبتدئون محاولين أن يتعلموا الرسم . وهذه الرسوم السريعة تشبه الترينات الحديثة التي تعلم في الاستديوهات ، وما زالت التصحيحات التي خطها يد أستاذ متمرن ظاهرة عليها .

وقد عرفنا الكثير عن هذا العصر الانشائي من حياة الانسان في عصور ما قبل التاريخ، من المجموعات الهامة من الأعمال الفنية التي اكتشفت في الأماكن الباليوليتية . يتخذ هذا الفن ، من ناحية ، شكل الحفر والنقش على العظم والعاج والقرون وكذلك الرسم على قطع من الحجر يمكن حملها . وكان بعض هذه الأشياء مفيداً في الاستعمال مثل رامية الحراب وخطاطيف الصيد واللوحات التي يضع عليها الفنان الوانه ، بينما كان بعضها الآخر مجرد الفن فقط مثل الرسوم المحفورة على ألواح من الحجر الجيري أو قطع متفرقة من العظم أو العاج . وتبدو النقوش والرسوم الكبيرة التي تزين جدران الكهوف والمسكن الصخرية في فرنسا وأسبانيا وإيطاليا أجمل مظهرًا ولكنها ليست أكثر أهمية من الأشياء الأخرى . وقد ذكر بعض الباحثين أنه توجد على الصخور التي في الهواء الطلق في شمال أفريقيا من الجزائر عبر الصحراء شرقاً إلى أعلى النيل رسوم مماثلة . وكل هذه الرسوم غاية في الجمال ولكن يضارعها

في الروعة معرفة الرجل الباليوليتي للالوان . فقد استعمل منها الأحمر والأصفر والأسود . وكانت الالوان الجافة المسحوقة (البودرة) تحفظ في أنابيب صغيرة مصنوعة من العظام المفرغة عثر على بعض منها في الكهوف . ومن ضمن الأشياء التي وصلت إلى أيدينا ، وكانت مما استعمله الفنان الباليوليتي في عمله ، مدقات لسحق الالوان ولوحات لوضع الالوان عليها ، وحفارة من الطران يظهر أنها تركت في مكانها الأصلي إلى جانب نقش على جدار الكهف ، وترينا كل هذه المخلفات إلى أية درجة عالية من المهارة في الاسلوب وصل الانسان الباليوليتي بعد أن مر بمراحل التطور ، وترينا كذلك كيف ساعدته مهارته على أن يشعر بجمال الحياة أكثر من قبل . ولكن الانسان الباليوليتي ذهب في حضارته إلى أبعد من ذلك ، إذ أنه عندما اعتدل المناخ في أوروبا اختفى الانسان الباليوليتي واختفت معه صناعاته .

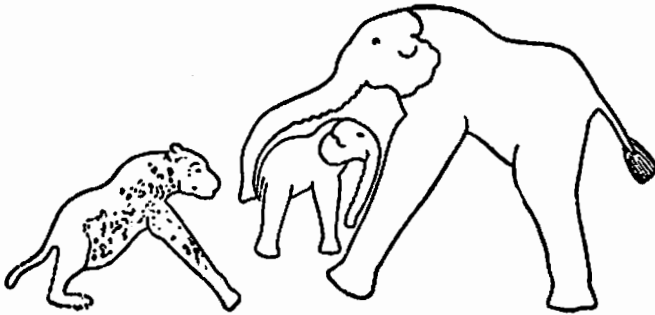


شكل ٦ : أمثلة من فن العصر الحجري

وجد قطع الرنة المرسوم في أ منقوشا على عظمة من جناح صقر . وهذا الرسم يبين لنا أن الفنانين الاوائل كانت لديهم فكرة عن التكوين في الفن، وكانوا قادرين على رسم مجموعة من الحيوانات تشعرونا بعدد ضخم وبطريقة تقرب من الطريقة الحديثة في الرسم . وفي ب يمثل منظر صيد رسمه الانسان الباليوليتي على ماوى منحوت في الصخر بعد أن اخترع القوس . أما رسم الذئب في ج فانه منقول عن منظر في كهف في فرنسا

(عن بري Breuil)

ومن الجائز أن الحضارة تقلصت بعد فترة تقدم عظيم كما حدث بعد ذلك مرات عدة في التاريخ . ومن ناحية أخرى نرى أن تغير المناخ سبب تغيرا في الحيوانات والنباتات ، ففي أوروبا تراجعت الرنة والحيوانات الاخرى التي تعيش في البرد نحو الشمال وامتلات غابات البلوط الكثيفة بمجموعة مختلفة تماما من الحيوانات كالايائل والثور الوحشي والخنزير البري ، وأصبح الصيد بدون شك أكثر صعوبة ، ومن الجائز أن ذلك العصر كان عصر هجرة كثيرة ، وأخذ الباليوليتيون يتجولون بعيدا عن مساكنهم لبدأوا الحياة في أي مكان يصلون إليه قبل غيرهم . وكيفما كان الحال فإن الآثار الحضارية لهذا العصر الذي جاء مباشرة بعد العصر الجليدي في أوروبا ، تدعو إلى الأسف فهي تكشف لنا عن حياة فقيرة لمجموعات متفرقة من الناس كان أكثرهم يعيشون من صيد السمك أكثر من صيد الحيوانات . وربما كان أكثر ما يدعو إلى الاهتمام هو آثار حياة هؤلاء الأوائل في اسكنديناوه حيث نجا الجزء الجنوبي منها



شكل ٧ : رسم على صخر في شمال افريقيا يمثل أنثى فيل تحمي صغيرها من هجوم نمر

الفيل الام تلف خرطومها حول صغيرها لتبعد عنه النمر الذي يتأهب للانقضاض عليه . ولم يكن مثل هذا الموقف يدوم أكثر من ثوان قليلة ولكن عين الصياد الافريقي الشمالي التقطت المنظر ، ومن الجائز أن يكون قد رسم رسما سريعا له ثم رسمه كبيرا بعد ذلك على احدى الصخور الهائلة في جنوب الجزائر . ووجود مثل هذا المنظر في أكثر مناطق الصحراء جدبا يعتبر دليلا على أن الهضبة الصحراوية كانت منذ آلاف السنين منطقة خصبة تتمتع بأمطار غزيرة
(عن اوبرماير وفروبنوس Obermaier-Frobenius)

من الغطاء الجليدى الشمالى وكان صالحاً لإقامة الناس قبل ١٠٠٠٠ سنة تقريباً (١) .
وبينما نحن نفترض حدوث عصر هجرة بين أقوام أوروبا بعد العصر الجليدى ،
فإننا نملك الدليل القاطع على أن الأقوام الذين عاشوا جنوب البحر الأبيض المتوسط
اضطروا لأن يهاجروا من الهضبة التى اتخذوها مكاناً لهم ليهربوا عن مقام جديد
وأساليب جديدة للمعيشة . وفى وقت ما فى العصر الجليدى بدأت الأمطار التى طالما
سقطت بكثرة على شمال إفريقيا تتوقف عن الهطول . وبالرغم من أنه لم يعرف بعد
السبب الحقيقى فى قلبها وندرة سقوطها فإن نقصان سقوط المطر كان سبباً فى جفاف
هضبة الصحراء الكبرى بالتدريج .

واختفت تدريجياً بعد ذلك نباتاتها التى جفت . وبعد بضعة آلاف من السنين
تحولت الهضبة الأفريقية الشمالية إلى الصحراء الجرداء التى نعرفها الآن .

وكان وادى النيل فى هذه الفترة ذا منفعة حيوية لهؤلاء الصيادين الذين
كانوا يعيشون فى تلك الهضبة الصحراوية . ووادى النيل ليس إلا مجرى أو شقابين
جبلين لا يزيد اتساعه فى أى مكان عن خمسين كيلومتراً تحف به من الجانبين صخور
يختلف ارتفاعها من بضعة مئات إلى آلاف الأقدام . وقد هب هذا النهر العظيم
الذى يتدفق فى ذلك الوادى مقاماً جديداً تتوفر فيه المياه لصيادى العصر الحجرى
بما جعلهم يتركون موطنهم الأصيل ويستقرون على امتداد شاطئ النيل ، وأصبح
هذا الوادى العظيم وطناً آمناً إذ كانت الصحراء الجافة تحميه من الجانبين ،
ولم تكن الثلوج وموجات البرد الشديد شمال البحر الأبيض المتوسط تصل إليه ،
وعاش السكان فى هذا الوادى ، وسرعان ما تقدموا ومن ثم تحولوا من جامعين
للغذاء إلى منتجين له .

١ - أحصى البارون جيرارد دى جير العالم الجيولوجى السويدى وتلاميذه طبقات الطين التى أرسبتها
الطبقة الجليدية أثناء تفتحها نحو الشمال عبر إسكنديناو وفى نهاية العصر الجليدى . ويعتقد أن كل
طبقة تمثل الطين الذى أسقطه طرف الغطاء الجليدى فى كل صيف ، وبهذه الكيفية حصلنا على تقدير
عشرة آلاف سنة

الفصل الثاني

منجمو الغناء والعصر الحجري الحديث سكان وادي النيل يصجون منجمي غناء

كان قاع مجرى النيل مغطى بطبقات من الطمي والرمل التي كان يجلبها تيار النهر ؛ ولم يكن صالحاً إذ ذاك لنمو مزروعات كثيرة . ومن الجائز أنه في نهاية العصر الباليوليتي بدأ النهر يجيء بكمية كبيرة من التربة السوداء من مرتفعات الحبشة . وفي كل فصل عندما تملأ أمطار الصيف ، الآتية من جبال الحبشة ، النيل الأعلى ، كانت المياه تملأ فوق ضفتيه ؛ وتنتشر هذه المياه المحملة بالطين على جانبي مجرى النهر وتترك طبقة دقيقة من الطمي أو التربة السوداء المخصبة ، وأصبح هذا الطمي في النهاية طبقة سميكة هي أرض وادي النيل الخصبة التي كونت شريطاً على كل من ضفتي النهر وكان هذا الشريط يلتوي ويدور مع اتجاه النهر سواء إلى اليمين أو إلى اليسار . وفي أيامنا هذه لا يزيد اتساع هذه الطبقة السوداء أي نهر النيل وما على ضفتيه من أرض في أكثر الحالات عن ستة عشر كيلو متراً .

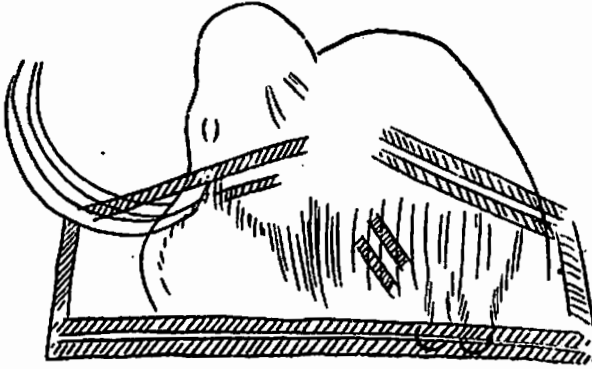
وفي هذه الأرض المزروعة المحمية ، استطاع رجال العصر الباليوليتي الذي أوشك على نهايته أن يحسنوا طريقة معيشتهم ومهدوا لبدء عصر جديد نطلق عليه اسم العصر النيوليتي ، (الحجري الحديث) وليس في استطاعة أحد أن يحدد بالضبط بداية العصر النيوليتي ، ففي أراضي البحر الأبيض المتوسط كان يوجد بعض أقوام يتطورون في حياتهم نحو الحياة النيوليتية بينما كان في نفس المنطقة آخرون يشكلون بمهارة الدبابيس النحاسية . فمثلاً انتهى العصر النيوليتي في مصر والعراق قبل أن يحدث ذلك في الشمال الغربي لآوروبا نحو الـ ٢٠٠٠ سنة . وإذا درسنا الثقافات النيوليتية

نجد أن الآثار المصرية تعطينا صورة حسنة لهذا النوع من الحياة في عصور ما قبل التاريخ . لقد اضطرت الحيوانات التي عاشت زمنا طويلا في الهضبة أن تفعل ما فعله الصيادون فالتجأت هي الأخرى إلى وادى النيل تنشدد القوت والماء .

وكان وادى النيل مليئا بالمستنقعات والأحراش فاصبح خير ملجأ للأسراب كثيرة من الطير البرى ولقطعان هائلة من الحيوانات الضخمة مثل فرس النهر والفيل التي كانت تعيش في شمال البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك فعلت أنواع مختلفة من الأرام والماشية الكبيرة البرية (*Bos Primigenius*) والخرفان والماعز والحير . ولم يكن إذ ذاك من بين تلك الحيوانات ماهو أليف أو مستأنس بل كانت في حالتها الوحشية . وعلى الجانب الشمالى من البحر الأبيض المتوسط عرف الصيادون كيف يصنعون الفخ حتى للحيوانات الكبيرة مثل الفيل .

ولم يكن في وادى النيل متسع كبير لمثل هذه الحيوانات كي ترح كما كانت تفعل في أوروبا أو في الهضبة من قبل فوجدت نفسها في موقف لم تكن قد عرفتة في أوروبا أو آسيا، إذ وجدت نفسها مرغمة على أن تكون على مقربة من الانسان الذى وجد أنه أصبح من الميسور له أن يوقعها في قبضته .

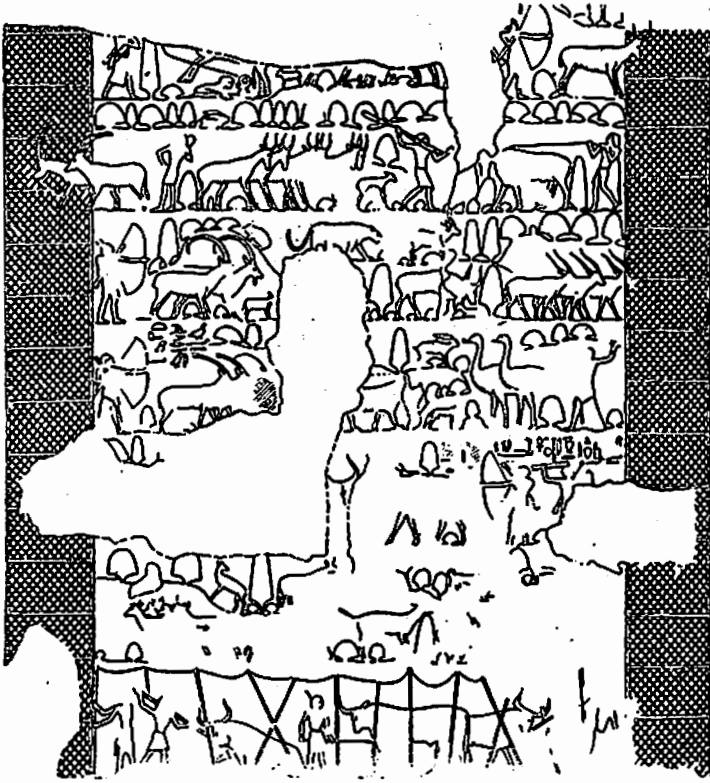
ويمكننا أن نتصور جماعة من الصيادين تدفع بالقطعان الكبيرة من هذه الحيوانات المتوحشة إلى بعض الفجوات العميقة بين صخور وادى النيل ثم يتقدمون نحوها من الجانب المفتوح ويقتلونها . وعلى مر الزمن راق هؤلاء الصيادين أن يغلقوا مثل هذه الفجوة بسياج ليست به سوى فتحة واحدة ، أو يبنوا سياجا ذا جوانب أربعة ، أو يصنعوا شبكة محيطة لها مخارج من جانب واحد . وبذلك أصبح وجود الحيوانات المتوحشة في مكان مسور مصدرا قيما جدا للقوت على مقربة من الناس وفي أى لحظة يشاءون . وبعد زمن طويل تحلصت بعض أنواع من هذه الحيوانات من خوفها من الانسان وتعلت تدريجياً كيف تعيش معه . ومن الطريف أن نلاحظ



شكل ٨ : رسم في كهف يمثل الماموث وقد وقع في فخ من كتل الخشب في جنوب فرنسا

يرينا هذا الرسم المرحلة الاولى لمقدرة الانسان على اسر الحيوانات وكانت المرحلة التالية هي استئناس الحيوانات

كيف أدى جفاف الصحراء المتزايد إلى جمع الإنسان بالحيوانات المتوحشة ، حتى أن الثور والضأن والماعز والحير التي كانت كلها حيوانات وحشية تخلت عن حياتها الطليقة وأصبحت حيوانات مستأنسة تخدم الإنسان ، وفي هذه الأثناء تمكن سكان النيل من الوصول إلى طريقة جديدة أصبحت مصدرا دائما للغذاء . فمن المحتمل أن النساء اعتدن لمدة آلاف السنين أن يجمعن حبوب بعض الحشائش البرية ويطحنها لتؤكل . وفي النهاية اكتشف شخص ما أن هذه الحشائش لو زرعت وسقيت بالماء فإنها ستنمو أحسن من ذي قبل وتنتج كمية أكبر من الحبوب الصالحة للأكل . وإلى جانب ذلك فإنهم كانوا يستطيعون أن يبذروا الحب بالقرب من مساكنهم المؤقتة وبذلك يوفرون على النساء الوقت والجهد الذي يبذل في البحث عن الأعشاب البرية ، وبدأ هؤلاء الزراع الأوائل يفكرون في إيجاد طرق لتخزين الحبوب لاستعمالها بين فصل حصاد وآخر ، وقد عثر في منخفض الفيوم غرب وادي النيل على ٦٣ حفرة من المحتمل أنها حفرت لتستعمل شونات للغلل . وكان عدد من هذه الحفر ملطوسا بالطين ومغلفا بالقش . وكان في بعض هذه الشونات



شكل ٩ : رسم مصرى قديم يبين حظيرة صيد مملوءة بالحيوانات

هذا المنظر مرسوم على جدار فى مقبرة من عصر الدولة الوسطى تهدمت بعض أجزائه . ونرى فى هذا المنظر بعض الحيوانات البرية وقد دفع بها الصيادون الى حظيرة مصنوعة من الشباك . ونرى هؤلاء الصيادين منهمكين فى اغلاق طرف منها (فى الطرف السفلى) بواسطة أعمدة مربوطة بحبال طويلة ، ولكن الطرف البعيد لم يبق فى الرسم . ونرى اربعة رجال مزودين بالاقواس والسهم منهمكين فى قتل بعض الحيوانات للحصول عليها فى وقت قصير . وهناك رجال آخرون فى الصف الاول والثانى يستعملون الحبال لامسك الحيوانات وهى حية (عن نيوبرى Newberry)

كيات صغيرة من القمح والشعير^(١). وكان في البعض الآخر سلال وأوعية وكذلك المنجل الذي كان يستعمل في الحصاد .

وهكذا عرف سكان النيل كيف يخزنون حصاد غلالهم ويحفظون الحبوب لبذرها في العام القادم ، وتعلموا كيف يربون الحيوانات في الحظائر ثم عرفوا بعد ذلك كيف يحتفظون بحيوانات معينة للتكاثر ، كما عرفوا كيف يحتفظون بالماشية لدر الألبان . وهكذا أصبحوا منتجي غذاء بدلا من جامعين له ، وعندما رأوا أنفسهم قادرين على إنتاج القوت على مقربة من أماكن إقامتهم وجدوا أنه لم يصبح من الضروري اللزم أن يظلوا صيادين يعيشون على قتل الحيوانات الوحشية . وبدأت جماعات من العائلات في تكوين قرى صغيرة ليستطيعوا رعى قطعان الماشية ويروا حقول الحبوب . وفي النهاية أصبح معظم الصيادين زراعاً ومرعى ماشية وأصبحت قراهم الصغيرة مساكن ثابتة لإقامتهم .

وكانت الأدوات والأسلحة لاتزال تصنع من الحجر في ذلك العصر ، ولكن الرجال تعلموا كيف يستعملون أحجارا مثل الحجر الرملى لسن أسلحتهم أو لتهديب أطراف أدواتهم . وتحسنت الأدوات المصنوعة من الطران كثيرا نتيجة لهذا التقدم ، بل وزادوا على ذلك أنهم عرفوا أنهم يمكنهم أن يحصلوا على فصل حاد

١ - من المحتمل أن القمح والشعير كانا أول الغلال التي زرعها الانسان ، وكذلك الذرة فانها زرعت أيضا في وقت مبكر . وليس من المستبعد أن يكون انسان ما قبل التاريخ قد زرع الشوفان وغيره من الحبوب . وقد قام كثير من العلماء بدراسات كثيرة للمناطق التي ينمو فيها الآن الشعير البرى والقمح البرى لتحديد المكان الذي بدأت فيه زراعة القمح . واهتم علماء النبات والاثريون بتحديد اقدم أنواع القمح التي زرعها الانسان . ومن الجائز أن انواع القمح التي تستعمل في صنع الخبز الان طورها الانسان عن طريق الاختبار لانه لم يكتشف اصل برى للقمح الذي تستعمله الان في صنع خبزنا العادى (Triticum Vulgare) لان نوع القمح الذي اكتشف في شسونات الغلال المصرية القديمة هو من نوع (Triticum dicocum) الذي مازال ينمو كنبات برى في اجزاء مختلفة من العالم القديم . وفي وقتنا الحالي لايزرع هذا النوع من القمح Emmer لاجل الخبز ولكنه يستعمل أحيانا في صنع بعض اغذية الاطيار في الصباح

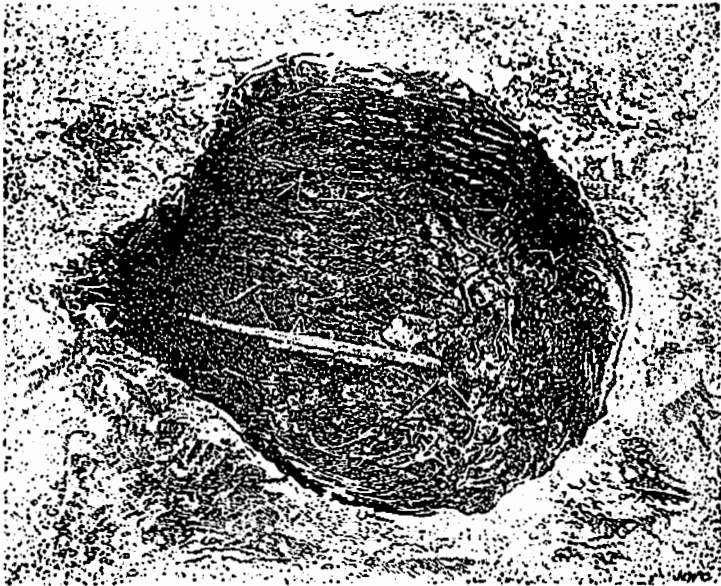


شكل ١٠ : علف الآرام والضباع نصف المستأنسة مع الماشية

كانت الحيوانات الوحشية التي تصاد حية من حظائر الصيد (شكل ٩) تعلق في حظائر ويحاولون استئناسها ولو الى حد ما . الماعز (١) والغزلان (٤) في الطرف الشمالي والغزال العربي (Addax) (٤ في الوسط) وغزال الأوريكس (Oryx) (في الطرف الايمن) والتيتل (٤ في الشمال) ونراها كلها في هذا المنظر وهي تأكل في مذاودها في الاصطبلات مع الماشية الكبيرة (٢) كانت هذه الماشية الكبيرة قد استأنست قبل أن يرسم هذا المنظر بالآف السنين وأصبحت أسلفا لماشيئتنا الاليفة الآن

في هذا الرسم ما يثبت أن المصريين عرفوا تربية أنواع ممتازة من الماشية منذ تاريخ مبكر جدا . كان المصري يحافظ على فصيلة الماشية عديمة القرون (٢ في الطرف الشمالي) أو على الأقل يعمل على ابقاء نسلها . في أسفل (٥) الضباع المأسورة وهم يعطونها الطعام في فمها . وكان المصريون اذ ذاك استأنسوا تماما الماعز والماشية الكبيرة التي ترى هنا في (١ ، ٢ ، ٣) . أما الأخرى في (٤) فلم يكونوا قد استأنسوها الا الى حد ما ، وهي لا توجد الآن الا في حالة وحشية وخاصة الضباع (٥)

من أحجار أقل تعرضاً للكسر من حجر الظران ، وبعبارة أخرى عرف الإنسان أنه من اليسور له أن يصنع أدواته من مواد أفضل من الظران ، وفي الوقت عينه يسهل الحصول عليها لأنه لم يكن من السهل العثور على طبقات من الظران في كثير من المناطق . وهكذا أصبح استعمال حجر المسن من أول المكتشفات العظيمة في العالم ، وهو اكتشاف مازال يستعمله الإنسان بشكله البسيط كما كان يفعل منذ عصور ما قبل التاريخ . كان ذلك ذا فائدة عظيمة جداً للإنسان ، ونستطيع أن نقول أنه ساعد كل رجل في أن يصبح معتمداً على نفسه فقط . واستطاع رجال العصر



شكل ١١ : شونة غلال غطيت جدرانها بالقش وهي من العصر النيوليتي وجدت في الفيوم بمصر

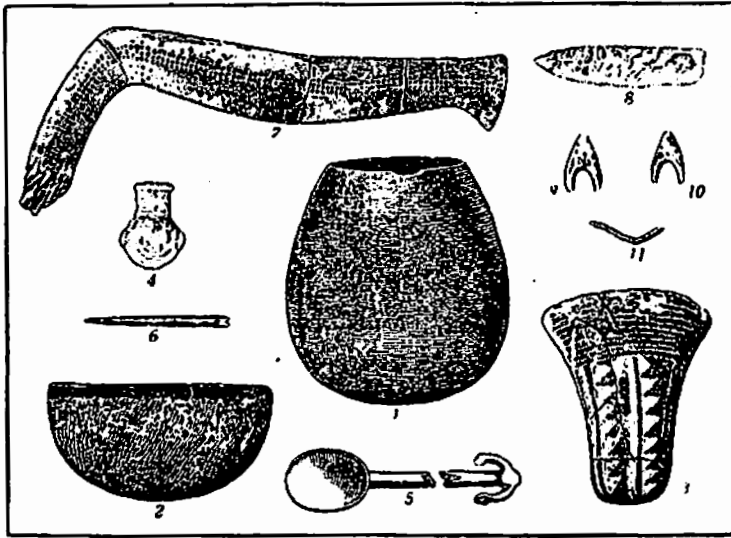
يبلغ طول المنجل الخشبي (A) الذي يرى ملقى في قاع المخزن حوالى قدمين .
(عن الأنسة كيتون تومسون (Miss G. Caton Thompson))

الحجرى الحديد (النيوليتيون) أن يقطعوا الأشجار وأن يصنعوا بعض أشياء من الخشب، واستطاع هؤلاء الزراعون الأوائل الذين عاشوا في وادى النيل أن يبتكروا صناعات مختلفة . وكانت هناك فيلة يمكن صيدها بسهولة ، وكان العاج الذى يؤخذ منها يستعمل فى صنع الأوعية والملاعق والأمشاط ، وكان الغاب الذى ينمو فى المستنقعات التى على امتداد النيل يضفر ليصنع منه الحصير والسلال ، وكانت الأطباق والأواني والأوعية تصنع من الطين المحروق الذى يأتون بترابه من الهضبة أو من الطمى النيلى . وكانت هذه الأواني الفخارية تشكل باليد ومع ذلك فإن رقة جدرانها وجودة خامتها والآثر الفنى الذى يتركه سطحها المتموج ظلت دائما كما هى ولم يستطع المصرى فيما بعد عندما اخترع دولاب الفخار أن يدخل تحسينا على صناعتها . وقبل ذلك بوقت قصير اكتشف المصرى فائدة خيوط بعض النباتات البرية مثل الكتان ، وتعلت النساء كيف تزرع هذه النباتات، وعرفن كيف يغزلن هذه الخيوط ثم عرفن أيضا كيف ينسجنها ليصنعن منها أقمشة للباس .

حدث هذا كله منذ زمن بعيد جدا لدرجة أن آثار هذه المساكن النيلية المبكرة أصبحت مدفونة تحت أمتار من التربة السوداء التى يجلبها النهر منذ ذلك الوقت ، ومع ذلك فقد اكتشفت بقايا قليلة لبضعة قرى صغيرة كانت مقامة على أرض عالية فوق مستوى مياه فيضان النيل، وكان الموقى يدفنون على امتداد حافة التربة السوداء على طرف الصحراء . وقد فحص كثير من هذه المقابر . ونعرف أن الجثة كانت توضع على حصيرة وتحاط بأواني الطعام والأسلحة والأدوات وأدوات الزيتة الخاصة بصاحب القبر . وهكذا كان الميت قد هيا نفسه للحياة الثانية ، وكان الوجه متجا ناحية الغرب ، وقد عثر فى أحد هذه المقابر على دبوس نحاسى (شكل ١٢) وهو أقدم أداة من المعدن اكتشفت فى حفائر الآثار . ومن المستحيل أن نحدد بالضبط تاريخه ، ولكنه لا يمكن أن يكون متأخرا عن الألف الخامس قبل الميلاد . أى أن عمر هذا الدبوس ما بين ستة وسبعة آلاف سنة . ويمكننا أن نصور لأنفسنا

ذلك المصرى الذى اكتشف المعدن ، قبل أى شخص آخر ، عندما كان يتجول فى شبه جزيرة سيناء حيث توجد أقدم مناجم النحاس المعروفة . وربما حدث أنه كان يريد أن يضع بضع أحجار حول النار التى أوقدها فالتقط لهذا الغرض بضعة قطع من النحاس وجدها ملقاة حول الأرض .

وعندما امتزج الفحم الناتج عن الحطب الذى يشعل به النار بالقطع الساخنة من المعدن التى وضعها حول النار لحمايتها من تأثير الريح ، فإن هذا المعدن أخذ



شكل ١٢ : مجموعة من الأدوات عثر عليها فى جبانة مصرية من العصر النيوليتى المتأخر

تحتوى هذه الأدوات التى كانت توضع مع الموتى على أوان فخارية للاستعمال المنزلى (١ - ٣) وأوان من العاج لحفظ عطور الزينة (٤) وملعق (٥) وابر من العظم (٦) وأسلحة من الخشب أو الطران (٧ - ١٠) ويدل شكل (٧) على عصا للرماية ربما كانت سلف عصا الرماية المستعملة فى أستراليا . أما الدبوس النحاسى (١١) فإنه يدل على أول استعمال للمعادن (عن برنتن)

يتضح عنصره ، أى أن النحاس بشكله المعدنى قد تخلص من أخلاط العناصر الأخرى التى كانت مختلطة به ، وفى الصباح عندما كان المصرى يحرك بقايا النار

وجد في الرماد قطعاً لामعة تصلبت وتحولت إلى قطع متكورة لامعة من المعدن .
ونستطيع أن نتخيله وهو يلتقطها ويقلبها باعجاب وهي تلمع في أشعة شمس الصباح .
ولم يمض وقت طويل عندما أعيدت هذه التجربة حتى اكتشف أن هذه الحرزات
اللامعة الغريبة أتت من قطع الحجر الموجودة حول ناره ، وبدون أن يقصد أو
يعلم كان هذا الرجل على أبواب عصر جديد وهو عصر المعادن . ولو كان قدر
لهذا المصرى المتجول أن يعلم الغيب لأدرك أن الحرزة النحاسية الصغيرة اللامعة
التي التقطها من الرماد ، تعكس له رؤيا عظيمة من المستقبل بما فيه من المباني المصنوعة
من الصلب والكبارى الرائعة ، والمصانع الضخمة التي تضحج بأصوات آلاف
الماكينات المعدنية ، والقضبان الطويلة الممتدة التي تسير عليها القاطرات التي تنهب
الأرض . ولولا هذه الحرزة الصغيرة من المعدن التي أمسكها المصرى في يده لأول
مرة ، وقد تولته الدهشة ، لما كانت تحققت جميع ما في دنيانا الحالية من اختراعات .
كان هذا اليوم يوماً مشهوداً في تاريخ البشرية ، ولم يصل الانسان إلى اكتشاف
أعظم منه منذ اليوم الذي اكتشف فيه كيف يوحد النار قبل ذلك بيضعة آلاف
من السنين . كان هذا الاكتشاف انتصاراً للانسان على مواد الأرض التي يعيش
فيها . وكان ذلك حوالى عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير أى منذ ٧٠٠٠ سنة ،
ولكن المصريين لم يعرفوا تماماً قيمة هذه المادة الجديدة إلا بعد عدة قرون . واستمروا
يستعملون أدواتهم وأسلحتهم الحجرية ، ولم يستعملوا النحاس في أغلب الأحيان
إلا في صنع أدوات الزينة مثل العقود النحاسية التي كان يتحلّى بها النساء ، ولم يعم
استعمال الأدوات والأسلحة النحاسية إلا بعد ٢٠٠٠ سنة تقريباً من اكتشاف
النحاس ، وفي خلال هذا العصر الطويل - وبعده بمدة من الزمن - استمرت حياة
الانسان في العصر الحجري الحديث وكان المعدن لم يكتشف .

العصر النيوليتي في أوربا

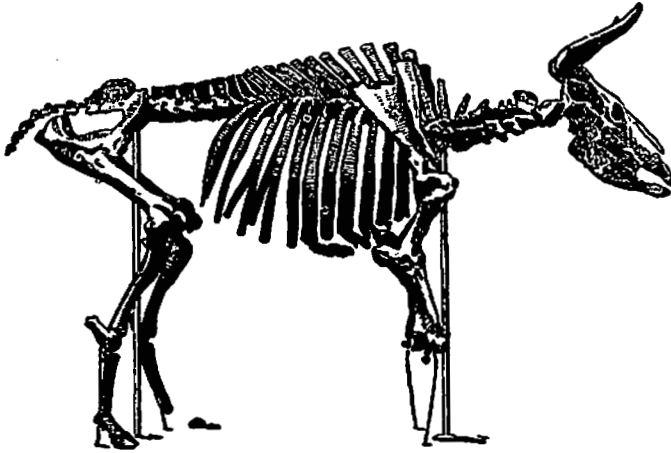
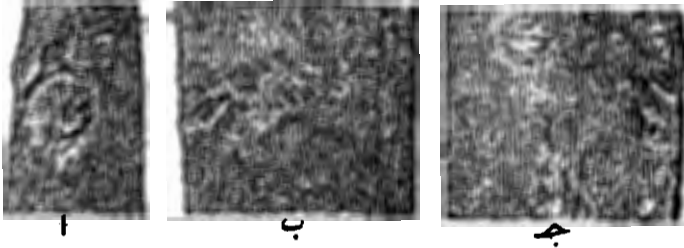
بنما كان سكان جنوبي البحر الأبيض المتوسط في العصر الحجري يتقدمون في أساليب حياتهم كان زملاؤهم على الجانب الشمالي يملون بتجارب أخرى أقل منها . عاش أوربيو عصر ما بعد الجليد حياة بائسة في عالم غريب مفزع فترة من الزمن . وكانت البراري المملوءة بغابات البلوط والحيوانات التي لم يكونوا قد عرفوا بعد كيف يصطادونها تحيط بهم دائما . ولما كان هؤلاء الناس ما زالوا يعيشون من جمع غذائهم فمن المحتمل أنهم كانوا في كثير من الأوقات أقرب إلى الموت جوعا . وكان بعضهم يعيشون في كهوف ولكن أكثرهم كان يعيش بالقرب من الأنهار وشاطئ البحر حيث يستطيعون صيد السمك . وكانوا يأكلون التوت والجوز مع السمك بقصد التنوع في طعامهم ، وبين حين وآخر كانوا يقتلون حيوانا صغيرا . أما صناعة الظران فكانت فقيرة جدا ولم يكن هناك ذوق فني . ويكاد يكون مؤكدا أن مؤثرات تقدمية غربية عنهم وصلت إلى أوروبا وغيرت طرق المعيشة البدائية لهؤلاء الناس . جاءت بعض هذه المؤثرات دون شك من شمال إفريقيا ، ومن المحتمل أن جماعات من سكان النيل ، ممن تأصلت في نفوسهم الرغبة في التجول أكثر من غيرهم تجولوا عبر شمال إفريقيا ، ثم وصلوا عن طريق جبل طارق إلى أوروبا . ولو كان هذا هو ما حدث فعلا فانهم يكونون قد جلبوا بالطبع معهم أفكارا وعادات أقوام منتجين للغذاء .

كما أنه من الجائز أيضا أن مؤثرات تقدمية أخرى أتت إلى أوروبا من الشرق . فقد كانت جماعات منتجي الغذاء في العصر النيوليتي تنتخب أما كن إقامتها بجوار الأنهار ومجاري المياه بوجه خاص حيث توجد تربة خصبة ومراع شاسعة . وأهم أودية الأنهار

الأوروبية في ذلك العصر هو وادي الدانوب . وفي نهايته يمتد الوادي إلى مانسيه الان السهول الخصبة في المجر ، أو الدانوب الأسفل ، وهي المنطقة التي تمتد في اتجاه غرب آسيا الصغرى وقد انتقلت الحياة النيوليتية في غرب آسيا عبر هذه السهول إلى شرق أوروبا جالبة معها تربية الماشية وزراعة الحبوب . ومن الجائز أن تكون حقول الغلال والمراعي الواسعة في المجر أقامت أود الجماعات الكبيرة في أوروبا عندما هجر الكثيرون من الناس حياة الصيد واستقروا في مساكن ثابتة . وكذلك انتقلت حياة المراعي والزراعة من فلاحى الدانوب عبر النهر العظيم إلى قلب أوروبا إذ تكشف لنا بقايا المساكن النيوليتية التي انتشرت في ذلك الوقت من المجر نحو الغرب عن تحسنات كبيرة في أساليب المعيشة .

ومن المحتمل أن أولى البيوت في تلك القرى الصغيرة كانت مجرد أكواخ من الأغصان غطيت جدرانها بطبقة من الطين أو ببعض الحشائش المجذولة . وعلى أى حال فقد كانت الأدوات الحجرية ، المسنونة الأطراف من الأسباب التي سهلت بناء البيوت الخشبية لإتنا لو فحصنا أدوات الصناع النيوليتيين لوجدنا أنها تحوى مجموعة من الأدوات تقرب في كالمها من أدوات التجارة في عصرنا الحالى . فكان لديهم الفؤوس وكانوا يستعملون أزامل وسكاكين ومثاقب ومناشير ومسكات مصنوعة في معظم الأحيان من الظران . وفي بعض الأحيان كانت تصنع من أحجار صلبة أخرى . ولقد تعلموا كيف يربطون يدا خشبية حول رأس الفأس أو يشكلون رأس الفأس بحيث توضع في مقبض مصنوع من قرون الغزال أو يثقبون ثقباً في رأس الفأس ويدخلون فيها يدا ، وإذا فحصنا هذه الآلات وجدنا أنها قد صقلت من جراء استعمالها . ومن الخطأ القول بأنه لم يكن في استطاعة الانسان أن يعمل أشياء متقنة وبسرعة بمثل هذه الأدوات الحجرية ، فقد أجريت تجربة حديثة في الدانمرك إذ أعطوا فأساً حجرية لأحد العمال الميكانيكيين ، وبالرغم من أنه لم يكن متعوداً على استعمال هذه الأدوات الحجرية إلا أنه استطاع في ظرف ١٠ ساعات من العمل أن يقطع ٢٦ شجرة صنوبر يبلغ قطر الواحد منها ٢٥ سنتيمتراً . وبعد ذلك قطعها إلى

كتل . وفي ظرف ٨١ يوما أتم العامل قطع الألواح والكتل الخشبية وبناء المنزل بأدواته الحجرية . وعلى ضوء هذه التجربة يمكن القول بأنه من المحتمل أن يبني رجال



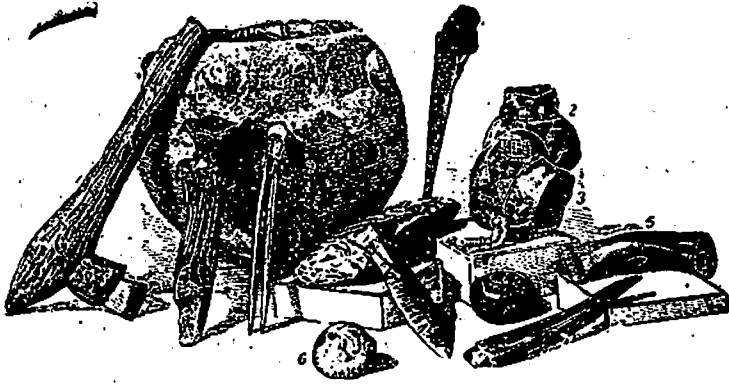
شكل ١٣ : هيكل عظمي لثور برى يحمل أثر سهام الصياد الذي قتله في غابات الدانوب منذ تسعة آلاف سنة تقريبا

لقد أصابه صياد من العصر الحجري المتأخر في ظهره بالقرب من العامود الفقري (انظر الحلقة البيضاء في الجزء العلوي من الهيكل العظمي) والتأم الجرح مخلقا ندبة في الضلع (ا فوق) . وبعد ذلك أصابه صياد آخر وفي هذه المرة اخترقت أحشاه عدة سهام واصطدم احدها بضلع (انظر الخاتم الابيض السفلي على الهيكل العظمي) وانكسر فيه . ونرى في الرسم جانبي هذا الجرح الذي لم يلتئم محشوا برأس السهم الطرانية المنكسرة فيه (فوق في ب ، >) ومات هذا الثور المجروح بينما كان يحاول أن يسبح عبر بحيرة مجاورة ، وغرقت جثته الى القاع وعندما وصل الصياد الذي كان يتبعه الى البحيرة لم يجد أى أثر له . وعلى مر آلاف السنين بدأت البحيرة تجف تدريجيا وحلت الاعشاب الجافة محل الماء الذي كان عمقه أكثر من ثلاثة أمتار . وكان لهذه الاعشاب نفس العمق ، وغطت هيكل الثور العظمي . وعثر عليه في هذا المكان في سنة ١٩٠٥ ، وعثر فمه على رؤوس السهام الطرانية التي قتلتها . وقد نقل هيكله العظمي الذي مازال يحمل علامات رؤوس السهام الطرانية ا ، ب ، > الى متحف كوبنهاجن حيث وضع هناك

العصر الحجري الحديث مساكن مريحة ويعيشوا فيها حياة أرقى بكثير من الهمجين
وتوجد في سويسرا أكثر بقايا المساكن الخشبية الأولى في الأهمية في أوروبا.
فقد بنت هناك جماعات من العائلات في العصر النيوليتي قراهم المكونة من المنازل
الخشبية على أماكن مرتفعة ممتدة في صفوف طويلة على طول شواطئ البحيرات
السويسرية^(١). وكانت هذه المنازل تقام فوق سطح من الخشب تحملها دعائم خشبية
مثبتة في الأرض. وهذه القرى أو مجموعات المساكن المقامة فوق الدعائم تسمى
عادة قرى البحيرات. وفي حالات قليلة كانت هذه القرى تنمو وتصبح كبيرة كما في
وانجن Wangen حيث عثر على ما لا يقل عن ٥٠ ألف دعامة في الأرض لتثبيت
القرية. وعاش سكان قرى البحيرات حياة سلام ورخاء. وكانت منازلهم مأوى
مريحة. وكانت مجهزة بالأثاث وأدوات خشبية وأباريق وملاعق خشبية ومعها
الأطباق والأوعية والأواني الفخارية. وبالرغم من أن أوانيهم الفخارية كانت غير
دقيقة الصنع لأنهم لم يعرفوا استعمال عجلة الفخار ولم يحرقوها في أفران إلا أنها
كانت سببا في جعل الحياة المنزلية أكثر راحة وسهولة مما كانت عليه من قبل.
وبالقرب من المنزل كانت المياه غاصة بالسماك الذي كانوا يصطادونه بخطاطيف من
العظم أو شباك من جبال الكتان الذي كان يزرعه سكان قرى البحيرات.

وكانت سفوح التلال التي تطل على قرى البحيرات مخضرة بحقول القمح والشعير
والذرة، وكان هذا المصدر الجديد للغذاء كافيا لهم، ووجد الحفارون أكثر من ١٠٠ كيلة
من الحبوب في قاع البحيرة تحت قرية وانجن Wangen من قرى البحيرات

١ - عثر لأول مرة على بقايا قرى البحيرات السويسرية سنة ١٨٥٤ عندما انخفض مستوى المياه فيها
جدا بعد فصل جفاف غير عادي، واتضح الآن ان هذا المستوى المنخفض للمياه كان نفس المستوى
الأصل عندما بنيت هذه القرى. ولهذا أقامها أهلها على الأرض الجافة بجانب البحيرة وليس فوق الماء،
كما كان يعتقد قبلا. وارتفع مستوى البحيرات السويسرية في خلال آلاف السنين وغطى الشواطئ القديمة
ومعها بقايا القرى القائمة على أعمدة، ومن هنا جاء الرأي الخاطئ، وهو انها بنيت فوق الماء وثبتت
الأعمدة في قاع البحيرة. وبين هذه الأعمدة القائمة وجدت كميات كبيرة من الأدوات وأثاث المنازل
والآلات والزوارق المنحوتة في التسجر وكذلك شباك صيد السمك وبعض القمح والشعير وعظام
الحيوانات الأليفة والكتان المنسوج وغيرها



شكل ١٤ : أشياء وجدت في مساكن البحيرات السويسرية
نرى هنا ثلاثة اختراعات هامة تمت خلال العصر النيوليتي

أولا : الأوعية الفخارية مثل ٢ ، ٣ ذات زخارف غير معتنى بها - وهي أقدم طين محروق في أوروبا - وفي ١ وعاء ضخم كان سكان البحيرات يطبخون فيه طعامهم

ثانيا : الأدوات ذات الحد المشذب مثل ٤ وهو أزميل حجري مركب في مقبض من قرون الغزال كالطرقة ، أو مثل ٥ وهي فأس حجرية بها ثقب لتثبت فيه يد الفأس

ثالثا : أما ثالث الاختراعات فهو النسيج كما يرى في ٦ حيث نرى آلة غزل من الطين المحروق وهي أقدم جهاز للغزل . وكانت تعلق في خيط خشن من الكتان طوله من ٤٥ الى ٥٠ سنتيمترا ثم يدفعها فتدور في الهواء ، وهكذا تبرم الخيط الذي تعلق به . وعندما يبرم الخيط الى الحد الكافي كان يلف ويؤخذ خيط بالطول السابق من الكتان غير المنسوج ليبرم بهذه الطريقة

المنذرة . وانتشرت كذلك حقول الكتان الصغيرة بجانب الجيوب النامية على سفوح التلال ، وكان النساء يجلسن أمام ابواب مساكنهن يغزلن . وقد حلت الملابس الكتانية محل الملابس الخشنة المصنوعة من الجلد التي كان يرتديها أسلافهن . وكانت هذه الحقول من ضمن الاسباب لإقامه مساكن مستقرة في مكان واحد لانه كان من الضروري للفلاحين أن يقفوا بالقرب من حقولهم الصغيرة لكي تفلح نساؤهم الأرض . وكان القمح يحتاج إلى عناية فاذا مانضج حصوده . ولم تكن تلك الحقول مملوكة لأحد في أول الأمر ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن امتلاك الأرض ، ولكن بعد مضي وقت أصبح لكل بيت الحق في زراعة حقل معين . وفي النهاية أصبح لهم حق امتلاكه . وهكذا ظهرت ملكية الأرض التي أصبحت في مستقبل حياة الناس مصدراً دائماً للضائقات وكانت السبب في الصراع الطويل بين الأغنياء والفقراء - وهو صراع لم يكن معروفاً من قبل عندما كانت الأرض مباحة للجميع - وبدأ عدد كبير من أوروبيي العصر الحجري الحديث في هذا الوقت يملكون مساكن مستقرة داخل القرى وحولها .

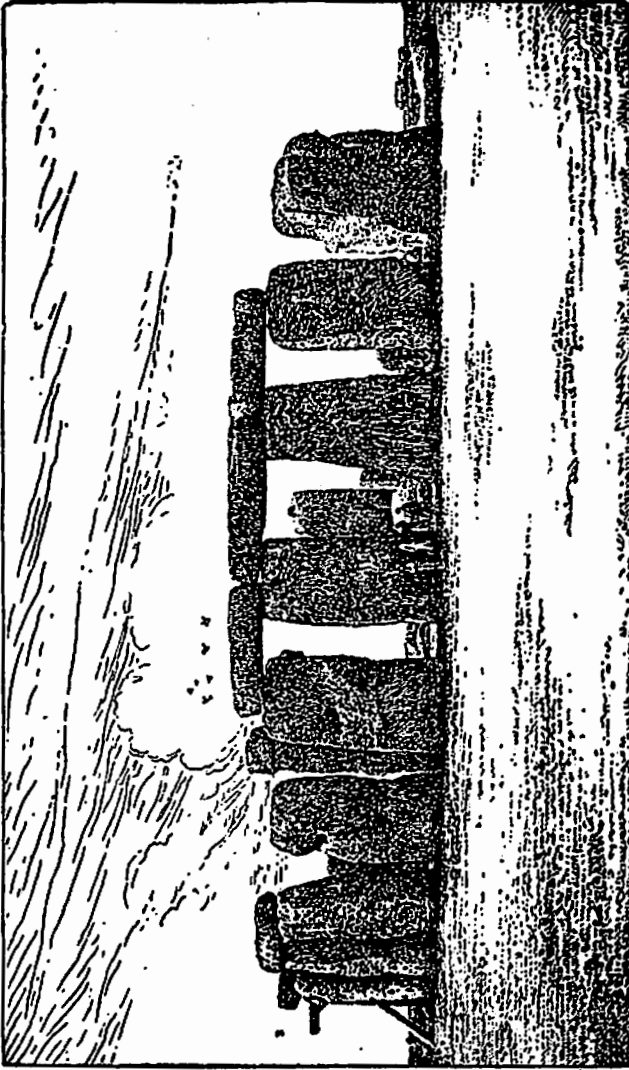
ومن ناحية أخرى نرى أن امتلاك الحيوانات التي تعيش على العشب وتستطيع أن تعيش في المرعى قد خلق طبقة من الناس الذين كانوا مضطرين ليعيشوا حياة غير مستقرة . ولم تكن المرعى خصبة في كل مكان إلى الحد الذي يسمح بإبقاء الماشية دائماً في مكان واحد ، وكان رعاتها يضطرون إلى البحث عن المرعى في أى مكان آخر ، وهكذا أصبحوا يجمعون حياة تجوال يقودون قطعانهم ويرعونها في أى مكان به أرض معشبة تمسدها بالثوث . وبينما مكث الفلاحون مستقرين في أراضيهم الزراعية الغنية ، امتلك البدو الأراضي المعشبة الممتدة من الدانوب شرقاً حتى شمال البحر الأسود ومن ثم بعيداً حتى آسيا ، وبقيت حياتهم دائماً أقل تحضراً وأكثر خشونة من الحياة المستقرة في القرى ،

وهكذا خلقت الجيوب والماشية طريقتين من طرق المعيشة استمرت كل

منها بجانب الأخرى ، الحياة الزراعيه المستقرة التي تقوم على زراعة الحبوب ، وحياة البدو الجوالين التي تقوم على رعى الماشية . ومن المهم أن نفهم حياة هاتين الطبقتين من الناس ، لأن البدو غير المستقرين يتكاثرون جداً في وقت من الاوقات فلا تكفيهم المراعي الموجودة في الاراضي التي تنبت فيها الأعشاب ، وكانوا في مثل هذه الأحيان يفتدون جماعات إلى المدن والأماكن الزراعية فيتغلبون على أهلها . وسنرى فيما بعد كيف كانت قبائل البدو الوافدة تأتي من الاراضي المعشبة في الشرق لتغزو أوروبا مرة بعد مرة .

وأخيراً بدأت الجماعات المستقرة في العصر النيوليتي تخلف وراءها شيئاً أكثر من المنازل الخشبية الهشة والاكواخ . ففي الوقت الذي كاد فيه هذا العصر أن يقترب من نهايته بدأ الزعماء الاقوياء في القرى الكبيرة يقيمون لانفسهم مقابر مبنية من كتل هائلة من الحجر ما زالت توجد على حدود ساحل أوروبا الغربي ، من البحر الأبيض المتوسط على امتداد ساحل أسبانيا حتى شواطئ اسكنديناوة الجنوبية ، ويوجد الآن ما لا يقل عن ٣٤٠٠ مقبرة حجرية من ذلك العصر في جزيرة سيلاند Sealand (التابعة للدانيمرك) وكثير منها ذو حجم غير صغير . وتوجد مثل هذه المقابر في فرنسا وتمتاز بعددها الكبير وأحجامها العظيمة ، وكذلك الأمر في إنجلترا .

ولقد كانت كتل الحجارة الضخمة تترك بدون تهذيب كما هي ، وعند قطعها كانوا يستعملون أزامل حجرية . ولا يمكننا أن نعتبر هذه الاحجار بمثابة مباني لانها لم تكن بقطع مهذبة من الحجر أو يستعمل فيها الملاط ولا نستطيع كذلك أن نعتبرها من أعمال العمارة فذلك شيء لم يكن قد حدث في أوروبا . وتدلنا تلك الآثار التي أقيمت في العصر النيوليتي على وجود أقدم المدن في أوروبا ، فبالقرب من كل مجموعة كبيرة من المقابر الحجرية كانت توجد مدينة يقيم فيها السكان الذين بنوا تلك المقابر . وقد



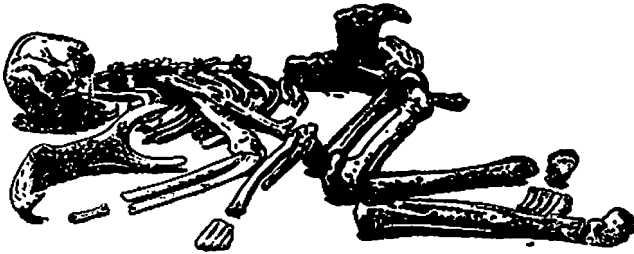
شكل ١٥ : دوران كبير من الحجر في ستونهنج Stonehenge بإنجلترا
يبلغ قطر الدوران حوالي ١٠٠ قدم ، ويصله بالمدينة المجاورة التي يرجع
تاريخها الى العصر الحجري طريق طويل لا يزال أثره باقيا : ويعتقد البعض أن
ستونهنج Stonehenge كانت مكانا لدفن بعض الزعماء في العصر الحجري

اكتشفت بقايا بعض هذه المدن وأزيل عنها الركام الذي كان يغطيها وهي ترينا أن الناس تعلموا كيف يعيشون معا وأن عددهم كان كثيرا وكانوا يعملون متعاونين على نطاق واسع .

وكان لابد من وجود سيطرة تامة على الرجال وإدارتهم بحزم حتى يستطيعوا أن يقيموا جدرانا مثل هذه المدينة ، أو ليصنعوا .ه ألفا من الدعائم لتقام عليها قرية البحيرة في وانجن Wangen في سويسرا ، أولينقلوا كتلا ضخمة من الحجارة لبناء مقابر الزعماء ، وكانت هذه الأعمال بشائر إنشاء حكومة منظمة لها زعيم . ونستطيع أن نطلق على مثل هذه الحكومة اسم ولاية . وقد نمت عدة ولايات صغيرة في أوروبا في العصر النيوليتي تتكون كل واحدة منها من مدينة مسورة بجدران وتحيطها الحقول ويحكمها زعيم . ومن أمثال هذه البدايات تسير الأمم في طريق التكوين . تلك المنشآت الحجرية تعطينا لمحات جميلة عن الحياة في المدن النيوليتية ، وشكل بعض هذه الآثار يجعلنا نفترض أن جماعات كاملة كانت تأتي من المدن في أيام الأعياد وتسير إلى أماكن مثل الدوران الحجري العظيم في ستوننج Stonehenge . وهناك رأى آخر وهو أنهم كانوا يتبارون في هذه الأماكن في مسابقات وألعاب رياضية داخل هذه الدورانات الحجرية تكريما لذكرى الزعيم المدفون تحتها . ومن المحتمل أن مواكب هذه الاحتفالات سارت في الطرقات الطويلة التي تحدها الأحجار الضخمة . أما اليوم فإن هذه الطرقات ساكنة مهجورة ، وتمتد عدة كيلو مترات عبر حقول الفلاحين لتذكرنا بأفراح الإنسانية التي نسيت ، وعبادات قديمة وعقائد طالما احترمها القوم الذين عاشوا يوما ما في أوروبا في العصر الحجري .

وإذا كانت هذه المدافن آثاراً باقية لعقائد دينية حسب رأى البعض أو لنشاط اجتماعي كما يرى البعض الآخر فإن هناك آثاراً أخرى ، تكشف لنا عن حياة الناس

اثناء عملهم . بدأ الناس فى ذلك العهد فى اتخاذ حرف فكان بعضهم يعمل فى صناعات الخشب ، وكان آخرون يصنعون الفخار ، وبقى البعض الآخر فى أعمال المناجم . وقد حفر هؤلاء العمال القدماء فى أعماق الأرض كى يصلوا إلى أجود طبقات الطران



شكل ١٦ : هيكل عظمى لآحد عمال المناجم فى العصر الحجرى المتأخر

وجد هذا الهيكل العظمى ملقى على أرضية منجم طران فى بلجيكا ، تحت الصخور التى انهارت وسحقته . ونرى أمامه المعول ذا الطرفين المصنوع من قرن الغزال والذى كان يستخرج به قطع الطران من مهدها الطباشيرى . والمعول لا يزال فى موضعه عندما سقط من يده فى اللحظة التى انهار فيها الكهف

ليصنعوا منها أدواتهم الحجرية . وفى السرايب القديمة التى حفرها عمال مناجم الطران القدماء فى براندون Brandon بأجملترا عثر منذ وقت غير بعيد على ثمانين معولا باليا مصنوعة من قرون الغزلان . وفى أحد الأماكن تقوض السقف وسد عمرا فى المنجم . وهناك عثر الأثريون وراء الصخور المنساقطة على معولين من قرون الغزال وكان على هذين المعولين طبقة من غبار الطباشير مازال ظاهرا ! به بصمات أصابع العامل الذى تركها هناك لآخر مرة منذ آلاف السنين .

وكان هناك تعامل واتصال بين القرى ، بل إن الحقيقة أن التجار الأوائل كانوا

يحملون البضائع مسافات بعيدة وإلى أماكن كثيرة . ومن الأمثلة الظاهرة التي تدل على ذلك عثور الباحثين على أنواع من الطران الفرنسي الجيد مبعثرة في أجزاء عديدة في أوروبا حيث دل عليها لونها . كما انتقل الكهرمان الذي كان يجمع على شواطئ البلطيق من يد إلى يد حتى وصل جنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط . وعثر في الجزائر التي حول أوروبا على أدوات حجرية تثبت لنا أن بعض الناس في ذلك العصر كانوا يملكون قوارب قوية إلى الحد الذي يكفي لحملهم إلى تلك الجزر . ووجدت عدة زوارق منحوتة في الأشجار استعملها سكان البحيرات . ووجدت هذه الزوارق في قاع البحيرة وسط القوائم الخشبية ، إذ لم تكن السفن ذات الشراع قد عرفت بعد في أوروبا . أما الأعمال التجارية في مثل هذا العصر فقد كانت بالطبع بسيطة جداً .

لم تكن هناك معادن أو نقود . وكان البيع والشراء يتم بمقايضة نوع من البضائع بنوع آخر . ولم يكن للكتابة وجود في كل أوروبا ، بل لم تختراع أية طريقة للكتابة في أي مكان في القارة الأوروبية . ولكن الاتصال بين هذه القرى القديمة في أوروبا لم يكن دائماً تسليماً . فإن الأسوار الترابية والسيجات الخشبية التي أقاموها حول المدن لحمايتها تثبت لنا أنه كثيراً ما دوى صوت نفير الحزب الخاص بالزعيم ليدعو القوم لصد الأعداء . وما زالت هناك آثار محزنة لبعض هذه الحروب القديمة في أوروبا . ففي مقبرة من ذلك العصر في السويد عثر على جمجمة وفيها رأس سهم من الطران ما زال مغروزاً في إحدى حفرتي العين ، بينما عثر في فرنسا على أكثر من عظمة آدمية مغروزة فيها رأس سهم من الطران . وفي مدفن اسكتلندي عثر على تابوت بداخله جثة رجل ضخيم الحجم وإحدى ذراعيها تكاد تنفصل من الكتف نتيجة ضربة فأس حجرية ، وفي عظام الذراع المصاب علققت قطعة من الحجر كسرت من حد الفأس .

هكذا كانت حياة النيوليتيين على الجانب الشمالى للبحر الأبيض المتوسط عندما اقترب هذا العصر من نهايته حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد . لم يتقدموا تقدما كبيرا بعد تحولهم من حياة الصيد إلى الحياة المستقرة على مقربة من حقول حبوبهم ومراعيتهم ، ولم يعرفوا الكتابة حتى يستعملوها فى تدوين أمور تجارتهم وحكومتهم ، واستمروا بدون معادن^(١) فلم يصنعوا منها الأدوات التى عساها تمكنهم من التقدم فى صناعاتهم ، ولم يكن لديهم سفن شراعية تحمل تجارتهم ، وبدون هذه الأشياء لا يستطيع الانسان أن يتقدم كثيرا .

١ - أدخلت المعادن فى الجنوب الشرقى لاوروبا حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وانتشرت كموجة بطيئة متحركة تدريجيا غربا وشمالا عبر أوروبا . ومن الجائز انها لم تصل بريطانيا حتى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبا . ومن هنا وضعنا النصب الحجرية الضخمة الخاصة بغرب أوروبا ضمن دراستنا للعصر الحجري فى أوروبا . وقد أقيمت تلك النصب بعد أن عرف جنوب شرقى أوروبا المعادن بوقت طويل ، ولكن قبل أن ينتشر استعمال المعادن فى غرب أوروبا

ربع الكرة الأرضية

الذي نمت فيه الحضارة وتطورت

رأينا فيما سبق كيف تطورت حياة القدماء في حوض البحر الأبيض المتوسط، واهتمنا اهتماماً خاصاً بالمناطق التي في شماله وفي جنوبه حيث عثر رجال الآثار على أدوات كثيرة درسوها دراسة وافية، وتشهد مجموعات آثار عصر ما قبل التاريخ على أن القدماء عاشوا في جميع الأراضي المحيطة بالبحر العظيم وفي الأراضي التي تحيط به. وهكذا كان البحر الأبيض المتوسط مركز التقدم في الحياة وهو الأمر الذي بدأ منذ أول ظهور الإنسان. ولندرس الآن ربع الكرة الأرضية الذي يشغل فيه هذا البحر الأبيض المتوسط جزءاً هاماً. كانت الحياة الحضارية المبكرة في الجانب الأفريقي من البحر الأبيض المتوسط على هيئة شريط ضيق يمتد بامتداد الشاطئ (لأن الصحراء الكبرى كانت تقع خلفه) وتمتد جنوباً في خط ضيق بامتداد نهر النيل. وأما في الجانب الأوروبي من البحر الأبيض المتوسط فإن القوم المتحضرين اتجهوا تدريجاً نحو الشمال، وفي وقت ما وصلوا إلى البلطيق والبحر الشمالي والجزر البريطانية، وفي الطرف الآسيوي من البحر العظيم توغلت الحياة المتحضرة كثيراً في الداخل، وفي النهاية وصلت شرقاً حتى الهند والصين.

فإذا بدأنا بالبحر الأبيض المتوسط نجد أن حدود شواطئه الثلاثة، الجنوبي الشمالي والشرقي والأراضي الواقعة خلفها، كونت العالم الذي تطورت فيه حياة الإنسان في ثلاث قارات. وإذا أخذنا هذه المناطق كوحدة، فإنها تكون مثلثاً يدخل فيه جزء كبير من الربع الشمالي الغربي لنصف الكرة الشرقي. هذا المثلث الذي سماه البعض الربع الشمالي الغربي العظيم، قاعدته هي الحدود الجنوبية للصحراء في إفريقيا

وآسيا ، أو على وجه التقريب خط عرض ٢٠ شمالاً . وضلعه الشرقى عبارة عن خط يتجه من الشمال إلى الجنوب محاذياً جبال الأورال تقريباً وينطبق على خط الطول ٦٠ شرقاً . وإلى الغرب من هذا الخط وشمال خط العرض ٢٠ يمتد الربع الشمالى الغربى العظيم حتى يصل إلى المحيط الاطلنطى والمتجمد الشمالى وهما يكونان حدوده فى الشمال والغرب .

وفى هذا المثلث العظيم تطورت الحضارة التى وورتها الآن كل من أوروبا وأمريكا . ومن الناحية الجغرافية يتكون هذا الربع المتسع من ثلاث مناطق من الشرق إلى الغرب . فهناك أولاً منطقة المرتفعات التى تتضمن الجبال ، وتمتد على طول الجانب الشمالى من البحر الأبيض المتوسط ثم تتجه شرقاً إلى قلب آسيا وراء الضلع الشرقى للمثلث السابق ذكره . وإلى شمال منطقة المرتفعات توجد الأراضى المستوية الشمالية التى تمتد كذلك شرقاً حتى قلب آسيا . وإلى الجنوب من منطقة المرتفعات توجد أراضى السهول الجنوبية التى يشغلها من الغرب حوض البحر الأبيض المتوسط . ومن المهم أن نلاحظ أن أكثر الأراضى المستوية الجنوبية ليست إلا صحراء تمتد من شمال أفريقيا شرقاً عبر البحر الأحمر ثم تتوغل فى آسيا .

أما سكان الربع الشمالى الغربى العظيم فإنهم كانوا جميعاً من الجنس الأبيض منذ أن ظهر الإنسان فى عصر ما قبل التاريخ . ولكنهم يختلفون اختلافاً بيناً فى بين الخصائص الجسمانية . ففى أراضى السهول الشمالية نجد قوماً ذوى شعر أشقر ورؤوسهم مستطيلة مثل الاسكنديناويين الذين يسمون أحياناً الجنس الشمالى (Nordic) . أما جيرانهم فى الجنوب فكانوا ذوى رؤوس مستديرة ويسكنون فى منطقة المرتفعات ومن هنا يسمون غالباً الجنس الالى (Alpine) أو الأرمى . وفى الأراضى المستوية الجنوبية كان يسكن أناس شعرهم أسود ، رؤوسهم مستطيلة يعرفون الآن باسم جنس البحر الأبيض المتوسط . وهذه

الأنواع الثلاثة تكوّن جميع سكان الربع الشمالى الغربى ، وكان أسلاف الذين يسكنون الآن فى تلك المناطق هم الذين خلقوا الحضارة التى ورثناها . وإذا دققنا النظر خارج ذلك الربع الشمالى الغربى العظيم نجد فى الأقاليم المجاورة جنسين مختلفين فقط — المغول فى الشرق والزنج فى الجنوب ويشغل هؤلاء الناس مكاناً هاماً فى عالمنا الحديث ، ولكن يظهر أنه لم يكن لهم أثر مباشر على الحضارة المبكرة فى الربع الشمالى الغربى .

وقد سكن المغول ، وهم جنس ذو شعر أسود مستقيم كالسلك ورؤوس مستديرة لاهية لهم وجلدهم أصفر ، سكن هؤلاء المغول الهضاب المنفردة فى داخل آسيا والتي نسمها بآسيا المرتفعة High Asia . ومن بين أقوام هذا الجنس استطاع الصينيون أن يكوّنوا لهم حضارة ذات طابع ممتاز (١) وخرجت أقوام من الصفر مهاجرة من موطنها فى مرتفعات آسيا فى جميع الاتجاهات ولكنهم لم يصلوا إلى الربع الشمالى الغربى إلا بعد أن تطورت فيه الحضارة لدرجة كبيرة . وقد هاجرت جماعات من الرحل الآسيويين — من الجائز أنهم كانوا من المغول — إلى أقصى شمال شرقى آسيا ، وهناك رأى يقول أنهم ظلوا فى اتجاههم حتى عبروا ألاسكا ، وربما تجولوا أبعد من ذلك ووصلوا إلى أمريكا وهكذا أصبحوا أسلاف الهنود الأمريكين الشماليين .

وفى جنوب الربع الشمالى الغربى تقع أفريقيا التى تعج يسكانها السود كما هى الآن ، التى فصلتها الصحراء الكبرى عن الجنس الأبيض . وكان وداى النيل هو الطريق الوحيد الذى يقطع الصحراء الكبرى من الجنوب إلى الشمال ، وكثيراً ما تجول السود

١ - أظهرت نتائج الحفائر فى الصين أن ماوصل إلى أيدينا من أدوات يرجع تاريخها إلى العصر الباليوليتى أو النيوليتى تثبت أن بعض الأشياء الأساسية فى الثقافة الصينية يرجع أصلها إلى عصر ما قبل التاريخ . أما عن العصر التاريخى فإن الدكتور H.B. Creel يقول فى كتابه The Birth of China ص ٥٣ « من الناحيتين الأثرية والعلمية يرتفع الستار عن تاريخ الصين عندما كانت أسرة شانج تعيش فى Anyang فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد »

في قلب أفريقيا واتجهوا شمالا في هذا الطريق حتى وصلوا مصر ولكنهم كانوا يأتون في جماعات صغيرة فقط . وهكذا قدر لهم أن يظلوا وحدهم بسبب الحاجز الصحراوي ، وبقي هؤلاء السود غير متأثرين بالحضارة التي في شمالهم ولم يضيفوا إليها شيئا ذا نفع . ولذلك سنقتصر فقط على ظهور الحضارة في الربع الشمالي الغربي .

لقد رأينا كيف عاش رجال العصر النيوليتي وكان ينقصهم الكتابه والمعادن والسفن الشراعية كما كانت تنقصهم أشياء أخرى ضرورية لكي يعيش الانسان حياة أفضل من حياة البدائين ، ولم تكتشف أو تخترع هذه الأشياء في أوروبا وإنما على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط في مصر وآسيا الغربية أي في البلاد التي يطلق عليها الآن اسم « الشرق الأدنى »^(١) . وتشبه هذه البلاد حدة حضان كبيرة ، غير منتظمة ، فتحتها نحو الغرب وسميكة جدا في الوسط ، وهكذا تجمعت بلاد الشرق الأدنى حول الطرف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وإلى شمالها آسيا الصغرى وإلى الجنوب منها شمال شرق أفريقيا^(٢)

بدأ سكان الشرق الأدنى بينون حضارتهم قبل ٤٠٠٠ سنة ق . م . وخلال الالف سنة التالية من ٤٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق . م . تقدموا في بناء تلك الحضارة العظيمة وبدأوا العصر التاريخي أو العصر الذي ابتداء عندما كتب الانسان لأول مرة مستنداته ، تلك المستندات التي تقص علينا في كلمات مكتوبة شيئا عن حياة الانسان وما مر عليه من أحداث .

١ - يستعمل اصطلاح « الشرق الاقصى » ليدل على الصين والهند والجزر الباسيفيكية وخاصة اليابان . واصطلاح « الشرق الأدنى » هو الآن اصطلح اسم للاراضى المجتمعة حول الطرف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .

٢ - ظهر منذ الحرب العالمية الثانية اصطلاح « الشرق الاوسط » وهو يضم جميع البلاد التي نسميها الشرق الأدنى ويضمون اليها مناطق أخرى مثل تركيا والسودان وشمال أفريقيا وغيرها . ولكنها تسمية سياسية وضعت في ظرف خاص لفرض معين ولا يمكن أن تحل محل اصطلاح الشرق الأدنى عند حديثنا عن التاريخ - العرب



شكل ١٧ : أقدم رسم معروف للحياة الزنجية (القرن الثالث عشر ق م)

في الناحية اليسرى نرى امرأة زنجية تجلس تحت نخلة (من شجر الدوم)
تقلب الطعام في اناء من الفخار موضوع فوق النار . وفي هذه الاثناء حدثت ضجة
عظيمة . وجاء فريق كبير من الجنود المنهزمين (الى اليمين) يفرون امام هجوم
الملك المصرى الذى اقتحم عليهم المعسكر . ونرى في اليسار جنديا جريحا يستند
على رفيقين له يحملانه الى زوجته وطفله اللذين يتقدمان من اليسار . وعلى النخلة
التي بجانبهم يقفز قرد وينقنق بجنون عندما شاهد ذلك الاضطراب . ويندفع
طفل مضطرب من الخلف ليخبر الطاهية بالكارثة التي حلت بهم . وهذا الرسم
على احد جدران معبد للملك رمسيس الثانى ، اى أنه من القرن الثالث عشر قبل
الميلاد . والفجوات التي فى هذه الصورة هى الاجزاء المهشمة فى الرسم الاصلى .

أصول الحضارة في الشرق الأدنى
وتاريخها المبكر

الفصل الثالث

قصة مصر

اقدم الحضارات وعصر بناء الأهرام

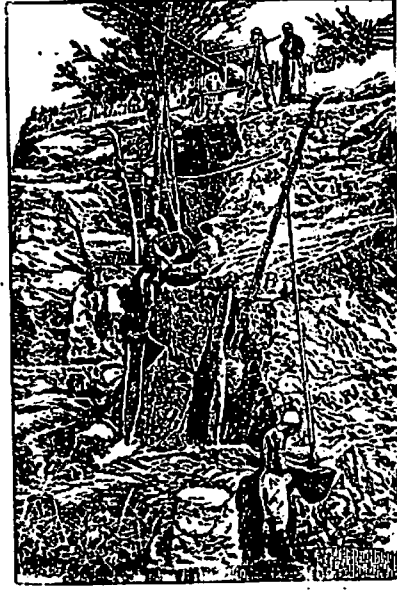
بدء التنظيم الإداري في مصر

وإذ نعود الآن لنستأنف الحديث عن التقدم الإنساني في العصور المبكرة في الشرق الأدنى فأنتا نبدأ بمصر ، فنحن نذكر كيف تبعنا صيادي شمال أفريقيا وهم يهبطون إلى وادي النيل عندما أخذت الهضبة في الجفاف ، ونذكر أيضاً كيف بدأ هؤلاء الصيادون في الانتقال إلى حياة مستقرة وأخذوا يربون الماشية ويزرعون الأرض .

ولما كان الماء أساسياً لنمو الحب في الحقول ، ومصر بلد يعدم فيه المطر ، فإن المصريين الأوائل كانوا مضطرين لعمل جهاز بسيط ليرفعوا المياه به من النهر أو من القنوات التي تستمد مياهها منه حتى تظل الجداول في الحقول مملأى بالمياه ويحىء اليوم الذي ينضج فيه ما فيها من حبوب . وما زال المصريون في الوقت الحاضر يستعملون هذه الآلة لرفع المياه وهي الآلة نفسها التي ورثها أجدادنا نحن معشر الأمريكيين ، وكانت تستعمل كثيراً من الأوقات في نيو انجلاند^(١) لنزح آبار المياه .

إن التربة السوداء التي يأتي بها النيل من هضبة الحبشة عظيمه الخصب ، وكان النيل في كل صيف يرتفع فوق مستوى شاطئيه ويغطي الأرض المستوية ويظل فترة كافية لترسيب طبقة من تلك الرواسب . وجاء اليوم الذي ملأت فيه تلك الرواسب أيضاً الخليج الكبير الذي كان في آخر النهر وكونَ ما نسميه الآن بدلتا نهر النيل .

١ - الولايات التي على الشاطئ الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية .



شكل ١٨ : الشادوف المصرى - أقدم أنواع الأجهزة لرفع مياه الابار -
يستعمل لرى الحقول .

يقف الرجل الذى فى أسفل الصورة فى الماء ممسكا بدلو المصنوع من الجلد (أ) فى الصورة ونرى فوقه قائم الشادوف (ب) وفى نهايته كتلة كبيرة من الطين لتثقله وایجاد التوازن . وهناك قائم آخر لتثبيت الشادوف فيه (د) . ويرفع هذا الرجل المياه ليضعها فى حوض صغير من الطين (هـ) . ونرى فى الصورة أيضا رجلا آخر يرفع المياه بنفس الطريقة من الحوض (د) الى حوض أعلى (و) . وفى أعلى الصورة رجل ثالث (ر) يرفع المياه من الحوض الاوسط الى الحوض الاعلى (ح) الى جانب الجزء العلوى من الشاطىء ومنه تسير المياه فى القنوات المتفرعة فى ارجاء الحقول .

ويحدث ذلك أثناء انخفاض المياه ويستمر امثال هؤلاء الناس يرفعون المياه من أسفل الى أعلى على ثلاث درجات ، يعملون ليلا ونهارا دون انقطاع مدى مائة يوم فى كل عام

وفي هذه الدلتا ومعها باقى الوادى حتى الشلال الأول ، اثني عشر ألفا ميلا مربعا من الأرض الصالحة للزراعة ، أى ما يعادل مساحة ولايتي ماساشوسيتس وكونيكتيكت مجتمعين تقريبا (١) ولكن المساحة التي كان من الممكن زراعتها في العصر النيوليتي كانت أقل من هذه المساحة بكثير لأن الوادى كان في تلك الأيام مليئا بالمستنقعات . ولم يكن من الميسور زراعة بعض المحاصيل إلا في أراض متفرقة هنا وهناك تفصلها تلك المستنقعات ، وكانت سرعة تيار النهر وقوته من العوامل التي جعلت زراعة شواطئ النيل عملا صعبا ، ولكن الأمر كان يختلف في الدلتا ، فهناك تفرع نهر النيل إلى نهيرات صغيرة تيارها بسيط . وكان من السهل استصلاح المستنقعات لتصبح أرضا زراعية .

ومع مضي الزمن كان سكان الدلتا أسبق في الحضارة من سكان الصعيد ، وكان هذا السبق في الدلتا سببا في تنظيم أهلها لأنفسهم وتعاونهم فيما بينهم . و انتهى الأمر بأن أصبحت لهم حكومة بعد أن مضي عليهم وقت غير قليل عندما أحس السكان بحاجتهم إلى زعيم ، لأن الناس عادة يحسون بضرورة وجود من يتزعّمهم عندما يحتاجونه ليعاونهم في تنظيم الدفاع عن أنفسهم إذا ما هاجمهم عدو . ولكن زعامة مثل هذا الرئيس المحارب لم تضمن دائما حسن الإدارة ، لأنه من الأفضل لمثل هذه الجماعة أن تجد زعيما ليحاسب من عينهم ليعنوا بأمر جداول الري والترع ويرشدهم إذا احتاجوا إلى إرشاد . فإن فيضان النيل كان يملا الترع بالطمي ، وكان من الضروري على سكان أى مجموعة من القرى أن يتعاونوا فيما بينهم ويذهبوا لحفر تلك الترع وتطهيرها ، فإنهم يعلون أنهم إذا أهملوا ذلك امتنع جريان الماء

١ - ولايتان من ولايات شرق أمريكا ومن أهم ولايات نيو انجلاند وأكثرهما في الاهمية الصناعية والتعليم . وتبلغ مساحة كونيكتيكت Connecticut ٥٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٢٨٠٠٧٠٠٠ نسمة . وتبلغ مساحة ماساشوسيتس Massachusetts ٨٢٢٧ ميل مربع وعدد سكانها ٥٠٠٠٠٠٠ نسمة (العرب)

إلى الحقول التي يعتمدون عليها في الحصول على الحبوب ولن يكون هناك محصول، أى أنه لن يتيسر لهم الحصول على الحبز . وكان الإشراف على مثل هذا العمل محتاجاً إلى زعيم ليس محارباً فحسب بل تتوافر فيه صفات كثيرة ، وانتهى الأمر بأن شخصاً ذكياً شجاعاً أصبح في مكان الزعامة بين كل مجموعة من قرى الدلتا .

ذلك ما كان يحدث قبل سبعة آلاف عام على وجه التقريب ، ومن الجائز أن واحداً من زعماء مجموعات القرى في الدلتا أصبح زعيماً محلياً وأصبح مشرفاً على أعمال الري في منطقة كبيرة . وكان الناس في تلك المنطقة مجبرين على أن يقدموا له في كل موسم جزءاً من الحبوب أو الكتان الذي جمعه من الحقول ، وإذا ما قصر أحدهم في ذلك فإن الزعيم يأمر بمنع جريان المياه إلى حقله ، بل وربما حدث أكثر من ذلك وهو أن بعض رجال الزعيم يذهبون إلى هذا الممتع لوضع الأمور في نصابها ، وهكذا بدأت أقدم مظاهر الضرائب وهي النواة الأولى في وجود الحكومة .

ويكاد يكون من المحقق أن كثيراً من أمثال هذا الزعيم وطدوا سلطانهم في الدلتا إلى أن تمكن واحد منهم فأخضع الزعماء الآخرين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم وجعل الدلتا كلها مملكة واحدة ، وهي ما نطلق عليها اسم مصر السفلى لأنها واقعة في آخر مجرى النيل . وحدث بعد ذلك أن قامت مملكة أخرى في الجزء الواقع جنوبي الدلتا وشملت وادي النيل أى من قمة الدلتا حتى الشلال الأول وهي منطقة تمتد أكثر من ٥٠٠ ميل ونطلق عليها اسم مصر العليا .

كانت هاتان المملكتان قائمتين منذ سبعة آلاف عام أى حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م . ، وظلتا متجاورتين عدة قرون . وكانت الحياة إذذاك شبيهة إلى حد ما بحياة الهنود في أمريكا - قبل أيام خرستوف كولومبوس - الذين كانوا يعتمدون اعتماداً تاماً على الزراعة في حياتهم .

وكان الملك يعيش في كل من هاتين المملكتين في عاصمة ملكه ، ولكن تلك المباني التي أقامها الملوك كانت بسيطة وأقل من أن تقاوم الزمن فزالت ، ولم يصبح لها أثراً . وكان الناس يعيشون في قرى على طول النهر لا تزيد عن عدد من الأكواخ والمنازل الصغيرة المبنية من الطين شبيهة بما كان قائماً منها قبل ذلك العهد . وقد زالت أمثال هذه المباني بالطبع ، ولكن هؤلاء الناس اعتادوا أن يدفنوا موتاهم على حافة الصحراء خلف القرى التي كانوا يعيشون فيها . كانوا يدفنون هؤلاء الموتى في حفر غير عميقة . وأثبتت الحفائر التي قام بها الأثريون في تلك الجبانة أن المعدن لم يستعمل إلا قليلاً . وذلك يرجع إلى أن صناعة التعدين لم تكن معروفة لهم ، ولهذا لم يستطيعوا الحصول على كميات كبيرة منه . ومن ناحية أخرى لم يكن هناك أحد يعرف كثيراً عن صناعة شيء من ذلك المعدن . ومن المعروف أن المعدن لا يلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان اليومية ، إذا اقتصر استعماله على صنع بعض أدوات صغيرة مثل دبائس الزينة أو بعض حبات تتخذ لصناعة عقود النساء أو صنع أزميل من وقت لآخر ، ولذلك استمر الناس يستعملون الأدوات والأسلحة المصنوعة من الحجر كما كانوا يفعلون من قبل .

ومن المحتمل جداً أن الصلة التجارية كانت كبيرة بين المملكتين لأن النيل يوحد بينهما ، ومن المحتمل أيضاً أنه حدثت فترات قامت فيها الجفوة مكان الود ، وأخيراً حوالى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد قام ملك قوى من ملوك الوجه البحرى (مصر السفلى) وخرج إلى الوجه القبلى (مصر العليا) غازياً وانتصر على ملكه . ولسنا نعرف حتى الآن اسم هذا الملك الذى تم على يديه تحقيق أول مملكة تجمع بين شمال مصر وجنوبها ، ولسنا نعرف الاسم الذى أطلقه على تلك المملكة الجديدة ولكننا نسميها اصطلاحاً باسم « الاتحاد الأول ، ومن الجائز أن تلك المملكة

استمرت بضع قرون من الزمان ، حكم أثناءها كثير من الملوك كانوا يعيشون في هليوبوليس ، مدينة الشمس ، التي كانت العاصمة الأولى لمصر الموحدة . كانت هذه المدينة بحكم موقعها مركزاً وسطاً بين المملكتين وظلت دائماً أكثر المدن المصرية تقدسياً وأهمية .



شكل ١٩ : قبر مصري في عصر الاتحاد الأول

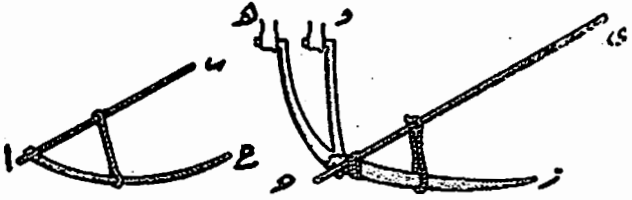
كانت المقابر على شكل حفرة عمقها خمسة أو ستة أقدام . وكان الميت يوضع في وسطها تحيط به أواني الفخار التي كانت تملأ بأنواع المأكول والمشروبات

قيام الحضارة المصرية المبكرة على أساس الزراعة

أصبحت مدينة هليوبوليس أثناء «الاتحاد الأول»، مركز الحياة زاهرة لم تعرفها من قبل ، وبدأ الناس يكتفون ثروات منقولة ليعهد لهم بها. كانت هذه الثروة هي الحبوب التي تدفقت على العاصمة من الحقول الكثيرة التي لم يعرف الانسان لها مثيلا قبل ذلك اليوم ، وهي حقول انتشرت في أكثر أرجاء مصر وسهل عليهم زراعتها لاختراعهم للمحراث بعد أن كانوا لا يعرفون غير الفأس . وكان حث حقل من الحقول بفأس خشبية عملا مضنياً وبطيئاً مما جعل مساحة الأرض التي استطاع هذا الانسان زراعتها بالحبوب محدودة ، وأخيراً جاء اليوم الذي أدرك فيه أحد المصريين المهرة أنه إذا أطال يد الفأس طويلاً كافيًا يمكنه أن يربط طرفها إلى قائم يثبت بين رأسى ثورين ، فإذا أضاف إلى تلك الآلة الجديدة قائمين عموديين فإنه يستطيع أن يحرك هذا المحراث الجديد ويوجهه كما يشاء عندما يجره الثوران أمامه في الحقل ، ومنذ ذلك الوقت تطورت حياة هذا الفلاح من ثقافة الفأس إلى ثقافة المحراث .

ويمكننا أن نسمي هذا الاختراع بأنه أول اختراع ميكانيكي للزراعة . فقد كان بداية لعصر جديد . وأصبح الإنسان قادرًا على تسخير الحيوان ، وبعبارة أخرى أمكن لهذا الإنسان أن يحصل على طاقة أكبر من القوة الإنسانية واستعمل هذه الطاقة للمرة الأولى في زراعة الحقول .

وكان من أثر هذا الاختراع المؤدى إلى إنماء مقادير الغذاء بين الأقدمين شديداً باستعمال الآلات الميكانيكية الحديثة وأثرها في إنماء الثروة وتقدم الأمم في العصر الحالى وخاصة في القارة الأمريكية. ويمكننا أن نشبه توسع مصر في إنتاجها في عهد «الاتحاد الأول»، بما حدث في الولايات المتحدة عندما توسعت وزادت في أراضيها



شكل ٢٠ : الى اليسار فأس مصرية من الخشب . والى اليمين المحراث الخشبي الذي تطور منها

اطال المصري يد فأسه (١ - ب) فأصبحت ذراعا للمحراث (ج - ي) وكان يربط الطرف العلوي (ي) الى نير يثبت في قرون الثورين . وكان القائمان (ه - و) لازمين للحارث لتوجيه المحراث حيث يريد ، وكان هذان القائمان مثبتين بحيث يلتقي الذراع بسن المحراث (ز - ح) الذي حل محل سن الفأس (أ - ح) ولم يكن لاقدم المحارث غير قائم واحد ولكن لم يمض وقت طويل حتى أدرك المصري أنه من الأفضل له أن يزيد قائما ثانيا



شكل ٢١ : المحراث والفأس التي كانت أصلا له

يوضح هذا الرسم - وهو مستمد من منظر مصري قديم - الفارق الكبير بين الاثنين . كان المحراث أقوى وأسرع . وكان في استطاعة من يستعمله أن يحرق فداناً في اليوم الواحد ، بينما لم يستطع من يستعمل فأسه - اليوم كله - أن يعرق أكثر من ربع فدان عزقا بسيطا لا يؤثر الا على القشرة العلوية من الارض . وعلى هذا الاساس كان في استطاعة المصري الذي يستعمل المحراث أن يزرع أربعة أمثال مساحة الارض التي كان يزرعها من قبل ، وكذلك تضاعف محصوله اربع مرات وتضاعف بمثل هذه النسبة المحصول من الحبوب وما يدفعه للملك من ضريبة

المنزعة ، وكان أثر زيادة الثروة سواء بالنسبة للحكومة أو للأفراد عاملا مهما في تقدم الحضارة المصرية . ولم يكن هذا الإيراد السنوى من الجبوب سببا في زيادة الثروة فحسب بل يسر لهؤلاء القديما أمر إقراض الآخرين جزءا من هذه الثروة المنقولة إذا زادت عن حاجتهم ، ومكنتهم كذلك من دفع الضرائب وتسوية ما عساه أن يكون عليهم من ديون . ومن السهل أن ندرك أن وجود مثل هذه الثروة المنقولة - في وقت لم يعرف فيه الانسان إستعمال النقود - كان عاملا مهما ذا أثر كبير في حياتهم وأصبحت هذه الزيادة الكبيرة في مساحة الأراضى المنزعة سببا في أهمية وجود الحكومة المركزية للبلاد كلها أكثر مما كانت عليه من قبل لأن زياد مساحة الأراضى تطلبت زيادة كمية المياه لرى الحقول . وهكذا تغيرت النظم المحلية البسيطة الخاصة بالرى وأصبحت جزءا من نظام يجمعها كلها ، نظام وطنى كبير له مركز إدارة فى العاصمة ، وأصبحت إدارة الرى التى تركزت فى أيدي موظفى الملك أول دولاب إدارى كبير فى تاريخ الإنسانية ، وله أثر واضح فى تنفيذ الأعمال الأخرى ومن السهل أن ندرك أهمية الزراعة فى حياة المصريين القديما أثناء فترة الاتحاد الأول ، من الأسماء التى أطلقوها على فصول السنة . فإنهم قسموا السنة إلى ثلاثة فصول ، أولها «الفيضان» ثم «البروغ» - ومعناه ظهور أو خروج الحقول من مياه الفيضان التى كانت تغطيها - وأخيرا فصل «الحصاد» ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بين قوم كانت تدور حياتهم حول الرى والعمل فى الحقول حتى يقسموا سنتهم إلى فصول تشير إلى الفيضان وما تصبح عليه الحقول بعد ذلك . وكل فصل من هذه الفصول الثلاثة يحتوى على أربعة أشهر حسب النظام القمرى . وشابه المصريون فى هذا الشأن جميع الشعوب القديمة الأخرى لأن القمر هو أسهل الوسائل فى حساب الزمن ، مثلهم فى ذلك مثل الهنود الأمريكين الذين كانوا يحسبون أيضا وقتهم بالشهور القمرية أى الفترة بين الهلالين . فإذا أراد أحدهم مثلا أن يقول إنه قام برحلة استغرقت شهرين فإنه يصفها بأنها استغرقت قرين .

ولكن الشهر القمري غير ثابت في عدد أيامه ، فتارة يكون ثلاثين يوماً وأخرى تسعة وعشرين يوماً. وفي الوقت ذاته نرى مدار السنة خاضعاً للنظام الشمسي، ولهذا لا يصلح الشهر القمري وحده لتقسيم الثلاثمائة والخمسة وستين يوماً إلى أقسام متساوية. ولكن رغم الخطأ الواضح له والذي كان يسبب له كثيراً من المتاعب فإن الشهر القمري كان على وجه التقريب جزءاً من اثني عشر من تلك السنة، فاعتبر المصري أن السنة تحتوي على اثني عشر شهراً.

وأثبت المصريون أنهم قوم عمليون أكثر من جيرانهم من شعوب العالم القديم. فمن المرجح جداً أنهم عرفوا قبل الاتحاد الأول، عدد أيام السنة ولكنهم لم يعرفوا إذ ذاك أن السنة لم تكن ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً بل ينقصها جزء بسيط لا يتجاوز ربع يوم آخر. وإزاء ذلك لم يكن أمامهم وسيلة لتقسيم السنة تقسيماً أكثر دقة إلا ترك نظام الشهر القمري وما يكتنفه من صعاب، ووجدوا أنه من الأفضل لهم أن يخترعوا لأنفسهم تقويماً آخر احتفظوا فيه بعدد الشهور الإثني عشر، ولكن عدد أيام كل واحد منها يجب أن يكون ثلاثين يوماً، وكانت هذه السنة ذات الثلاثمائة والستين يوماً سنة قصيرة أضافوا إليها خمسة أيام أخرى اعتبروها عيداً يحتفلون به نهاية كل عام. وبذلك تصبح السنة ثلاثمائة وستين يوماً كما كانت من قبل.

يساعدنا علم الفلك على أن نعرف الوقت الذي تمكن فيه المصريون من الوصول إلى هذا الكشف، ويحدد السنة بأنها كانت عام ٢٣٦ قبل الميلاد^(١)، ولهذا يمكننا القول أن اختراع هذا التقويم في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد كان

١ - كان عام ٤٢٤١ ق.م هو التاريخ الذي حسبه علماء الفلك بأنه التاريخ الذي توصل فيه المصريون إلى اختراع تقويمهم، ولكن اتضح الآن أن هناك خطأ بسيطاً في ذلك الحساب وأصبح التاريخ الصحيح هو عام ٤٢٣٦ ق.م

أول حادث محدد التاريخ في حياة الجنس البشرى ، وبالرغم من مضي ستة آلاف عام فإننا مازلنا نستعمل في حياتنا التقويم المصرى القديم بعد أن أدخل عليه الرومان مع الأسف الشديد بعض تغييرات في الشهور فجعلوا بعضها يزيد في عدد أيامه عن البعض الآخر .

ومن مميزات التقويم المصرى أنه جعل للشهور أعداداً تعرف بها ، ولهذا كانت شهوراً ذات طابع عملي إذا أردنا تحديد أى واحد منها ، ولكن لم يكن في ذلك التقويم ما يساعدنا على تحديد أى سنة معينة . فإذا كان الأمر متعلقاً بحادث من الحوادث في السنة التي نحن بصدها فليس هناك صعوبة لأنه يمكن وضع تاريخ خطاب أو تعاقد على عمل بذكر الشهر واليوم ، ولكن إذا كان يعنينا ذكر شيء في سنة أخرى أو نريد الإشارة إلى حادث جرى منذ بضع سنوات فإن الأمر يصبح معقداً . فنحن نلتجئ الآن مثلاً إلى حادث هام وهو مولد المسيح ليسهل علينا حساب السنوات ، ولكن مثل هذا الحل لم يكن معروفاً عند المصريين القدماء إذ كانوا يسمون كل سنة بحادث هام جرى فيها . وهذا ما زال متبعاً حتى الآن بين هنود أمريكا الشمالية بل ما زال يجرى أيضاً بين الأمريكين الحاليين في بعض الأحيان . فإن أهل شيكاغو ما زالوا يقولون فيما بينهم أن أمراً ما حدث في عام الحريق الكبير ، أو ما زال بعضنا يشير إلى أمر من الأمور بأنه حدث في عام توقيع الهدنة . وهكذا كانت أقدم الآثار المصرية المكتوبة مؤرخة بأنها حدثت في سنوات كانت لها صفات مميزة .

وجاء الوقت الذي أخذ فيه المصريون يحتفظون ببيان بأسماء السنين ، ولما كانت كل سنة منها تشير إلى حادث هام فإن مثل هذه البيانات أصبحت سجلاً لتلك الحوادث ومن ثم صارت مصدراً مليئاً بالمعلومات للباحثين المحدثين .
وأقدم بيان وصل إلى أيدينا من هذا النوع هو حجر يالرمو (لأنه محفوظ في

متحف مدينة بالرمو في جزيرة صقلية) وهو أقدم بيان بالسنين في تاريخ العالم ، إذ أنه يبدأ في عام ٣٤٠٠ ق.م. على وجه التقريب . وكان يحوى عندما كان كاملا أسماء نحو ٧٠٠ سنة تنتهى حوالى ٢٧٠٠ ق.م. وأدرك المصريون بعد ذلك أنه من اليسير عليهم أن يحصوا السنين حسب وقوعها في عصر كل ملك على حدة . وكانوا يقولون مثلا أن حادثا ما وقع في السنة الأولى أو في السنة العاشرة من حكم ملك من الملوك ، وانتهى بهم الأمر إلى عمل جداول بأسماء الملوك السابقين في مدى مئات من السنين .

وفي أول الأمر كانت هذه السجلات على هيئة صور مثلها مثل سجل زعيم قبيلة الداكوتا Dacota الذى كان يثبت فيه السنين كما في شكل ٢٢ ، ولكن مع تقدم الزمن أصبحت أعمال الحكومه والأفراد في حاجه ضرورية إلى تدوين معاملاتها ، ولنضرب مثلا بمزارع يريد أن يعرف ما دفعه من ضرائب ، فإن هذا المزارع يستطيع أن يحفر على جدار كوخه المبنى من الطوب اللبن رسما بسيطا للوعاء الذى يستعمله في كيل الحبوب ويضع إلى جواره عدداً من الخطوط توازى ما دفعه منها ، وهذه الطريقة نفسها أى الرموز التصويرية كانت أولى الخطوات في اختراع الكتابه ، وهى طريقة ما زالت سائدة حتى اليوم بين بعض قبائل الهنود في أمريكا الشمالية . ففي «الاسكا» يرسل سكانها رسائل في هيئة صورة محفورة على قطعة من الخشب دون كتابة أى كلمات . فمثلا في الشكل ٢٣ نرى صورة يقرأها واحد من أهالى «الاسكا» لا يوجد طعام في الخيمة ، بينما يقرأها آخر ولم يصبح اللحم وجود في الكوخ ، لأن مثل هذه العلامات التصويرية لاتدل إلا على المعانى فقط . فلنضرب مثلا آخر بأحد زعماء الهنود الذى دفعته رغبته لتسجيل أعماله إلى تدوينها بالصور كما نرى شكل ٢٤ . ففي هذه الصورة أيضا لا نرى أثرا للكلمات ولكنه صور الحوادث التى امتاز فيها بشجاعته بطريقة يمكن التعبير عنها بكلمات ، ولكن هذه الكلمات



شكل ٢٢ : جزء من جدول باسماء واحد وسبعين عاما سجله أحد زعماء داكوتا

سجل أحد زعماء داكوتا واسمه «الكلب المتوحد» جدولا باسماء واحد وسبعين عاما على ثوبه المصنوع من جلد الثور . وتبدأ هذه السنوات في عام ١٨٠٠ عندما كان طفلا في الرابعة ، وكان السعال الديكي منتشرا جدا في تلك السنة فسمها «عام السعال الديكي» وجعل رمزها رأس انسان يسعل بشدة (١) وفي سنة أخرى تساقط كثير من الشهب فسمها «عام الشهب» وجعل رمزها رسما بسيطا لشهاب يهوى (٢) . وفي سنة ثالثة شهد ذلك الزعيم مجلس صلح بين قبيلة الداكوتا وقبيلة القربان فجعل رمزها هنديين يختلف تصفيف شعرهما رمزا للقبيلتين ورسوم هذين الهنديين وهما يتبادلان قصبات التدخين (٣) . وهكذا عبر هذا الزعيم بطريقته الخاصة عن كل حادث هام في السنة . فمثلا بدلا من أن يقول ان شيئا حدث في عام ١٨١٣ فانه يقول ان هذا الامر حدث عام السعال الديكي وكان اذا أراد معرفة الوقت الذي مر على سنة من السنوات فانه كان يفحص جدولته فيعرف التاريخ .



شكل ٢٣ : رسالة في شكل صورة نقشها على الخشب أحد هنود الاسكا

نرى في هذه الصورة شخصا يرخي ذراعيه الى جانبيه ويدها مفتوحتان . وذلك يدل في عادات هؤلاء الهنود على الحيرة أو الجهل أو الفراغ أو لاشيء أو تدل فقط على كلمة « لا » . والصورة الأخرى لشخص آخر يضع يده في فمه ومعناها الأكل أو الطعام . وهذا الشخص يشير بيده الأخرى الى الخيمة ومعنى ذلك «في الخيمة» والرسم كله يعبر عن رسالة مؤداها «لا يوجد طعام في الخيمة»

غير محددة بالضبط وإنما يمكن التعبير عن معنى الصورة بطرق متعددة ، وكانت هذه الطريقة بعينها هي التي اتبعها ملوك مصر الأوائل .



شكل ٢٤ : سجل مصور يثبت انتصار أحد زعماء قبيلة الداكوتا المسمى الرثم الجارى

أعد هذا الزعيم الداكوتى تاريخ حياته فى سلسلة من أحد عشر رسما منها هذا الرسم الذى يمثلته عندما قتل خمسة من أعدائه فى يوم واحد . ونرى هذا البطل « الرثم الجارى » فوق جواده وبندقيته فى يده وعلى درعه رسم صقر وهو شعار عائلته . وتحت الجواد نرى رثما يجرى وهو يقصد بذلك أن يدل على اسمه الشخصى . ونرى فى الصورة أيضا أثر سير جواده حول غابة الأشجار الصغيرة التى كان يختبئ فيها هؤلاء الأعداء الخمسة وقد عبر عنهم بشخص واحد يقبض على بندقيته ورسم البنادق الأربعة الأخرى وكان أصحابها يطلقونها دلالة على عدد المحاربين الذى كانوا فى تلك الغابة

ولكن هذه الخطوة التصويرية التى وقف عندها هنود أمريكا وهى التعبير عن حادث من الحوادث بالرموز التصويرية ليست إلا خطوة تمهيدية للكتابة ، ولا يمكن للانسان أن يصل إلى الكتابة الصوتية إلا بعد خطوتين تاليتين أو لاهما أن أى شئ أو غرض يجب أن يكون له شكل ثابت لا يتغير ويمكن لكل شخص أن يعرف أنه هو العلامة لكلمة معينة تدل على هذا الشئ . فمثلا يصبح رسم رغيف من العيش شيئا متفقا عليه من الجميع ، وهكذا يسمى « رغيف » ، وليس « خبز » أو « طعام » ، وثانيهما أن تصبح هذه العلامة « مقطعا » ، له نقطة الثابت أينما كان فى الكلمة ، وأنه إذا ورد رسم هذه العلامة بين حروف مقاطع كلمة أخرى فإن ذلك يدل على صلة بين مدلولها الأصيل وقيمتها الصوتية ، وبدون هذه الخطوة لم يكن فى استطاعة المصرى على الإطلاق أن يكتب كلمات مثل « العقيدة » ، أو « الحب » ، أو « الكراهية » ،

أو الجمال ، لو اقتصر على رسم الصور فقط . ولو أنه خطا تلك الخطوة الهامة وهي استعماله لعدد كبير من الصور كعلامات صوتية ، وصارت كل منها مقطعا لما كان في مقدوره أن يكتب كل كلمة عرفها ، لأن بعضها كان لا يمكن رسمه . وهكذا مكنته هذه العلامات الصوتية من أن يصبح أول من عرف الكتابة الحقة التي نشأت بين سكان وادي النيل قبل ظهورها في أي شعب آخر من شعوب العالم القديم .

ح = 𐀀	أ مفتوحة وأميان حرفه = 𐀁
خ = 𐀂	ا مكسرة = 𐀃
س منخفضة = 𐀄	ع = 𐀅
س أو ص = 𐀆	و - فيا بعد أيضا = 𐀇
ش = 𐀈	ب = 𐀉
ق (في عصر اليونان استعمالها بدون الالف)	پ = 𐀊
ك = 𐀋	ف = 𐀌
ج = 𐀍	م (أيضا فيا بعد) = 𐀎
ت = 𐀏	ن = 𐀐
ث = 𐀑	ر = 𐀒
د = 𐀓	ل وذلك في عصر الماقو أما في عصر القارة فكانت تطوّر أو رف
ز أو ج = 𐀔	ه = 𐀕

شكل ٢٥ : الأبجدية المصرية

كل هذه الحروف ساكنة ، وما من شك في أن المصريين كانوا يستعملون ما يقابل الحروف المتحركة في اللغات الاوربية ولكنهم لم يكتبوها . وكانوا يستعملون في العصر اليوناني حرف الواو والالف المكسورة كحروف متحركة . كما كانوا يستعملونها في الوقت ذاته حروفا ساكنة وكذلك ا الالف المفتوحة بدلا من الفتحة ، و الواو بدلا من الضمة

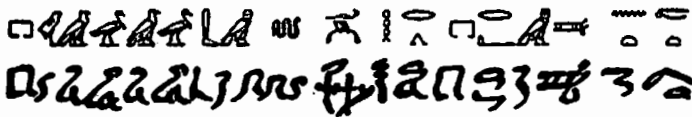
وجاء الوقت الذي أصبح في الكتابة المصرية القديمة أكثر من ستمائة علامة تحملها الكتاب المصريون ، وأصبحت الكتابة مجموعة كبيرة العدد من العلامات ، وكان بعض هذه العلامات يمثل كلمة قائمة بنفسها ، كما كان بعضها في حاجة إلى علامة أو علامات أخرى معه ليصبح كلمة ، ومن ثم أصبح في استطاعته وضع كلمة بعد أخرى وكون جملا أدت إلى ما يقصد التعبير عنه .

وفي تاريخ مبكر تقدم المصريون في هذا المضمار فأصبح لديهم عدد كبير من العلامات تعبر كل منها عن حرف ، أى صار لديهم حروف أبجدية ، ولم يأت القرن الثالث والثلاثين قبل الميلاد أى في أواخر عهد الاتحاد الأول ، حتى احتوت الأبجدية المصرية على ٢٤ حرفاً ، وهى أقدم أبجدية عرفها الإنسان . ولو أراد المصريون في ذلك الوقت أن يكتبوا لغتهم بحروف أبجدية لفعلا . ولكن الكتاب كانوا قد اعتادوا على استعمال العلامات ، وكانت هذه الطريقة متأصلة في نفوسهم ، فلم يستطيعوا أن يبنوا ما اعتادوا عليه ، مثلهم في ذلك كمن يكتبون اللغة الإنجليزية كما تملوها ولا يريدون أن يكتبوها كما ينطقونها . وإذا كان هناك شخص لا يقر المصريين القدماء على طريقتهم في كتابة لغتهم واحتفاظهم بمجموعات العلامات رغم صعوبتها فإنى أؤكد له أنه سيكون بين الأجيال القادمة أناس سيسخرون من تمسك كتاب الإنجليزية بكتابة كثير من الكلمات كما جاءت إليهم رغم أنهم ينطقونها بشكل مختلف (١)

وخطا المصريون بعد اختراعهم للكتابة خطوة أخرى وهى إيجاد الوسيلة التى تساعدهم على الانتفاع بها فتوصلوا إلى طريقة عمل البراد أو أى ألوان أخرى بوضع قليل من الصمغ فى الماء ويمزجون به الكنن أو الكربون النقى الذى يعلق بخارج الأوانى عند وضعها على النار . وجدوا أيضاً أنهم لو أخذوا جزءاً من قصبه رفيعة وجعلوا إحدى نهايتها مديبة وغمسوها فى هذا السائل لسهل عليهم الكتابة بها . وتعلموا أيضاً أنهم لو شقوا نوعاً خاصاً من النباتات التى تنبت على حافة النهر فى المستنقعات - وهو نبات البردى - إلى فلقات صغيرة لأمكن الكتابة عليها فى يسر ، وأدرك أن استعمال هذا البردى أسهل فى الحمل من قطع الفخار والعظم

١ - يشير المؤلف الى مئات بل الى آلاف الكلمات التى تنطق بشكل مختلف عن كتابتها فمثلا كلمة thoroughly اعتادوا على كتابتها بهذه الحروف ولكنهم ينطقونها tharali او كلمة Knight فانه اقرب الى المنطق لو كتبوها nite وهكذا . وقد بدأ كثير من الكتاب المحدثين - وخاصة فى امريكا - فى محاولة كتابة بعض الكلمات كما ينطقونها ، ولكن محاولاتهم محدودة . وليس هناك ما يدل على حدوث تغيير جوهرى لى وقت قريب . (المغرب)

والخشب والحجر التي كان يستعملها من قبل . وإذا أرادوا الحصول على صفحة كبيرة فإنهم كانوا يضعون تلك الفلقات بعضها طولية والبعض الآخر عرضية فوقها ثم يضعون صفحة بعد أخرى ويلحمون أطرافها بوضع جزء منها فوق الآخر ثم يضغطونها كلها فيصبح السطح أملس مستوياً معداً للكتابة . وكان هذا البردى لا يتمزق بسهولة . أما لونه فكان شبيهاً بالورق الأبيض أو الورق الأصفر الفاتح اللون . من هذا نرى أن المصريين قد اكتشفوا أن سطحاً رفيعاً من مادة نباتية هو خير ما يمكن استعماله للكتابة . ومنذ هذا الاكتشاف لم يستطع أحد أن يكتشف مادة خيراً منها ، وبالاختصار فإن المصري القديم ، اكتشف القلم والحبر والورق ، وورثنا هذه الاكتشافات الثلاثة عنهم . وما زال الورق يسمى باسمه القديم « بايروس » (في اللاتينية) مع تغيير طفيف (١)



شكل ٢٦ : مثل من الهيروغليفية (في السطر العلوي) وما يماثله بالكتابة الهيراطيقية (في السطر الذي تحته) وكانت هذه الأخيرة تكتب بسرعة بالحبر والقلم على أوراق البردى وتستعمل في جميع الاعمال اليومية

تماثل الكتابة الهيراطيقية ما نكتبه بأيدينا في حياتنا اليومية . أما الكتابة الهيروغليفية فهي تماثل حروف الطباعة . ونرى في المثل السابق أن الكتابة الهيراطيقية ليست الا العلامات نفسها في السطر العلوي . وكان المصريون يكتبون في أغلب الاحيان من اليمين الى اليسار كما في هذا المثل ، ولكنهم كانوا يكتبون في بعض الاحيان من اليسار الى اليمين ومن أعلى الى أسفل . وفي العصر المتأخر في القرن الثامن قبل الميلاد بدأوا يستعملون كتابة أخرى أسرع وأكثر اختصاراً وهي الكتابة المعروفة باسم الديموطيقية .

١ - ان التغيير من بايروس (Papyrus) الى بيبر (Paper) طفيف جداً لان (os) ليست الا نهاية لبعض الكلمات في اللغة اليونانية يجب حذفها في الانجليزية . وهذا يبين بوضوح تام ان اصل الكلمة الانجليزية مأخوذ من الاسم القديم .

وكان لاختراع الكتابة واختراع استعمال الورق أثر عظيم في رفع مستوى الجنس الانساني أكثر من أى شىء آخر ، لأنه أهم من جميع الحروب التى خاض الناس غمارها وأهم من جميع النظم أو الدساتير التى وضعت منذ خلق الله هذا الكون

ولم تكن الكتابة منتشرة الإستعمال بين عامة الناس ، بل كادت تكون وقفا على المعابد وعلى بلاط الملوك والموظفين ، وظل الناس يعيشون فى قراهم كما كانوا يفعلون من قبل فى العصور المبكرة . ودفن هؤلاء المصريون الأوائل موتاهم فى جبانات على حافة الصحراء قريبة من قراهم . وظلت أماكنها مجهولة من علماء الآثار حتى عام ١٧٩٤ عندما عثر عليها بعض الباحثين ، واستمر العلماء بعد ذلك يعثرون عليها من آن لآخر فى مناطق مختلفة على حافة الصحراء ممتدة على الجانبين الشرقى والغربى من نهر النيل ، وأمدتنا آلاف المقابر التى حفرت بكثير من الأدوات والأشياء المختلفة التى مكنتنا من معرفة نوع الحياة التى عاشها هؤلاء الناس . فكانت أوانهم الفخارية التى وضعوها فى مقابرهم ملونة فى بعض الأحيان بمنظر تمثل مراكب نيلية ذات مجاديف عدة . وهذه السفن هى أقدم ما عرفناه ، وهى تثبت لنا وجود الصلة التجارية بين المدن المختلفة لأن كل مركب من تلك المراكب وضعت قائما عليه شعار المدينة التى أتت منها مثل الراية . وقد أمدتنا جبانات عصر ، الاتحاد الأول ، برسم ثلاثمائة من تلك المراكب وعليها راياتها ، وكانت تلك المراكب تجرى فوق صفحة النيل من شماله عند البحر الأبيض حتى جنوبه عند الشلالات . وكان أهل الدلتا هم أصحاب السبق فى التجارة لأننا عثرنا فى غرب الدلتا على مائتين واثنين وعشرين رسما لتلك القوارب ذات الرايات ، وهذا يدل فى الوقت ذاته على أن أقدم ميناء على شاطئ البحر الأبيض كانت من المرجح فى الركن الغربى من الدلتا أى ليس بعيدا عن المكان الذى اختاره الاسكندر الأكبر لبناء مدينة الاسكندرية أهم موانى العالم القديم . ولم تقتصر تلك التجارة على الجزء الشمالى من

وادي النيل بل تغلغت أيضاً في الجنوب، ونرى في نقش على الصخور جنوبي الشلال الأول مركبا يجرها بالحبال ثلاثة وثلاثون رجلا لكي يسحبوها بين صخور الشلال. وكان طول هذه المركب نحو عشرة أقدام أى أنها لم تكن زورقاً صغيراً. ووجودها في هذا المكان قرينة على اتساع نفوذ ملوك مصر في ذلك العصر المبكر وامتداده نحو الجنوب .

وأمدتنا جبانات ذلك العصر بعدد كبير من الأدوات والآلات النحاسية أكثر مما كانت تمدنا به جبانات من سبقوهم ، وكان في استطاعة بعض أولئك الناس أن يقتنى خنجرا من النحاس بينما كان غيرهم يستعمل سكاكين الحجر . وكانت الفؤوس النحاسية والازاميل من السلع التجارية التي اتجر فيها أصحابها من الصناعات القليلة العدد وجاء اليوم الذي انتهى فيه عصر « الاتحاد الأول » ، وانفصلت المملكتان وظلتا منفصلتين مستقلتين زمنا طويلا حتى ظهر في الصعيد حاكم قوى جعل نفسه أولا حاكما على مملكة الوجه القبلي ثم غزا بعد ذلك مملكة الوجه البحري وأخضعها لسلطانه . وكان ذلك عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد^(١) . ذلك هو الملك « منا » الذي حقق اتحادا جديدا لمملكتي الشمال والجنوب والذي ورث حضارة عصر « الاتحاد الأول » وكما امتاز عصر « الاتحاد الأول » ، بأنه قام بسبب التطور الذي حدث نتيجة لإستعمال المحراث في الزراعة وما ترتب على ذلك من توفير الحبوب ، فإن الاتحاد الثاني امتاز بأنه قام بسبب التوسع في استغلال المناجم والحصول على كميات وفيرة من النحاس ، ولهذا يبدأ « عصر المعادن » بابتداء « الاتحاد الثاني » . وكان الملوك الأوائل من ذلك العصر يفخرون بالبعثات التي أرسلوها إلى شبه جزيرة سيناء .

١ - ذكر المؤلف في كتابه تاريخ ظهور « منا » عام ٣٤٤٠ ق.م. ولكن الأبحاث الحديثة اتفقت على ان ٣٢٢٠٠ ق.م. اقرب الى الصواب. بل ويرى البعض انه ٣١٠٠ او ٣٠٠٠ . ويغالي آخرون فيجعلونه اقل من ذلك . ولكن التاريخ الذي اتفق عليه اكثر العلماء هو ٣٢٠٠ ق.م. (المغرب)

وما زالت الأنفاق التي قطعوها في باطن الصخر موجودة إلى اليوم ، وهي أقدم مناجم للنحاس في العالم ، وعلى مقربة منها نقش خلفاء دنا ، من الملوك نقوشا ورسوما تسجل ذهابهم إلى هناك ، وهذه المناظر هي أقدم ما وصل إلى أيدينا من آثار تاريخية موضحة بالكتابة .



شكل ٢٧ : نقش في منطقة التعدين في سيناء الملك من ملوك عصر
« الاتحاد الثاني »

نرى الملك في هذا الرسم ممثلا ثلاث مرات اثنتان منها وهو يلبس تارة تاج الوجه القبلي ذا اللون الأبيض وتارة (في الوسط) وهو يلبس تاج الوجه البحري وكان أحمر اللون ، وفي هذا إشارة الى أنه كان يحكم كلا من الملكتين وتلك هي عادة المصريين المبكرين في قص حوادثهم بالصور بدلا من الكتابة . وفي الرسم الذي على اليسار جزء من هذه القصة . فالملك يضع خنجرا من النحاس في حزامه ويرفع في إحدى يديه دبوسا من الحجر ليهوى به على أسير راكم وقد قبض بيده الأخرى على شعر رأسه . وإذا نظرنا جيدا الى هذا الأسير لانجد صعوبة في التأكد من أنه أسير وذلك من شعره المسترسل ولحيته الطويلة التي تميز هؤلاء الآسيويين في ذلك العصر . وخالصة هذه القصة المصورة أن الملك بوساطة جنوده الذين كانوا يحمون الحملات التي تذهب لاحضار النحاس من تلك المنطقة قضى على سكان سيناء من الآسيويين الذين كانوا يهددون تلك الحملات وأنه بذلك أيد حقوقه على تلك المنطقة ، وفي وضع ذلك الرسم الكبير في ذلك المكان تحذير لكل من تحدته نفسه من الآسيويين أن يسب مضايقة لاي حملة أخرى تأتي في المستقبل . ويرى اسم الملك مكتوبا في المستطيلين اللذين على اليمين واليسار . وقد تركت الحملات التالية التي أتت الى سيناء بعد وضع قرون نقوشا أخرى ولكنها كانت مسطرة بالكتابة وكانت فيها تفاصيل كثيرة الى حد أن بعضهم لم ينس تسجيل شكواه من شدة الحرارة في تلك الصحراء

بناء الأهرام

عرف المصريون الأدوات النحاسية فاستعملوها ، وكان لذلك الأثر الأكبر في نحت وبناء مقابرهم وانشاء المعابد المبنية بالحجر . وخير دليل على ذلك تلك الأهرام العظيمة القائمة في الجبانة الملكية في الجيزة التي تثبت لنا مدى ما وصل إليه القدماء وما استطاعوا تحقيقه بالآزاميل النحاسية والآلة النحاسية البسيطة التي كانوا يستعملونها في تفرغ قطع الأحجار لتصبح أواني جميلة الشكل . ونحن إذ نقف مبهوتين أمام تلك المباني الضخمة لا نكاد نصدق أن أجداد من بنوا هذه الأهرام لم يكن قد مضى عليهم غير بضع أجيال قليلة . كانوا إذ ذاك في مستهل حضارتهم وكانوا يدفنون في حفر صغيرة على هيئة القرفصاء . ونرى الآن أبناءهم وقد خطوا خطوات جبارة مكنتهم من الوصول إلى هذه الحالة . ولقد تمكن المصري القديم في وقت قصير من السيطرة التامة على البناء بالحجر ، ولكننا رأينا قبل الآن أن هذه الخطوة سبقتها خطوات بطيئة وطويلة المدى حتى تطور المصري وتغيرت حالته ، فأصبح يستعمل الأدوات النحاسية بدلا من مثيلاتها من الحجر ، إذ كان اكتشاف النحاس في سينا قد تم قبل ما يقرب من ألفين من السنين سبقت بناء الهرم الأكبر . أى أن المصري القديم قضى نحو النى سنة وهو يعرف النحاس ولكن لم يكن لذلك أثر على فن البناء . وكانت مقابر الملوك الأوائل تبنى من الطوب . وكانت لا تزيد عن حجرة تحت الأرض يغطيها سقف من الخشب في مستوى سطح الأرض ويوضع فوقها كوم كبير من الرمل والحصى ، وأقدم ما عرفناه من البناء بالحجر هو حجرة دفن أحد الملوك ، كانت جدرانها مبنية بالطوب وكسيت - جدرانها - من الداخل بقطع من الحجر الجيري ، ولكن لم يمض على ذلك العهد مائة وخمسون سنة أو أقل حتى وجدنا هؤلاء الملوك يبنون مدافنهم الملكية على شكل أهرام من الحجر .

كانت أقدم المدافن الملكية تبنى تحت مستوى سطح الأرض، وجاءت الخطوة التالية فبنوها فوق الأرض ولكنها كانت من الطوب اللبن . وفي القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد أقام المهندس المعارى « إحتب » ، للملك زوسر أول بناء من الحجر، فبنى له قبرا كان وما زال أقدم بناء من الحجر فى تاريخ العالم ، وحول هذا القبر الضخم بنى إحتوب مجموعة رائعة من المباني الجميلة المبنية بالحجر الجيري . أنها بناء أن (١) حليت واجهتهما بأعمدة رشيقة مضلعة ، يخيّل لمن يراها أنها لا تختلف عن الأعمدة الرشيقة اليونانية التى بناها اليونانيون بعد عصر إحتوب بألفين وخمسمائة سنة .



شكل ٢٨ - أقدم بناء حجري فى العالم ما زال قائما حتى الآن . الهرم المدرج هو قبر الملك زوسر . وقد بنى على هيئة مصاطب يعلو بعضها البعض وارتفاعه نحو ٢٠٠ قدم . بناه المهندس المعارى امحتوب حوالى عام ٢٨١٥ ق م (٢)

١ - ذكر المؤلف أن هذين البناءين مقبرتان لبعض أفراد عائلته . وكان هذا هو الرأى السائد منذ بضع سنوات ، ولكن قد تغير ذلك الرأى الآن بعد فحص البناءين . وعرفا انهما بناءان اقيما للاحتفال بأعياد الملك ، أحدهما يسمى الآن « بيت الوجه البحرى » والثانى « بيت الوجه القبل » وأحيانا يسميان فى كتب الآثار « بيت الشمال » و « بيت الجنوب » (العرب)

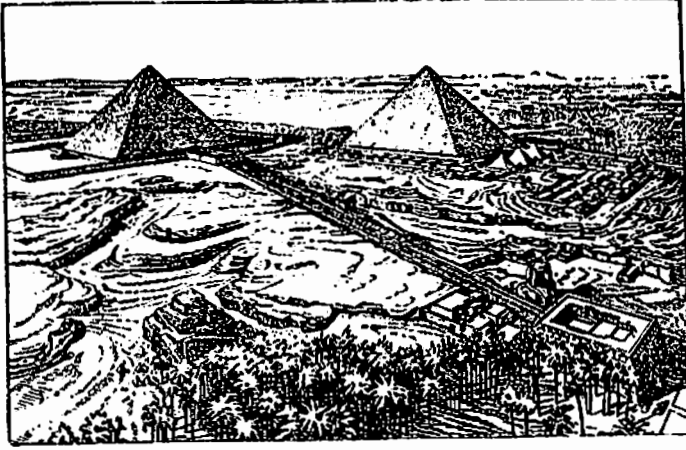
٢ - التاريخ المذكور فى المؤلف هو ٢٩٤٠ ق م . كما ذكر المؤلف أيضا فى التمليق على هذا الشكل انه من المحتمل أن الاماكن بين المصاطب مفلتة وكان يغطيها كلها جدار مائل وبذلك كان الهرم المدرج هو أقدم المحاولات للحصول على الشكل الهرمى الصحيح . ولكنه من المؤكد الآن بمه الابحاث الحديثة استحالة هذا الاحتمال . ولم يكن الهرم المدرج عند بنائه الا على هيئة مصاطب يعلو بعضها بعضا . اما الهرم الاول الحقيقى فلم يبنه المصريون الا بعد قرن من الزمان . وكان اول الاهرام الحقيقية هو هرم الملك سنفرود فى دهشور (العرب)

كانت فكرة إعموتب في تشييد الهرم المدرج خطوة هامة نحو تشييد المقابر الملكية على شكل هرمى . ولم يمض إلا أقل من قرن واحد حتى رأينا المعماريين المصريين يقيمون الهرم الأكبر في الجيزة . كان هذا القرن فترة تقدم كبير في فن البناء . وهو راجع إلى تحسين الانسان للقوى الميكانيكية التي كانت ميسورة له . ونحن لا نجد في تاريخ العالم فترة تقدم سريع مطرد شبيهة بهذه الفترة لذلك القرن إلا في القرن التاسع عشر الميلادى .

ويزداد تقديرنا لهذا التقدم عندما ندرك أن مساحة قاعدة الهرم الأكبر تبلغ ثلاثة عشر فدانا ، وأن البناء كله مبنى بكتل من الحجر الجيري يبلغ عددها ٢٣٠٠٠٠٠ حجر ا على وجه التقريب ، متوسط وزن كل حجر منها طنان ونصف طن ، وطول ضلع الهرم عند القاعدة ٧٥٦ قدما ^(١) (٢٣٠.٥٧ متراً) وارتفاعه عندما كان كاملاً ٥٠٠ قدم تقريباً (أكثر من ١٥٠ متراً) وحسب رواية هيروودوت - وهي جديرة بالتصديق - فإن مائة الف عامل ظلوا يعملون في بناء هذا الهرم عشرين عاماً . ومثل هذا العمل الكبير يحتاج إلى حاكم قدير وعدد كبير من الموظفين الأكفاء الذين كانوا حوله ، فليس من السهل إطعام مائة الف شخص وتنظيم عمل كل منهم عندما كانوا جميعاً يعملون حول هذا البناء . ولا شك أن الحاكم الذى يأخذ على عاتقه مثل هذا المشروع الضخم كان أقوى رجل رآه العالم . كان القصر الذى يعيش فيه يسمى « البيت الكبير » . وكان الناس عندما يتحدثون عن ملكهم يشيرون اليه باسم « البيت الكبير » ، وهو الاسم نفسه الذى وصلنا عن طريق اللغة العبرية « فرعون » ، الذى أصبح لقباً عاماً لكل الملوك .

وقامت حول أهرام الملوك مقابر كثيرة مبنية بالحجر بعضها لأفراد عائلته

١ - اذا قارنا هذا الهرم ببني الكلوسيوم (Colosseum) فى روما فاننا نرى ان طول الكلوسيوم هو ٦٠٠ قدم تقريباً مع الفارق الكبير وهو ان الكلوسيوم لم يكن الا سودا كبيرا حول لضاء ، أما الهرم الأكبر فكان مبنيا كله بالحجر .



شكل ٢٩ : رسم يمثل الهرم الأكبر فى الجيزة وبعض ماحوله من آثار كما كانت بعد تشييدها مباشرة

شيد بعض عظماء ملوك عصر الأهرام تلك المقابر ، ونرى الى يمين الصورة هرم الملك خوفو ، وهو المعروف باسم الهرم الأكبر والى اليسار هرم الملك خفرع الذى يصغر قليلا فى الحجم عن الهرم الاول . وفى الجهة الشرقية من هذا الهرم يقوم معبد تقدم فيه المآكل والمشروبات والملابس ليستخدمها الملك المتوفى فى حياته الأخرى . وبنى القدماء تلك المعابد فوق الهضبة على حافة الصحراء الى جانب الأهرام . أما المدينة التى كان يعيش فيها الملك فأنها كانت فى الوادى فى وسط الأراضى المنزرعة . وكان هناك معبد على حافة الزراعة هو معبد الوادى يدخله الزائرون ويصعدون الى المعبد العلوى شرقى الهرم سائرين فى ممر طويل مسقوف مبنى بالحجر . ونرى فى الصورة الممر الموصل بين المعبد الجنائزى للملك خفرع ومعبد الوادى لهذا الملك الذى كان على مقربة من المدينة ، ونرى فى الصورة أيضا تمثال « أبو الهول » فى الناحية الشمالية من هذا المعبد . وحول أهرام الملوك نرى عددا من أهرام الملكات ومقابر كبار الرجال فى كل عهد . والى اليسار فى الصورة نرى مقبرة ملكية كان العمل جاريا فيها وحولها الجسور الصاعدة المبنية بالطوب والتى كانت تزال بعد أتمام البناء (١) « عن هولشر »

١ - ورد فى الاصل - اعتمادا على رأى هولشر فى اوائل القرن الحالى - ان البناء الذى على اليسار هرم لم يتم بناؤه ، ولكن اتضح بعد كشف هذا البناء فى عام ١٩٣٢ أنه مقبرة ملكية للملكة خنتكاوس ، وانها كانت على شكل تابوت كبير فوق صخرة ، ولم يكن الجزء العلوى منها هرمى الشكل .

والبعض الآخر لنوى النفوذ من رجال بلاطه الذين كانوا يديرون دفة أعمال الحكومة تحت إشراف الملك ، فقد كانوا حوله في قصره في حياته وأرادوا أيضا أن يكونوا حول هرم سيدهم بعد مماته ، وبذلك أصبحت جباته الجيزة وما زالت حتى اليوم ، صورة من الإدارة الحكومية في مصر في عهد الاتحاد الثاني . وكان يعاون الملك نوعان من الموظفين أحدهما الموظفون المحليون المنتشرون في جميع أرجاء مصر ، والنوع الثاني الموظفون المركزيون الذين كانوا يعيشون في العاصمة حول الملك ، وكان موظفو الأقاليم مكلفين بجمع الضرائب ويدخل في اختصاصهم الفصل في القضايا . وكان أمام كل قاض منهم قانون مكتوب يحكم بمقتضاه^(١)

أما المبنى المركزي في العاصمة على مقربة من الملك فكان عبارة عن مكاتب متعددة مبنية من الطوب اللبن قليلة الارتفاع يعمل فيها مئات من الكتبة ، يجلس كل منهم وقلبه في يده وأمامه قرطيس البردى يكتب فيها حسابات الملك وكل ما يتطلبه العمل من تدوين . وكان لدى هؤلاء الكتاب سجلات بأسماء دافعي الضرائب والمبالغ المستحقة عليهم ، وهذا هو ما فعله اليوم . ولكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أن أوروبا لم تعرف مثل هذه الاجراءات إلا في أيام الامبراطورية الرومانية فقط أما الضرائب المستحقة فكان الناس يدفعونها عيناً سواء من الحيوانات أو الحبوب أو النبيذ أو العسل أو القماش أو ماشابه ذلك ، وكانت هذه الضرائب توضع في حظائر وشونات غلال ومخازن ، وهي في مجموعها الخزانة الملكية على مقربة من بعضها في مجموعات كبيرة من المباني والأحواش .

وأعطت تلك المباني الحكومية لعاصمة البلاد مظهراً خاصاً ، وزادت في عمرانها واتساع رقعتها ، فأصبحت أكبر مدينة عرفها الانسان حتى ذلك الوقت ، وكان أهم

١ - لم يعثر العلماء حتى الآن على نسخة من القانون المصري القديم ، ولكن هناك اشارات كثيرة اليه

في كتابات المصريين والمناظر التي على الآثار

أحياء تلك العاصمة هو الجزء الذى قام فيه القصر الملئى تحوط به الحدائق يليها بيوت كبار الموظفين ومكاتب الحكومة ، وخاصة الجزائىة ، تلك هى المدينة الملكية التى امتدت من الجيزة وما يليها إلى الجنوب وأصبحت تعرف فيما بعد باسم « منف » ولم يبق من تلك المدينة الملكية القديمة أى أثر لأنها كانت مبنية بالطوب اللبن والحشب .

أما مدينة الأموات وهى الأهرام وما تجمع حولها من مقابر ، فلم تلق المصير نفسه لأنها كانت تبنى بالحجر وهى مادة أكثر بقاء على الزمن من الطوب ، ولهذا أصبح من السهل علينا أن نتبع تاريخ العائلة الملكية وأقاربها فى جبانة الجيزة خلال مائة سنة وعشرون وهى الفترة التى كان يدفن فيها أكثر ملوك الأسرة الرابعة وموظفوها . كما تمدنا الجبانة الأخرى بمعلومات تجعلنا نتبع تاريخ هذه العائلة إلى مدى أبعد من ذلك .

إن المنظر الذى نراه من قمة الهرم الأكبر من أجمل ما تقع عليه العين وبخاصة إذا ألقينا ببصرنا نحو الجنوب ورأينا تلك السلسلة من الأهرام يتلو بعضها بعضا حتى يغبىها الأفق عن ناظرينا . إن كل واحد من هذه الأهرام كان مدفنا لملك عاش وحكم ثم مات . حكم هؤلاء الملوك نحو خمسمائة عام . وكان كل من يموت منهم يدفن فى أغلب الأحيان فى هرم ، وكان يختار كل منهم لهرمه مكاناً على هذه الهضبة حتى امتدت فأصبحت أكثر من ستين ميلاً تقص علينا هى وما حولها من جبانة قصة مصر خلال خمسة قرون من الزمان - هذه الفترة تبدأ من القرن التاسع والعشرين حتى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، وهى ما يطلق عليها الكثير من العلماء اسم عصر بناء الأهرام .

عقار المصريين وآرؤهم الدينية

بذل المصريون كثيراً من مالهم ووقتهم ومهارتهم وجهودهم في بناء مقابرهم وتأنيثها ، وذلك لعقائد خاصة بالحياة بعد الموت ، إذ اعتادوا على دفن موتاهم قبل أن يكون لهم ملوك أو مملكة بألاف السنين ، ومع هؤلاء الموقى وضعوا الأدوات التي كانوا يستعملونها أثناء الحياة حتى في الوقت الذي كان يعيش فيه سكان وادى النيل كهيادين بدائيين . دفنوا موتاهم ومعهم أسلحتهم وأوان فيها المآكل والمشارب ، فلما تقدم الزمن وصار لهم ملوك وحضارة زاد ما كانوا يدفنونه مع موتاهم ، وبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيها الأثاث الجنائزى الكثير . وبالرغم من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموقى سيحيون حياة أخرى في مكان بعيد عن القبر وبعيد عن الجسد الموسد فيه فإنهم لم يستطيعوا يوماً من الأيام أن يفصلوا فصلاً تاماً بين الجسد الذى فى القبر وبين تلك الحياة الأخرى ، ولم يتصوروا الخلود للموقى دون أن يكون للجسد نصيب فيه ، ولهذا كانوا يحرصون على سلامته وكانوا يتفنون فى المحافظة عليه حتى وصل بهم الأمر إلى إقامة تلك المقابر العظيمة المبنية بالحجر .

ولم يقف بهم الأمر عند بذل الجهد لإيواء وحماية الجسد بعد الموت بل بدأوا أيضاً فى تحنيط تلك الأجساد وحفظها كوميات . وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يظل ذلك الجسد المحنط محتفظاً بشكله فى حجرة صغيرة عميقة داخل القبر تحت بناء عظيم من الحجر . وهذه العقيدة هى السبب الذى جعل كل حاكم من الحكام ينفق الموارد الطائلة على بناء قبر ليكون مقراً لجسده ليأمن سلامته بعد الموت ، وحذا أقارب الملك والموظفون حذو سيدهم فى الاستعداد للحياة بعد الموت . وكثيراً ما كانوا يرتبون الأوقاف للصرف منها على صيانة مقابرهم .

ولكى نفهم تلك العقيدة الخاصة بالحياة بعد الموت يجدر بنا أن نعود بنا كرتنا إلى الوقت الذى كان يعيش فيه الصيادون فى العصر الحجرى. ونذكر كيف غيروا طريقة حياتهم وأصبحوا يزرعون الأرض ويحصلون منها على القوت. فلا شك أن الزرع الأخضر الذى نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير فى أصل الحياة. وكان لهذا التغيير فى حياتهم من صيادين إلى زارعين فى الأرض أثره فى عقيدتهم الدينية. ولم يكن هذا قاصراً على المصريين فحسب بل كان عاماً فى شعوب بلاد الشرق الأدنى الذين اعتمدوا على الزراعة فى حياتهم، وبدأوا منذ وقت مبكر يعتمدون فى حياتهم على ثمرات الأرض. وكان كفاحهم لأجل البقاء يدور حول تلك الزراعة وما تدمم به من حاصلات. وبث فيهم هذا الإحساس روح الاحترام والاعتراف بالجميل وأدخل على ديانتهم لوناً جديداً. وهذه الروح الجديدة هى الأساس الذى تقوم عليه عقائد هندو أمريكا الشمالية، بل أنها فى الواقع ما زالت ذات أثر كبير فى ديانتنا حتى اليوم. وقد ورثناها كأحدى النتائج الهامة لما طرأ على أفكار الناس من تغيير عندما تركوا حياة الصيد إلى الحياة الزراعية.

رأى الزارع أن تلك الحبة التى بذرها نبتت وأخضرت وأتت ثمارها ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى ففكرت معجزة الحياة، وفكر فى تلك الحياة المتجددة التى لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً، وكان من الطبيعى أن يدخل فى روعه الاعتقاد بأن هذا الشيء الحى الذى لا يموت يجب أن يكون إلهاً. وسمى المصريون هذا الإله باسم «أوزيريس»، واعتقدوا أنه روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض وكانوا يرون هذه النباتات المخضرة تذوى كل عام وتترامى لناظرها كأنها ماتت وفارقت الحياة ولكنها كانت تعود مرة أخرى إلى حياتها ونضرتها. وانتشرت مثل هذه العقيدة على طول الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وامتدت إلى الخليج الفارسى، وكان هذا الإله يسمى فى غرب آسيا أحياناً باسم «تموز»، وأحياناً

باسم « أدونيس » ، كما كانت له أسماء أخرى تختلف من بلد إلى آخر . لذلك نرى في قصة « أوزيريس » ، أحب الآلهة إلى قلوب المصريين القدماء أنه عاش ثم مات ثم بعث بعد الموت . وهذا هو ما حدث لجميع الآلهة المحلية في غرب آسيا وبخاصة في سوريا وفلسطين وآشور وبابل .

ولم ينس المصريون هذه الصلة القديمة التي تجمع بينهم وبين آسيا في العقيدة ففقرأ في أسطورة « أوزيريس » ، أنه مات ثم سبغ جسده حتى استقر أخيراً في جبل (١) على الشاطئ الفينيقي حيث عادت إليه الحياة فأصبح شجرة خضراء وعاش مرة أخرى .

وكانوا يرمزون في غرب آسيا للحياة المتجددة بشجرة . وكانوا يقيمون في كل عام احتفالاً كبيراً ينصبون فيه شجرة ويزرعونها ثم زينونها ويكسونها بالأوراق الخضراء ، وورث الغريون هذه العادة ، وما زالوا يحتفلون بها عندما يقيمون « عامود شهر مايو » « Maypole » الذي ينصبونه ويزينونه وقيمون المآدب ويرقصون حوله احتفاءً بعودة الربيع .

وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة ، ذلك التجديد الذي أمدتهم بالقوت الذي يحصلون عليه من حقول الحبوب ، وبعبارة أخرى كان مظهراً دينياً لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم .

ولم يكن لهذا الاعتقاد في غرب آسيا تأثير يقود الناس إلى الإيمان بحياة ينعمون بها بعد الموت في العالم الآخر . أما في مصر فإنهم فضلوا أن يؤمنوا بأن أوزيريس لم يكن القوة التي تمدهم بالحياة وتعطيهم القوت في هذه الدنيا فحسب ، بل

أنه كان يعنى بهم أيضاً في الحياة الأخرى فيعيشون سعداء عندما يأتي اليوم الذي يموتون فيه وتستقر أجسادهم في القبور التي يدفنون فيها على حافة الصحراء .

آمن الناس إيماناً قوياً بأن عقيدتهم في أوزيريس تنسر لهم حياة مباركة في العالم الآخر، وكانوا يرون في هذا الإله رمزاً للموت ثم الحياة مرة أخرى، وكانوا يرمزون له بشجرة في بعض الأحيان وفي الوقت ذاته كان يرى فيه بعض المصريين أنه هو الأرض السوداء التي تخرج منها الحياة المخضرة ويرسمون سنابل الحب وهي تثبت من جسده . ورأى البعض أن الأرض لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا إذا روتها مياه النيل فاعتقدوا أن أوزيريس هو النيل ، وهكذا اعتقد المصريون أن نهرهم العظيم وأرضهم الخصبة التي ترويهما مياهه والحياة المخضرة التي تزدهر بسببه ليست إلا شيئاً واحداً هي إله واحد هو أوزيريس الذي كانوا يرون فيه رمزاً لحياة الأرض التي لا تفتنى .

واعتقد المصريون في آلهة كثيرة ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الأخرى ، أحدهما أوزيريس الذي لم يقهره الموت ، والآخر هو الشمس التي تبهر البصر بضيائها في سماء مصر الصافية ، هذا هو الإله « رع » الذي كان أعظم الآلهة المصرية كآله للأحياء والذي أقام المصريون لعبادته أنخم معابدهم . ولم يكن الهرم إلا رمزاً مقدساً له .

ورمز المصريون للكثير من آلهتهم ببعض الحيوانات . وقد سبب ذلك



شكل ٣٠ : قرص الشمس المجنح . رمز آله الشمس
نرى قرص الشمس في الوسط . وعلى كل جانب منه رأس أفعى من نوع
« الكوبرا » . أما الجناحان فانهما جناحا صقر . وكانوا يعتقدون أن آله الشمس
في هذه الهيئة ليس الا صقرا يطير في السماء .

وقوع بعض الناس في الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن في أصل ديانتهم وإنما دخل عليها في أيام اضمحلالهم وفي الوقت الذي بدأت فيه ديانتهم في الاحتضار في العصر الروماني . كما كان كل من قرص الشمس المجنح والهرم رمزاً لإله الشمس .

عصر الأهرام

الاقتصاد * المجتمع * الفن

إهتم المصريون في عصر الأهرام بتسجيل مناظر مختلفة على جدران المقابر التي حول الأهرام ، وهذا كانوا أقدم شعب في العالم ترك لنا مناظر مصورة تكشف لنا عما كانت عليه حياتهم . ولذلك فإنه يخيل لزارها كأنما انتقل به الزمن وأنه يجوس خلال بيوت أولئك القدماء ويمشي في بلاد وادي النيل في الوقت الذي كان فيه يبني سكانه تلك الأهرام العظيمة .

وحرص المصريون في ذلك العهد على أن يبنوا لكل مقبرة هيكلًا يقيمونه فوق سطح الأرض بينما يدفنون الميت تحتها ، وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن روح صاحب القبر تخرج من حجرة الدفن لتزور الهيكل ، ولهذا كان أقارب الميت يتكون المآكل والمشروبات في الهيكل ويضعونها على مائدة من الحجر لتجدها الروح ، وكانوا يحرصون أيضاً على أن ترى الروح حولها ما اعتادت على رؤيته أثناء الحياة ، ولذلك اهتموا بنفس مناظر الحياة اليومية على جدران الهيكل من السقف إلى الأرض وتفننوا في إتقان رسمها وتلوينها ، وهي توضح لنا نوع الحياة التي عاشوها . وإذا فحصنا هذه الصور التي على جدران الهياكل فإننا نتعلم منها الشيء الكثير . فهذا هو الوجه نفسه مرسوم بحجم كبير يقف ناظر آ إلى حقله ويراقب ما يجري فيها من عمل . ونحن إذ نتمتع ناظرينا برؤية المنظر يجب ألا يغيب عن ذهننا أن هذه هي أقدم مناظر في تاريخ العالم تبين لنا العمل في زراعة وحرث الحقول . وإلى جانب هذه المناظر نرى قطعان الماشية مرسومة في صفوف طويلة ، فهنا أبقار يقيدونها ليحلبوا منها اللبن . وهناك ثيران تجر المحاريث وتساعد الإنسان بالتخفيف عن عاتقه . وعلى هذه الجدران التي نقشت في عصر الأهرام لا نرى أثراً لرسم الخيل

لأنها كانت غير معروفة في مصر إذ ذاك ولكتنا نرى الكثير من رسوم الخمر وعلى ظهورها أحمال من الحبوب ، ولولاها لما تمكن الإنسان من جمع المحاصيل .



شكل ٣١ : رسم بارز على الحجر في مقبرة وجيه من عصر الاهرام

يقف هذا الوجه الى اليمين وقد رسمه الفنان بحجم كبير . وهو يتفقد صفوفاً ثلاثة من الماشية وصفاً من الطيور جاءوا بها اليه . وفي الصفين اللذين في الوسط نرى الكتاب وهم يسجلون بأقلامهم في قرطيس البردي ، ونرى واحداً منهم وقد وضع قلمين خلف أذنه . وكانت أمثال هذه المناظر تنقش على الحجر ثم يلونها الرسامون بالأوان زاهية

وعلى الحائط الثاني نرى الوجه مرة أخرى مرسوماً بحجم كبير يلقي نظرة على المظلات والقاعات التي يعمل فيها الصناع الذين في خدمته . فهناك يجلس نحاس من المؤكد أنه لم يسمع في حياته بسلفه الذي التقط أول قطعة من هذا المعدن قبل ألفي سنة تقدم خلالها الصانع المصري تقدماً كبيراً وأصبح الآن قادراً على صناعة أدوات دقيقة من النحاس من جميع الأنواع . ولكن الآلة التي كانت تحتاج إلى مهارة أكثر

من كل ما عداها كانت المنشار الطويل المستوى الذى عرف النحاس كيف يطرقة ويشكله من قضيب من النحاس طوله خمسة أو ستة أقدام . ولم يقف الأمر بصانع النحاس عند هذا الحد بل بلغ من القدرة فى صناعته أن ينفذ طلبات تدهشنا اليوم مثل ماسورة من النحاس طولها ١٣٠٠ قدم (نحو ربع ميل) كشفت عنها الحفائر فى معبد أحد الأهرامات ، وكانت موضوعة تحت أرضيته لتصريف المياه ، وهذه الماسورة هى أقدم أعمال السباكة التى عرفها العالم حتى الآن .

وعلى الجدار نفسه تقع أعيننا على صانع الأوانى وهو يقدم للوجه أوانى فخمة من الحجر الديوريت راجياً أن تحوز إعجاباه ، وبالرغم من أن هذا الحجر فى درجة معدن الصلب فى صلابته ، فقد كان فى مقدرة الصانع القديم أن يرقق من جدرانه إلى أن يصبح نصف شفاف ويحترقه الضوء فترى من خلاله عروق الحجر الرمادية اللون . وهناك أيضاً صنّاع الأحجار الثمينة يقطعون ويصقلون قطعاً صغيرة من الفيروز الأزرق الجليل لكي يرصعوا بها فى دقة مذهشة سطح أناء فخم من الذهب أتم الصانغ صنعه .



شكل ٢٢ : فلاح يحلب بقرة - من عصر الاهرام

وقفت البقرة ساكنة بعد أن ربط الراعى رجليها الخلفيتين بالحبال وترى خلفها رجلاً آخر يمسك بعجلها الرضيع الذى يشب على رجليه الخلفيتين ويندفع بأذله جهده ليصل الى اللبن .

إلى جانب ذلك نرى مظلة الصانغ وقد اكتظت بالصناع ومساعدتهم يترقون ويصبون ويلحمون ويجمعون اجزاء من الحلى بعضها إلى بعض . فقد نبغ هؤلاء

الصياغ في عملهم ، وكانوا يصنعون حليا لا يمكن أن تخرج بدا الصائغ أو الجوهري الحديث أفضل منها .



شكل ٣٢ : عجلة الفخار وقرنه

يجلس الفخارى أمام عجلته الافقية التي تشبه طبقا مسطحا مستديرا ويشكل الفخارى الاناء باحدى يديه بينما يدير هذه العجلة باليد الاخرى ، وعن هذه العجلة البسيطة تطورت فكرة المخرطة فى العصور الحديثة

وبعد ان يتم الفخارى صنع الاواني يضعها داخل الفرن الذى نراه الى اليسار ونرى الفخارى وقد وضع يده أمام وجهه ليدرا عنها الحرارة المنبعثة من الفرن . أما الرجل الذى يقف فى الوسط فانه يرتب تلك الاواني فى صفوف بينما يعمل الثلاثة الذين على اليمين فى حك السطح الخشن لهذه الاواني وخاصة فى الاماكن التى لم تتم العجلة صناعتها على الوجه الاكمل . ومن الجائز ان واحدا من هؤلاء الرجال الثلاثة يحك الاناء الذى بين يديه بمحارة وهى عادة كانت متبعة ايام قدماء المصريين وما زالت أيضا مستعملة بين احفادهم حتى الآن .

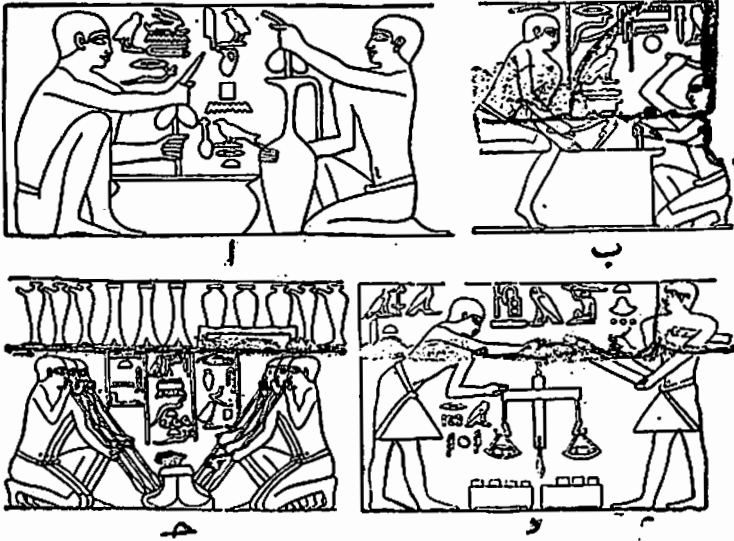
وعلى مقربة منه نرى صانع الفخار الذى لم يعد يصنع أوانيها بأصابعه كما كان الحال فى العصر الحجرى ، بل ها هو يجلس أمام عجلة أفقية الوضع يديرها ويشكل أوانيها عليها بمهارة تامة ، وبعد أن تجف هذه الأواني المصنوعة من الطين لا يضعها الصانع فى وسط نار فيحرقوها كما كان يفعل الفخاريون فى العصر النيوليتى فى قرى البحيرات السويسرية ، بل نراهم يحملونها إلى حوش صفت فيه أفران مغلقة من الطين

الناشف ارتفاعها مثل قامة الرجل ، وكانت الأواني ترص داخل هذه الأفران ويخرجها بعد أن يتم حرقها في تلك الأفران التي لا يؤثر الريح فيها أو يسبب عيوباً في صناعتها . وعلى هذا الجدار نرى الصناعات وهم يصنعون الزجاج ، ولكن ليس بالصورة التي نعرفها ، وإنما بوضع طبقة زجاجية Glaze فوق مادة من المواد ، فقد عرف المصريون ذلك قبل بضعة قرون ، وكانوا يصنعون قوالب صغيرة يغطون سطحها بطبقة زجاجية ذات ألوان زاهية ليجمعوا بها جدران المنازل والقصور ، وفي العصور التالية عرف الصانع المصري كيف يصنع الزجاج الحقيقي وصنع منه زجاجات وأواني ذات ألوان عديدة كثيراً ما بعثوا بها كسلع تجارية إلى الشعوب الأخرى .

وترينا المناظر التي على هذه الجدران نساء ينسجن الملابس الكتانية . ولسنا نتوقع أن تعطينا الصورة فكرة عن دقة صناعته ولكن وصلت إلينا لحسن الحظ بعض قطع من الثياب الكتانية المصنوعة للملوك كانت قد لفت بها مومياء أحد ملوك ذلك العصر ، وعرفنا منها إلى أي مدى تفوقت الصناعة المصرية ، فأخرجت كتانا على النول اليدوي بلغت فيه دقة النسيج ما جعل من الصعب أن نميزه عن الحرير ، وإذا قارناها بخر ما يمكن أن ينتجه النول الميكانيكي الحديث فإن صناعتنا الحالية خشنة بالنسبة إليها . وأخرج النساجون المصريون في تلك الأيام كثيراً من أنواع الثياب كانوا يصنعونها على أنواعهم اليدوية ، وكثيراً ما صنعوا أنسجة موشاة لتعلق على جدران قصر الملك أو لتستعمل سقفاً يظلل حديقة السطح في بيوت الوجهاء ، لأن هؤلاء النساجين كانوا أول من صنع تلك الأنسجة الموشاة بين شعوب العالم .

وهناك أيضاً مناظر لرجال حفاة الأقدام يجمعون حزمات كبيرة من أعواد البردى التي تنمو في المستنقعات على مقربة من النيل ، ومع مرور الزمن حملت

المراكب المصرية كثيراً من كميات الورق المصنوع في وادي النيل مع ما كانت تحمله من بضائع وتنقله في البحر الأبيض المتوسط إلى سوريا وأوروبا. فإذا ما اتقلنا إلى الحائط المجاور نرى النجارين وبناء السفن وهم يعملون. وقد أجاد الفنان رسمهم حتى ليكاد يخيل إلينا أننا نسمع صوت ضربات الشاكوش والقادوم، فهؤلاء النجارون يقومون بصنع الأثاث الفخم لبيت الوجهيه، وبلغ هؤلاء الصناع حداً كبيراً من التقدم وكانوا يحلون الكراسي والأرائك التي يصنعونها للبلوك بصفائح الذهب ويطعمونها بالأنبوس والعاج وينجدونها بوسائد من الجلد الأملس.



شكل ٣٤ : صناع مصريون أثناء العمل

(أ) صانعو الاواني يجوفون اوانى حجرية بآلة تشبه المثقاب المجنح ، ولهذه الآلة يد ، ومثبت في أعلاها ثقلان ليحفظا التوازن ، وكانت اليد من الخشب اما السلاح القاطع فكان من الطران • (ب) نجارون يستعملون قادوما أو أزميلا ومدقة في عمل باب • (ج) صانعو معادن ينفخون في قصبات لعمل تيسار من الهواء يدفعون به الى مزيج من الفحم والنحاس الخام ليحصلوا على معدن النحاس نقياً • وهذا هو أبسط أنواع الكور • (د) صياغ يزنون قضباناً من الذهب (مناظر من مقبرة مروكا في سقارة)

وعلى مقربة من مصانع الأثاث نرى صفاً من المراكب ، ونرى العمال منتشرين فوقها كالمثل يجمعون أجزاء الزوارق وأجزاء أقدم السفن البحرية التي عرفها التاريخ .

وزادت الملاحة النهرية التي بدأت في عصر الاتحاد الأول ، زيادة كبيرة لأن التقدم السريع في الصناعة أخرج كثيراً من الأدوات وساعد على تشجيع التبادل التجاري بين المدن المختلفة ، وكثيراً ما نرى تلك المراكب مرسومة على جدران المقابر ، وكانت صفحة مياه النيل زاخرة بها ، وكانت حولاتها إما ضرائب مرسله للخزينة الملكية أو سلعاً في طريقها إلى أسواق المدن للتبادل عليها بسلع أخرى .

وبين مناظر المقبرة نفسها أحد الأسواق ، ونرى فيه صانع الأحذية يعرض على الحياض زوجاً من الصنادل مقابل رغيف أو أرغفة من الخبز ، وزوجة النجار وهي تعطي صائد السمك صندوقاً صغيراً من الخشب ثمناً لسمكه ، وزوجة الفخاري وهي تعرض أناءين مما أخذته حديثاً من الفرن على العطار مقابل أناء في داخله بعض العطور



شكل ٣٥ : مناظر في سوق مصرية (عن ليسيوس)

كان هؤلاء الناس لا يعرفون العملة النقدية . وكان تبادل السلع أساس التعامل بينهم . وهذا هو ما كان يحدث بين كل طبقات العامة . ولكن الأمر يختلف في

سراى الملك ومكاتبها . فقد كانوا يتعاملون بحلقات ثقيلة من الذهب ذات وزن محدد متفق عليه ، كانت تقوم مقام النقود . وكانت هناك أيضاً حلقات من النحاس لتأدية الغرض نفسه . ولا شك أن تلك الحلقات كانت الأصل فى عملة النقد فيما بعد .

ولم يكن أولئك الناس الذين رأيناهم فى السوق إلا من عامة الشعب فى عصر الأهرام ، وكان بعضهم أحراراً لهم الحرية التامة فى ممارسة تجارتهم أو صناعتهم ، والبعض الآخر كانوا أرقاء يعملون فى حقول أصحاب الملكيات الكبيرة . ولم يكن فى هاتين الطبقتين الفقيرتين من يملك أرضاً . وكانوا يأترون بأمر من يملكون الأرضى وهم الملك ورجاله وموظفوه الذين عرفنا أسماء الكثيرين منهم لأنهم تركوها مكتوبة فى مقابرهم . وإذا تجولنا بين مقابر الجيزة وسقاره نستطيع أن نكتب بياناً بأسمائهم ويكون هذا البيان أشبه « بدليل » لعطاء المصريين الذين كانوا يقطنون فى أفخم أحياء العاصمة فى الوقت الذى كانت تبني فيه الأهرام ، أى منذ وقت يقرب من خمسة آلاف عام . فمن قراءة أسمائهم وألقابهم نعرف من كان منهم وزراء أو رؤساء للخزينة ومنهم الذين تولوا المناصب الرئيسية فى القضاء ومنهم الذين كانوا مهندسين معماريين أو أمناء فى القصر أو من كانوا رجال البلاط وهكذا . نعرفهم جيداً ونعرف مقابرهم . بل وصل بنا الأمر أننا نعرف شبه الكثيرين من أولئك الوجاه . وذلك من تماثيلهم التى كانوا يحرصون على جعلها صورة . مطابقة لشكل صاحبها .

وكان أعضاء البيت المالك هم أهم طبقة بين أولئك الوجاه . ولنتحدث قليلاً عن أم الملك خوفو . كان قبرها الأصلى فى مكان بعيد عن الجيزة وتمكن اللصوص من دخول قبرها وسرقة جزء مما كان فيه . فلما علم ابنها بهذا الحادث جزع وأمر موظفيه أن يحضروا تابوتها وجميع الأثاث الجنائزى الذى كان مدفوناً معها إلى الجيزة لأنه أراد أن تدفن أمه فى مكان أمين . وكان العمل جارياً فى الهرم الأكبر ، ولهذا

اختاروا المستقرها الجديد مكاناً إلى الشرق، وحفروا بئراً عميقاً نحو مائة قدم قطعوها في الصخر، وفي نهايتها نحت العمال حجرة نقلوا إليها الأثاث الجنازى الخاص بأم الملك . وبعد أن أمموا ذلك ملأوا البئر كله من أسفله إلى أعلاه بأحجار مبنية وأحسنوا إخفاء معالم الجزء العلوى من هذا البئر ، ونجحت هذه الطريقة في حماية ذلك المستودع من العبث فلم تمسه يد إنسان قرابة خمسة آلاف عام .

فلما اكتشفها بعثة هارفارد - بوسطون، وجدوا أن أخشاب ذلك الأثاث الجميل قد بلى أو انكش إلى حد غير معالمه ، ولكن صفائح الذهب التى كانت تغطى تلك الأخشاب بقيت كما هى . وبذلك أمكن عمل خشب جديد وضعوا فوقه صفائح الذهب القديمة ، وبذلك أصبح فى استطاعتنا أن نرى الهودج الذى كانت تحمل فيه الملكة عند خروجها للنزهة ، وهو يشبه عربة لا عجل لها كانت تجلس فوقه الملكة مادة رجلها إذا شاءت ويحمله أتباعها فوق أكتافهم . ومع ذلك الهودج نرى الكرسي الذى كانت تستريح فوقه عندما كانت تعود إلى القصر ، والسرير الذى كانت تنام فوقه ، وصندوق حليها الذى كانت وصيفاتها يضعن فيه حلقات نخمة من الفضة مرصعة بفرشات صنعت من الفيروز الأزرق واللآزورد والعقيق الأحمر ، وكانت الملكة تزين رجلها بهذه الحلقات (الخلاخيل) فى الحفلات التى كانت تقام فى القصر . وقد احتوت المقبرة على الكثير من أشياء الملكة الخاصة حتى الإبرة النحاسية التى كانت رصيفات الملكة يخيطن بها ثياب سيدتن . وكانت كل هذه الأشياء هدايا من زوجها الملك سنفرو وابنها الملك خوفو وهى مصدرنا الأوحد لمعرفة حياة الرفاهية التى عاشها الملوك فى عصر الأهرام (١) . وهى تكشف لنا عن

١ - انظر مقالات ريزنر (G.A. Reisner) فى مجلة Bulletin of the Boston Museum of Fine Arts, May, 1927. Supplement to Vol. XXV. Vol. XXVI (1938) pp. 76-88; Vol. XXVII (1929). pp. 83-90; Vol. XXX (1932). pp. 55-60.

صفحة من الفن والحياة في قصور الملوك في عصر يسبق الملك « توت عنخ أمون » ،
بأكثر من ألف وخمسمائة سنة .

وكان رجال البلاط يحيون حياة رفاهية لا تكاد تقل عن حياة أفراد العائلة الملكية . ففي مقابر هؤلاء الرجال مناظر جميلة تمثل الواحد منهم وهو يجلس في الهودج عائد إلى منزله بعد أن تفقد أحوال أملاكه ، وقد حمله أرقاؤه إلى الحديقة التي أمام منزله . وها هم يضعون الهودج على الأرض ويتوقفون عن الغناء^(١) ، ثم تتقدم زوجته لتحيته وتأخذ مكانها إلى جواره ، فهي زوجته الوحيدة ولها مقام عظيم وتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها زوجها . وحديقة المنزل جنة الوجيه ، وأحب الأماكن إلى قلبه ، وفيها يستطيع أن يستجم ساعة من ساعات فراغه مع عائلته وأصدقائه يلعب السبيجة أو يستمع إلى أنغام القيثارة الذي تمسك به زوجته أو إلى فرقة مكونة من ثلاث آلات موسيقية هي القيثارة والمزمار والعود ، أو ينظر إلى النساء اللاتي يرقصن أمامه تلك الرقصات البطيئة الوقورة التي كانت سائدة في ذلك العصر ، وفي تلك الأثناء يمرح أطفاله بين الأشجار أو يخوضون في البركة التي في الحديقة يطاردون ما فيها من سمك . وأحياناً يلعبون بالكرة أو بالكرانس أو يلعبون « النطسة » ، أويعاكسون القرد الأليف الذي يحتمى منهم بالكرسي ذي الأرجل المصنوعة من العاج الذي يجلس عليه أبوهم .

ولن نستطيع أن نعرف معرفة تامة جميع المؤثرات التي رفعت الناس في أوائل عصور التاريخ من الهمجية والغرائز الحيوانية إلى اللطف والمجاملة ، ولكن هنا في مصر حيث نرى من المناظر المرسومة على آثارها ، أول المناظر للحياة العائلية يمكننا القول بأن الفترة الطويلة التي يعتمد فيها الأبطال الذين لاحول لهم على معونة وحماية أبيهم وأمه ، كانت لها تأثير في تهذيب همجية الانسان الذي عاش في

١ - هذه الاغنية وامثالها مسطورة على جدران المقابر في ذلك العصر

العصور المبكرة وتحويلها إلى رغبة واهتمام عاطفي لأسعاد الزوجة والأطفال .
وهذه المناظر العاطفية التي تأخذ باليابنا عندما نراها مرسومة على الآثار المصرية ،
توضح لنا تلك النتيجة السعيدة التي وصل إليها الانسان بعد عصر طويل .

وفضلا عن ذلك فإن النقوش التي في مقابر ذلك العهد السحيق توضح لنا كيف
كان المجتمع يعترف بأن حق الفرد في تلقيه بأنه حسن الخلق يتوقف على أخلاقه
والروح التي يعامل بها عائلته أى أباه وأمه وإخوته وأخواته . وكثيراً ما نقرأ في
مقابر هؤلاء الوجهاء عندما يريدون تلخيص جميع ما فيهم من صفات حميدة : « كنت
شخصاً يحبه أبوه وتعزه أمه ، وكان إخوته وأخواته يحبونه ، ولكن في الوقت
ذاته نرى أن الأخلاق الحسنة لم تقتصر على البر بالأهل فقط بل اتسعت هذه
الدائرة عصر الأهرام وأصبحت تشمل البر بالجيران بل وبجميع من عاش في
المنطقة . وكان هؤلاء الناس الذين عاشوا منذ ٤٥٠٠ سنة أو ٥٠٠٠ سنة يكررون
مرة بعد أخرى أنهم لم يقترفوا إثماً لأنهم اعتقدوا بأن الاستقامة الخلقية كانت
ضرورية في نظر الآلهة ولها أثرها فيما يتوقع أن يلاقه الانسان من سعادة في
حياته التي سيجياها بعد الموت . وها هو « حرخوف ، أحد وجهاء جزيرة أسوان
(جزيرة الفنتين) والذي قام برحلات استكشافية في السودان في القرن
الرابع والعشرين قبل الميلاد يشرح لنا السبب الذي جعله يحمي حياته
المثالية : « لقد أردت أن يكون الأمر خيراً بالنسبة إلى في حضرة
الآله العظيم ، . كان أمثال هذا الوجه يدركون تماماً أنه كانت
عليهم واجبات رفيعة ، وها هي إحدى حكم الوزير العظيم « پتاح حتب » : -
« طوبى للرجل الذي يجعل الحق رايته ويسير وراءه دائماً ، ولقد كان قدماء المصريين
لا يفكرون في الجمال إلا إذا قرنوه بالخلق الطيب : وقد نمت هاتان الصفتان معاً
في وسط التعم والترف .

وكثيراً ما كان يجلس أمثال هذا الوجيه في الحديقة واضعاً إحدى يديه على رأس كلبه ويشير بيده إلى رئيس البستانيين مصدرأ إليه تعليماته بشأن الخس الطازج الذي يريد أن يأكل منه في المساء في بيته الفسيح المريح المبني من الطوب اللبن والخشب . وكان مثل ذلك البيت بسيطاً راعى فيه من بناء أن يكون ملائماً للجو ، يجرى فيه دائماً النسيم ، وله نوافذ في كل جانب ، وجدران قاعات الاستقبال تكاد تكون إطارات فيها ستائر زاهية الألوان يتركونها ملفوفة ولا ينشرونها إلا عند الضرورة لحمايتهم من الرياح أو العواصف الرملية . وأعطى هذا التنظيم للسكن مظهراً لطيفاً تراح إليه النفس وجعل منه تحفة فنية ترينا كيف كان المصري القديم يحب أن يرى نفسه محاطاً بالجمال ، وكيف استطاع أن يجعل أشياءه المفيدة الضرورية له جميلة جذابة .

وعندما يجلس هذا الوجيه ومعه زوجته وأصدقائه إلى العشاء فإن الجمال يحيط به من كل ناحية ، فكانت يدهم ملعقته مزخرفة برسم زهرة اللوتس ، وكان النيذ يتلألأ في كأس شرابه ، وكان أزرق اللون يشبه زهرة اللوتس أيضاً ، وكانت أرجل كرسيه الذي يجلس عليه أو الأريكة التي يلقي نفسه عليها للاستجمام مصنوعة على شكل أيادي وأرجل الأسد أو الثور . أما القاعة التي كان يجلس فيها فكان سقفها ملوناً باللون الأزرق كالسماء تسبح فيها النجوم ، ويحمل هذا السقف أعمدة على هيئة جذع النخل يزين الجزء العلوى منها ما يمثل الجريد . وكان هذا الجزء مصنوعاً من الخشب وملوناً باللون الأخضر الداكن ليكون شبيهاً بالطبيعة ، وأحياناً كانت أعمدتهم شبيهة بساق زهرة اللوتس ، ترتفع من الأرض لتحمل هذا السقف الفيروزي اللون فوق أزهارها المتفتحة . وكثيراً ما كانوا يضيفون رسم بعض الحمام أو الفراشات إلى رسم النجوم في سقف القاعة . وكذلك زينوا الأرضية بمناظر شديدة الخضرة تمثل نباتات متعددة يتخللها الماء ويسبح فيها السمك بين أعواد القصب المتمايلة .

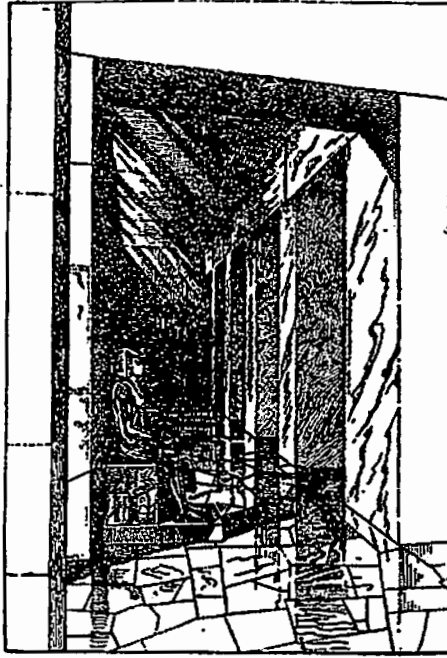
ونرى هناك أيضاً رسم الثور الوحشى وهو ينظر إلى الطيور التى تترقق وهى تطير فوق تلك النباتات محاولة أن تخيف ابن عرس إذا جاء يتلصص ليلتهم ما فى أعشاشها . ولولا وجود الفنانين المتمرنين ، لما أمكن رسم أمثال تلك المناظر على جدران المقابر . وفى مقبرة منها نرى الرسام الذى نقش المقبرة قد رسم نفسه جالساً إلى مائدة مع غيره من الموظفين الذين يعملون فى دائرة الوجيه . لقد نجح أمثال هذا الفنان فى تلوين مناظرهم ، وجعلوا المظهر العام للحائط أو للحجرة مقبولاً وجميلاً . ويثبت لنا نجاحه فى التكوين أنه كان ذكياً مرحاً ، ولكنه لم يأبه بقواعد الرسم المنظور ولم يعرفها فى رسومه . وكان يستوى لديه فى الحجم المناظر البعيدة أو التى على مسافة متباينة مع تلك التى أمامه .

وكان أهم الفنانين فى ذلك العصر هم المثالون الذين كانوا ينحتون من الخشب أو الحجر تماثيلهم ويلونونها لتصبح أكثر محاكاة للأصل . وكانوا يضعون فى مكان العين باللوراً صخرياً يشع دائماً بنور الحياة . كانت هذه التماثيل صورة صادقة لأصحابها ووصل فيها الفنانون إلى مستوى رفيع من الإتقان لم يصل إليه فنانون آخرون فيما بعد ، مع أنها أقدم التماثيل التى جاءت مطابقة لصورة أصحابها فى تاريخ الفن .

وتماثيل الملوك كانت رائعة فى أغلب الأحيان ، وكانت توضع عادة فى معابد الأهرام . وأضخم ما صنعته يد المثال فى عصر الأهرام هو تمثال « أبو الهول » فى جبانة الجيزة ورأسه على شكل رأس الملك خفرع بنى الهرم الثانى ، والتمثال كله نحت فى تتوء من صخر على مقربة من المدينة الملكية .

أشرنا قبل الآن إلى جمال المباني التى أقامها « محوتب » . وقد تلا ذلك خطوة هامة فى فن العبارة نراها واضحة فى أعمدة وجدران معبد الوادى الخاص بالملك خفرع ، وهو الذى يقع إلى جوار « أبو الهول » . وكان الضوء يدخل إلى البهو

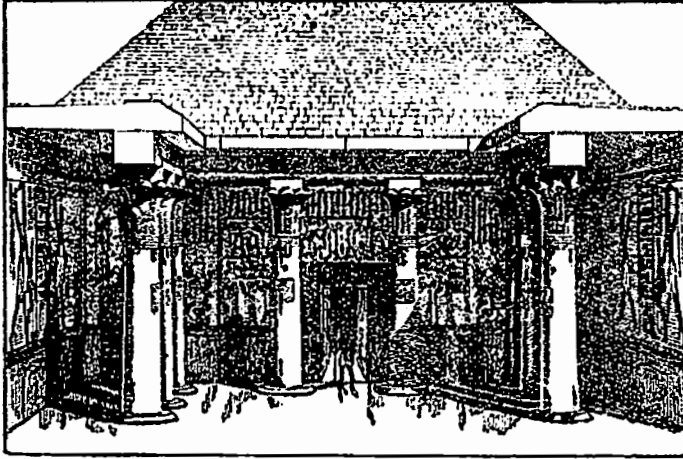
الكبير في هذا المعبد من عدد من الفتحات المائلة على مقربة من السقف . وكان سقف الجزء الأوسط من البهو أكثر ارتفاعاً من السقف الذى على الجانبين . وكان النور يدخل من فتحات في الجزء الذى بين السقفين ، ونقل اليونان والرومان هذا النوع من تنظيم الأبهاء عن المصريين ، وعنه اقتبس المعاريون في العصر المسيحي



شكل ٣٦ : رسم يمثل البهو الكبير في معبد خفرع كما كان عند تشييده

يحمل صفان من الاعمدة الجرانيتية المربعة سقف القاعة ويوزن كل منها ٢٢ طناً . ونرى في هذه الصورة صفا واحدا من هذه الاعمدة ، أما الصف الاخر فهو على اليمين وليس في الصورة . ويدخل الضوء مائلا من النوافذ قليلة الارتفاع وكانت هذه القاعة ملاءى بالتمائيل ، وفي وقت من الاوقات رميت هذه التماثيل في حفرة عميقة في الصالة المجاورة . ولسنا نعرف السبب الذى من أجله حطمت هذه التماثيل وألقيت في تلك الحفرة حيث عثر عليها منذ مائة سنة تقريبا (هولشر)

واستعملوه في بناء السقف والنوافذ في الجزء الأوسط من الكنائس المقامة على طراز البازيليكا (basilica) وفي الكاتدرائيات ، وهكذا كان البهو الجرانيتي في معبد خفرع الأصل الذي نقل عنه أهم أنواع العمارة المسيحية الذي انتشر في أوروبا بعد عهد خفرع بأكثر من ثلاثة آلاف سنة .



شكل ٣٧ : أعمدة في ردهة أحد معابد الاهرام
نرى في هذا الرسم أن الردهة كانت غير مسقوفة في الوسط وكانت جوانبها فقط محمولة على سقف مقام على أعمدة من نوع الأعمدة النخيلية ذات التيجان على شكل الجريد . وكانت هذه الردهة بما في ذلك الجدران التي خلف الأعمدة ملونة بالوان زاهية طبيعية

ويحس الزائر لمعبد خفرع بضخامة وعظم وزن الأعمدة ، ولكن لم يكدير قرن واحد حتى أخذ المعاريون المصريون يفضلون الرشاقة على العظمة ، وبدلاً من أن يقيموا تلك الأعمدة المربعة الثقيلة الوزن ، فإنهم فضلوا استعمال أعمدة مستديرة رشيقة النسب خفيفة الوزن ذات تيجان جميلة ، شبيهة بطراز سبق أن رأيناه في مباني « إحتوب » ، وكانوا يبنون هذه الأعمدة في صفوف . وهذا كانوا أول شعوب العالم في بناء الأبهاء القائمة على الأعمدة .

ولم تلبث هذه الأشياء النافعة الجميلة أن شقت طريقها في مصر عبر البحر

الأبيض المتوسط إلى أوروبا ، وعن طريق البر إلى غرب آسيا ، وكان الفضل في ذلك للصلة التجارية التي حملت معها هذه الأشياء .

وسنرى فيما بعد أن غرب آسيا كان يتقدم بدوره نحو الحضارة خطوات تثير الدهشة ، وبدأت حضارته تترك لنفسها أثراً في مصر ، وكان للتجارة أثرها أيضاً في الاتصال بين غرب الدلتا وكريت . ويجب ألا يغيب عن أذهانتنا أن ملوك مصر بدأوا هذه الصلات الخارجية وخاصة ما كان منها بطريق البحر قبل عصر الأهرام بقرون عديدة .

ولم يقف نشاط الملوك عند حد إرسال السفن التجارية وحملات التعدين إلى سيناء بل كانوا يرسلون أيضاً حملات إلى السودان لتتجر مع أهل الجنوب . وكانت تفرغ البضائع على ظهور الحمير وتعود دحمة بعد ذلك بالأبنوس والعاج وريش النعام وأنواع البخور . وكان يذهب على رأس تلك الحملات موظفون لدى الملك رويت أخبار رحلاتهم على واجهات مقابرهم في أسوان ، وفيها الكثير من مخاطرهم بين القبائل غير المتمدنية في الجنوب التي كلفت بعضهم حياتهم . وهؤلاء الرحالة هم أقدم من استكشف داخل القارة الأفريقية (١) وحاول معرفة الطرق الموصلة إلى المجهول من أرجائها .

وكان أسطول الملك ينزل أيضاً إلى البحر الأحمر ليصل إلى بلاد « بنت » عند باب المنذب حيث كان يجد أيضاً حاصلات السودان فتعود بها السفن عن طريق البحر .

وتدلنا عظمة حضارة المصريين في عصر الأهرام على أن الحياة العامة كانت منظمة تحت حكم أولئك الملوك ، ولكن وجهاء البلاد أخذوا يقوون حتى

جاء اليوم الذي لم يعد للملك السلطة التامة عليهم ، وأصبحت الحكومة المركزية في حالة تمكك شديد ، ولم يأت منتصف القرن الثالث والعشرين ق . م إلا وأصبحت البلاد مفككة الأوصال ، وانقسمت إلى مجموعات من الإمارات الصغيرة ، وبهذا انهار ذلك البنيان الذي ظل فترة طويلة ، وعادت حالة البلاد الى ما كانت عليه قبل اتحادها .

كان ذلك العصر المبكر في مصر فترة إنتاج غير عادية لشعب في فتوته وجد لأول مرة من ينظمه فأخذ ينتج ويتقدم ماشاء له مقدرته ونشاطه ، وأصبحت مصر بعدها في مفترق الطرق فإما الوصول إلى انهيار السلطة المركزية وإفناء قوى الشعب بسبب التلاحن بين الحكومة وأمراء الأقاليم وإما بلوغ المصريين حلا يهيء للبلاد وحدتها مرة أخرى ويجعلها تستمر في تطورها الثقافي ، وسنرى في الفصل القادم كيف خرجت مصر من هذه الأزمة .



شكل ٣٨ : أقدم رسم لسفينة بحرية (القرن السادس والعشرون ق م)

أحد المناظر في معبد هرم الملك « ساحورع » . وفيه نرى جميع من في السفينة يرفعون أذرعهم وينحنون لتحية الملك الذي كان واقفا على الشاطئ ولكنه قد تهشم الآن ، وارتفعت أصواتهم بالدعاء له . وفي السطر الذي فوقهم : « التحيات لك يا ساحورع يا ملك الأحياء ، اننا نمتع أنظارنا بجمالك » . ونرى بين ركاب السفينة بعض الأسرى الفينيقيين الذين كانوا على ظهرها ، وكانت هذه السفينة واحدة من ثمانية ذهبت الى الطرف الشرقي من البحر الأبيض ثم عادت سالمة ، وأنزل بحارتها الصاري الكبير المزدوج . وأصبح هذا النوع من السفن شائعا بعد ذلك في البحر الأبيض المتوسط ، وانتشر في جميع البحار بين إيطاليا والهند .

الفصل الرابع

قصته مصر

عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى والإمبراطورية
اضطراب النظام الحكومي وبدء عصر الفترة الأولى^(١)

انتهى عصر الأهرام وانهار صرح نظامه بعد أن ظل نحو ألف عام ، وكان لهذه الحوادث أثر كبير في الشعب ، ولكنها لم تجدد صدق في نفوس الناس وقت حدوثها بحيث يسطرون وقائعها أو لا بأول ، غير أن بعض الذين شاهدوها لم يستطيعوا نسيانها فكتبوا عنها فيما بعد مثل ما حدث تماما عند سقوط روما . ففي مثل تلك الأيام السوداء ينصرف المفكرون عن الانشغال بالزخرف الخارجي ويحصرون تأملاتهم في القيم الداخلية للنفس الإنسانية بعد أن يتضح لهم عبث الاعتماد على الماديات . فقد كان ملوك مصر في عصر الأهرام يعتمدون على الماديات ، وقضوا قرونا عديدة يكافحون لينتصروا على الموت بإقامة أهرامهم العظيمة وعمل الاحتياطات الكبيرة لصيانة جثثهم ، ولكن هاهم يرون الأهرام ومقابر وجهاء البلاد تحت رحمة الفوضى وكيف بدأت تهدم . وكلما تقدمت الأيام وظل الناس في فوضى اقتنع هؤلاء المفكرون أن لا فائدة من هذه الحياة المادية الفانية .

وبعد أن انتهى عصر الاتحاد الأول رأى الحكماء المصريون ما وصل إليه حال البلاد من الانهيار ، وحرك أشجانهم ما رأوه من انتهاك حرمة قبور أسلافهم وتركها

١ - فضلت تغيير (Feudal Age) أي العصر الإقطاعي إلى عصر الفترة الأولى (First Intermediate Period) والدولة الوسطى لأن ذلك هو المتبع الآن في جميع كتب التاريخ الحديث . وعدل المؤرخون بالاجماع عن استعمال تغيير العصر الإقطاعي لأنه لا سند له في الوثائق القديمة ولم يكن في مصر يوما من الأيام نظام يشبه العصر الإقطاعي المعروف في تاريخ أوروبا (المغرب)

دون عناية . فأخذوا يتأملون فيما عساه أن يكون قد نفع هؤلاء الاسلاف ما اتخذوه من احتياطات وما أنفقوه على تلك المقابر وما أوقفوا عليها من أموال . ونحن نعرف أن بعض الشكوك بدأت تفسح لنفسها مكاناً في نفوس بعض الناس في عصر الأهرام فأخذوا يتساهلون عن مدى فائدة تلك الاحتياطات المادية ومدى تأمينها لخلود النفس . ولكن عندما يرى الناس هذه الآثار العظيمة وقد أصبحت خرائب ، فإن الشك يتحول إلى الحاد وانكار . ولم يمض وقت طويل حتى وجد هذا الاحاد طريقه إلى الكتابات الأدبية .

وظلت مصر ألف سنة يسودها نظام وطني يمثله الملك ويحافظ عليه . ولكن في الوقت الذي تداعى فيه هذا النظام وانهارت أركانه انكشفت مواطن الضعف للأجانب وبدأوا يغزونها ويتدفقون على الدلتا من ناحية الشرق آتين من آسيا ومن ناحية الغرب من ليبيا ، فعمت الفوضى ووقف دولاب العمل الحكومى ، ونقرأ فيما خلفه أحد الحكماء : « ورى الناس ملفات القوانين والمحاكم على الأرض وداسوا عليها فى الأماكن العامة ، وأخذ عامة الناس يفتحونها فى وسط الطريق ، ووقف التعامل الاقتصادى وتغيرت الأوضاع الاجتماعية تغيراً تاماً ، وعفت الأيام على القيم الأخلاقية التى اعتبرها الناس مثلهم العليا ، تلك القيم التى وصلت إليها الإنسانية بعد النى سنة تقريباً وجاءت نتيجة للحياة المنظمة ، وظن القوم أنها خالدة . وكان هذا الانهيار الاجتماعى أقدم النكبات التى وصلت إلينا أخبارها مدونة بعد أن كتبها بعض من عاشوا فى تلك الأيام ، وأدركوا تمام الإدراك ما أصاب المجتمع من انهيار . وعرفوا العواقب الوخيمة التى يمكن أن تصيب البلاد من جراء الفوضى فى حكم البلاد ، وكانوا يحملون بتغيير الحالة وتحسن الأيام . وكان بعضهم يؤمن بأن عصراً جديداً سيبدأ عندما يتولى الأمر جيل من الموظفين العادلين ذوى الأمانة ، بينما آمن البعض الآخر أن هذا العصر الجديد يمكن أن يجيء على يد ملك عادل ينقذ الناس

ويعد تنظيم المجتمع . وكان الفريق الأول يرى أن علاج الحالة يمكن أن يتم بتطبيق العدل والمبادئ الاجتماعية السليمة في الحياة اليومية على أيدي طبقة الموظفين ، وزى هذا المعنى واضحا فيما كتبه ملك مجهول عاش في ذلك العهد المظلم الذى جاء بعد سقوط عصر بناء الأهرام ضمن نصائحه لولده : « إن الرجل المستقيم الذى يقيم العدل خير من ثوره الذى يسبب الأذى ، وها هو كاتب من الفريق الثانى ويدعى « نفررو هو ، يصف ما آلت اليه حالة البلاد من سوء ويتنبأ بمجيء ملك يخلص الناس مما هم فيه ويسمى هذا الملك « أمينى » وهو اختصار لاسم امنمحات الذى لاشك أنه



شكل ٣٩ : مقبرة منحوتة في الصخر لآحد الكبراء من عصر الدولة الوسطى
ليس هذا القبر مبنيا بالحجر مثل مقابر عصر الأهرام وإنما هو منحوت في صخر الجبل . وفي داخل الهيكل الذى يوصل اليه الباب الظاهر فى الصورة مناظر ملونة تشبه مناظر مقابر عصر الأهرام كما نجد هناك أيضا كثيرا من الكتابات . ويقص علينا صاحب هذا القبر كيف كان يحسن معاملة الناس . فيكتب على أحد جدران مقبرته « لم أسئ الى فتاة من بنات الفقراء . ولم أظلم أرملة . ولم يحدث اننى طردت فلاحا أو أخرجت راعيا من عمله . لم يكن هناك بانس بين زعايى ولم يجع أحد فى عهدى . ولما حلت سنوات القحط حرثت جميع الحقول فلم يبق جائع بين الناس وأعطيت الارملة مثل ما أعطيت المرأة ذات البعل . ولم أميز غنيا على فقير فى أى شئ منحتة »

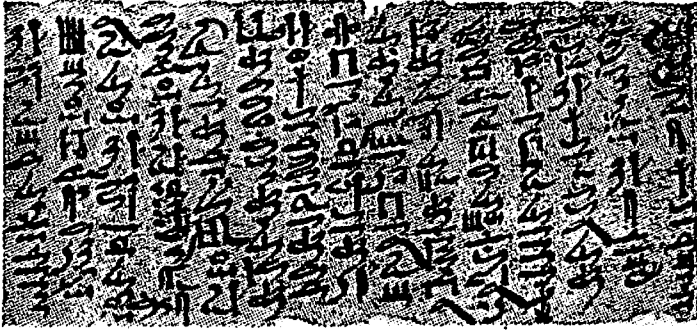
هو « امنمحات الأول ، مؤسس الأسرة الثانية عشر الذى نظم حالة مصر حوالى سنة ٢٠٠٠ ق. م . والذى قيل عنه بعد ثلاثة أجيال من وفاته إنه « طرد الظلم بعيداً لأنه أحب العدل كثيراً ، .

ورأى المتنبئون أن حلهم قد تحقق عندما تولى امنمحات الأول عرش البلاد . ولكن ما الذى حدث للفريق الأول الذى كان لا يرى أملاً فى انقاذ البلاد إلا على أيدي أجيال من الموظفين الصالحين ؟ فى الواقع أن كلا الأمرين مرتبطان لأن حكم الملك الصالح لا يمكن أن يكون مشمراً إلا إذا قام على اكتاف موظفين صالحين ينفذون سياسته . وبذل امنمحات « الصالح ، كل ما وسعه من جهد ليعيد المثل العليا القديمة ولكنه لم يتمكن من إخضاع أمراء الأقاليم إخضاعاً تاماً إذ ظل لهم الكثير من حقوقهم القديمة واستقلالهم ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الاقطاعيين فى العصور الوسطى بأوروبا ، وهذا هو مادعا بعض الكتاب لتسمية هذا العصر فى بعض الأحيان بعصر الاقطاع فى مصر .

الأدب والعام في عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى

كانت هذه الفترة في تاريخ مصر من العصور الزاهرة بالآثار الأدبية التي وصل إلينا منها قطع كانت في يوم من الأيام ضمن مكتبات أمراء الأقاليم فقد عني هؤلاء الناس بجمع الكتب ، وكانت على هيئة ملفات من البردى تلف بعنايه وتحمم ثم توضع داخل أواني من الفخار وتصف على رفوف المكتبات . ولو تسنى لأحد أن يمسك بيده بعض هذه الأواني ويفتحها ويفحص ما فيها ، فإنه لا يرى فيها فقط ما يثبت فرضي المجتمع وآلام الفقراء والضعفاء ولكنه يرى بينها أيضا أقدم كتب القصص في تاريخ العالم ، مثل قصة أسفار ومغامرات « سنوهي » ، فهي قصة مصرية في آسيا شبيهة بمغامرات « أوديسيوس » ، في الأدب اليوناني ، أو قصة البحار الغريق الذي غرقت سفينته عند باب ذلك المحيط المجهول الذي يبدأ بعد نهاية البحر الأحمر . وفي هذه القصة نقرأ مغامرات بطل من أبطال البحر نرى فيها صورة سالفة لقصة « السندباد البحري » . ومن بين تلك الكتب أيضاً قصص عجائب قام بها حكماء وسحرة في أعمال تشبه ما قام به النبي « موسى » ، ورجال فرعون بعد ذلك بأكثر من ألف وخمسمائة عام .

ولو أننا قارنا تطور الحضارة في عصر الفترة الأولى بما كان عليه الحال في عصر الأهرام لوجدنا كثيرا من التغييرات الأساسية ، فقد كان من مميزات عصر بناء الأهرام الازدهار المعجز الجبار في البناء وفي الفنون ، كما امتاز أيضاً بجعل الأخلاق أساسا يقوم عليه صرح الحياة الإنسانية ، فلما جاء عصر الفترة الأولى حاول المفكرون الاجتماعيون أن يقيموا فوق الأساس القديم بناء آخر ، فرأوا أن الضمير لا يُصلح الأخلاق فحسب ، بل أنه قادر على أن يجعل من الأخلاق قوة اجتماعية ، وكان لهذا التقدم في التفكير أثر كبير على الديانة . لقد نظر الناس إلى آلهتهم في



شكل ٤٠ : صفحة من قصة الملاح الفریق ، وهى الاصل القديم انذى اقتبست منه قصة السندباد البحرى . وكان أمثال هذه القصة مما يقرأه الصبية والفتيات فى مصر قبل أربعة آلاف سنة (هذا الرسم ثلث الحجم الطبيعى)

نقرأ فى هذه الصفحة ما يأتى : « وهلك كل من كان على ظهر السفينة ولم ينج منهم أحد ، ورمتنى موجة من موجات البحر الى جزيرة حيث ظللت ثلاثة ايام وحيدا لا مؤنس لى الا قلبى ، انام وسط ماوى من فروع الاشجار حتى يغمرنى ضوء النهار . وزحفت بعد ذلك باحثا عما أسد به رمقى فوجدت هناك التين والعنب وأنواع الخضروات المختلفة ويستمر نص هذه القصة فيذكر كيف وقع هذا البحار فى قبضة حية هائلة الحجم لها لحية طويلة اتضح له أنها كانت ملكا على تلك الجزيرة النائية فى البحر الاحمر عند مدخل المحيط الهندى . وأبقت الحية ذلك البحار ثلاثة شهور كاملة أحسنت فيها معاملته ، ثم عاد البحار بعد ذلك الى مصر محملا بالهدايا ، ويقص البحار أن الجزيرة اختفت بعد ذلك فى جوف الماء .

وكانت أمثال هذه القصص تكتب على صفحة طويلة واحدة من البردى يبلغ عرضها بين اثنى عشر أو ثلاثين سنتيمترا . وطولها يتراوح بين أربعة أمتار وثلاثين مترا . وكانت تلف هذه الاوراق بعد الانتهاء من قراءتها وهكذا كانت أقدم الكتب فى العالم على هيئة ملفات اسطوانية مثل الشهادات الجامعية اذا كانت صغيرة الحجم أو مثل ملفات الاوراق التى تستعمل لتغطية الجدران اذا كانت كبيرة .

عصر الفترة الأولى على أنهم أكثر من حاكين مسيطرين على دنيا الطبيعة ومسيرين للشمس والقمر أو الأرض والماء . وبدأ المصريون في ذلك العهد يعتقدون أن آلهتهم كانوا أيضا كائنات عليا في دولة فيها حق وفيها باطل ، وأن كل إنسان كان مسئولاً أمامهم عن تصرفاته ، وأن روح كل إنسان ستسأل في الحياة الأخرى عما فعلته في الحياة الدنيا .

وهنا نرى للمرة الأولى في حياة الإنسان أنه بدأ يترك الصراع مع القوى الطبيعية والمادية ، وأخذ يرتفع بنفسه ويتقدم نحو مثل خلقية عالية ، وكان هذا التقدم أهم وأعظم ما وصل إليه الإنسان في حياته ، وكان الأساس الذي مهد لأشياء أساسية في حضارته مثل معرفته استعمال النار أو استخدام المعادن .

ومن بين هذه الآثار الأدبية قصة « أوزيريس » التي سطرت على الأرجح في عدة ملفات ، وكانت مسرحية دينية صوروا فيها حياة « أوزيريس » ثم موته وبعد ذلك دفنه ثم بعثه . وكانت هذه المسرحية تمثل أثناء عيد يقام كل سنة . وكان الناس يقبلون عليها اقبالا كبيرا ويقومون بدور فيها ، وهذه المسرحية هي أقدم ما عرفه العالم عن التمثيل الديني ، وكان تمثيلها يستغرق بضعة أيام .

وبما كشفت عنه حفائر الآثار قطع من بردية كتبت فيها مسرحية من النوع الذي يحتاج أدائه إلى تسيير المواكب ، ونجد فيها اجزاء من أحاديث بين شخصين وفيها توجيهات المخرج وفيها بعض المناظر ، ويرجع تاريخ هذه البردية إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر قبل الميلاد ، ويمكننا أن نقول عنها أنها ربما كانت أقدم كتاب مصور في العالم .

ومن بين ما وصل إلينا من هذه البرديات ، ملفات تحوى أغنيات وقصائد شعرية مثل ذلك النشيد الجميل الذي كان يغنيه رجال البلاط يحيون به الملك في كل صباح ، وكان هناك نشيد آخر في مدح الملك يغنيه فريقان يرد أحدهما على الآخر

في أيام الاحتفالات الكبرى في البلاط ، وهذا النشيد مكتوب في سطور متماثلة تشبه مثيلاتها في المزامير عندما كتبت باللغة العبرية ، وهي أقدم ما وصل إلينا من أنواع الشعر .

ومما يدعو إلى الدهشة أن كثيرا من هذه القراطيس البردية التي كتبها المصريون في ذلك العهد البعيد بينها بعض ملفات في مبادئ العلوم ، وأهم هذه البرديات ، بردية « إدوين سميث » ، « Edwin Smith Papyrus » وهي نسخة نقلها كاتب في القرن السابع عشر قبل الميلاد عن نسخة أقدم منها ، وهي بلا نزاع أقدم مؤلف صحيح ، لآتنا نقرأ فيه لأول مرة كيف يحاول العقل الانساني أن يميز الحقائق ويسجلها ثم يستخلص منها النتائج على ضوء الحقائق التي لاحظها ، فهي دراسة عن الجراحة وعن الطب الظاهري تبدأ من أعلى الرأس ثم تتناول الجسم جزءاً جزءاً ، ولكن لسوء الحظ لم تصل إلينا هذه البردية كاملة . وينتهي الجزء الذي لدينا عند الحالات التي تتناول الصدر وأعلى السلسلة الفقرية . وللرة الأولى في تاريخ العالم نقرأ بعض الملاحظات عن مخ الإنسان ، بل أن كلمة « مخ » ، تظهر في هذه البردية لأول مرة في مخطوط . ويمكن ذلك الجراح المصري الذي ألف هذه الوثيقة من معرفة أن المخ هو الذي يتحكم في أعصاب الأعضاء المختلفة ، وأوضح لنا نوعا من التحقيق العلى عن وظيفة المخ لم يصل اليه الباحثون إلا منذ عهد قريب . واكتشف ذلك الطبيب أيضا أن القلب هو القوة المحركة للنظام في الجسم ، وهو في الوقت ذاته مركز هذا النظام ، ولكن هذا الاكتشاف لايعنى أن ذلك الطبيب عرف أسرار الدورة الدموية . ومما يدهشنا أيضا أنه ورد للرة الأولى في مؤلفات الطب ذكر الخياطة الجراحية في تلك البردية .

وهناك ملفات فيها قواعد الحساب قائمة على الأساس العشري الذي مازلنا نستعمله في حياتنا الآن . فيها مبادئ الجبر والهندسة ، ونحن لانملك أنفسنا من الإعجاب

عندما نقرأ في أمثال تلك البرديات الشيء الكثير عن هندسة المسطحات؛ ونرى كيف عرف هؤلاء الرياضيون الأوائل قواعد لحساب مساحة المثلث على وجه دقيق أو المربع المنحرف أو الدائرة التي حسبوها على أنها تربع ثمانية أضع القطر. وعرفوا أيضا قيمة النسبة التقريبية (ط - II) وهي في حسابهم ١٦٠٥ ر ٣، وهي نتيجة قريبة إلى حد مدهش من قيمتها الصحيحة. فإذا ما وصلنا إلى هندسة المجسمات نرى في تلك البرديات الرياضية طرق حساب عدد كيلات الجيوب التي توضع في صومعات غلال اسطوانية تختلف ارتفاعاتها وأحجامها، وشرحوا أيضا كيف يحسب الإنسان كتلة هرم مربع الأضلاع، علما بأن طريقة حل هذه المسألة لم تعرفها أوروبا إلا بعد ذلك التاريخ بثلاثة آلاف عام، وكان الناس قد نسوا طريقة قدماء المصريين حتى ظهرت أخيراً ترجمة إحدى البرديات فكشفت عنها.

وتمكن المصريون أيضا من عمل أرضاد للأجرام السماوية بآلات بسيطة، ولكن هذه المدونات لم تصل إلى أيدينا مثلها في ذلك مثل المدونات الجغرافية. ومع هذا فإننا نعرف أنهم عرفوا كيف يميزون بين الكواكب وبين النجوم الثوابت ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة نظام سير الكواكب في السماء، وليست أشكال الأبراج الاثني عشر في الدائرة الفلكية مصرية الأصل.

حكام مصر في عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى

يرجع الفضل في تقدم الآداب والعلوم في عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى إلى الحياة الرغدة المتنوعة التي عاشها الناس في ذلك الحين، كما يرجع الفضل فيما حرزته البلاد من تقدم اقتصادي إلى أسرة الملك امنمحات التي قامت بأعمال رفعت كثيراً من مقدر مصر في الإنتاج إلى حد لم تعرفه من قبل . فقد أقام ملوك هذه الأسرة جسوراً عظيمة وبنوا خزانات كبيرة ليملاؤها بمياه النيل ثم يستعملوها بعد ذلك في شئون الري ، ولذلك زاد دخل الأراضي وعم الرخاء .

واهتم هؤلاء الملوك بتسجيل ما وصل إليه النيل في فيضانه من ارتفاع ، ونقشوا علامات تدل على ذلك المستوى من عام إلى عام على الصخور في منطقة الشلال الثاني أي أن المصريين كانوا يفعلون قبل أربعة آلاف سنة ما لم تفكر حكوماتنا المتعاقبة في عمله إلا منذ وقت قريب عندما قامت هذه الحكومات بعمل مشاريع للري لاستصلاح الأراضي غير المنزرعة .

وأظهر ملوك ذلك العهد همة وقوة في تنظيم الحكومة لأن ذلك كان ضرورياً للحد من سلطة حكام الاقاليم و إخضاعهم لنفوذ الملوك .

وأعدوا كشوف التعداد للمساعدة في جباية الضرائب ، وقد اُبقت الأيام على بعض هذه الكشوف فوصلت سالمة إلى أيدي علماء الآثار ، وكان من بين أعمال الملوك في عهد الدولة الوسطى أنهم بدأوا تنظيم جيش صغير دائم ، وربما كانت هذه هي المرة الأولى لوجود جنود محترفين في تاريخ مصر ، وكان على هؤلاء الجنود حراسة القصر والحصون التي أنشأها الملوك من بلاد النوبة حتى حدود مصر الآسيوية .

ولعب هذا الجيش دورا هاما في الحروب . وكان الملك يعتمد أيضاً على الجنود الذين يرسلهم له حكام الأقاليم ليكونوا تحت تصرفه عند إرساله الحملات للقيام بأعمال حرية سواء في الشمال أو في الجنوب . فقد أغرم أمنمحات الأول ومن خلفه من الملوك بإرسال مثل هذه الحملات الحربية . وكان من نتيجتها أن وصلت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثاني ، أى أنهم أضافوا أكثر من ثلاثمائة كيلو متر من نهر النيل إلى بلادهم ، وبنوا كثيراً من الحصون الحربية في تلك المنطقة لحماية البلاد من خطر القبائل النوبية ، وما زلنا نرى بقايا تلك الحصون القوية ، وكثيرا ما بعث هؤلاء الملوك بغزوات إلى سوريا وفلسطين ، وإن كان هناك شك في أن الآسيويين الذين كانوا يعيشون في مدن الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط لم يخضعوا للحكم المصري ، فإنه من المؤكد أن هذه البلاد كانت داخلة في دائرة نفوذ مصر ، ويدل على ذلك وجود أسماء ملوك هذه الاسرة مرات كثيرة على الآثار التي ظهرت في الحفائر في البلاد المختلفة الواقعة على هذا الشاطئ .



شكل ٤١ : تاج مصرى

وسادة عليها تاج من الذهب كان موضوعا على رأس أميرة من أميرات الاسرة الثانية عشر ، وعثر عليه كما وضع يوم دفنها قبل أربعة آلاف سنة . وهذا التاج على شكل باقة مستديرة من الزهور المرسومة على شكل نجوم من الذهب ومرصعة بأحجار زاهية اللون غالبية القيمة . وهذا التاج يعتبر من أجمل ما قام بصنعه الصائغ والجوهرى فى العهد الفرعونى .

وبذل ملوك ذلك العهد مجهوداً كبيراً لإنماء ثروة البلاد، فحفر واقناة بدأت عند الطريق الشمالى للبحر الأحمر متجهة غرباً الى أن وصلت إلى أقرب فرع من فروع النيل فى شرق الدلتا ، وبذلك تيسر للسفن المصرية فى البحر الأبيض المتوسط أن تدخل هذا الفرع الشرقى من فروع النيل فى الدلتا إلى أن تصل إلى تلك القناة ثم تيسر فيها متجهة نحو الشرق حتى تدخل البحر الأحمر ، وبعبارة أخرى فإن هذه القناة وصلت البحرين الأحمر والأبيض قبل أن تظهر قناة السويس إلى عالم الوجود بأربعة آلاف سنة .

وكان وصل هذين البحرين وإنشاء تلك القناة هاماً لمصر مثل أهمية قناة بناما للولايات المتحدة الأمريكية ، ومكن الأسطول المصرى القديم من أن يسافر إلى بلاد بعيدة ، فكان يصل إلى جزر بحر إيجة وإلى سوريا فى الشمال ، وإلى بلاد الصومال ومدخل المحيط الهندى فى الجنوب حيث كانت تلك السفن تذهب إلى بلاد يونت . وتراءت تلك البلاد النائية للبحارة المصريين كأنها آخر أطراف الأرض ، وكانت قصصهم التى شخنوها بأخبار مخاطرهم مبعث عجب من كانوا يستمعون اليهم بعد عودتهم .

ومهد حكم عائلة أمنمحات لمصر أن تنبأ مكان الصدارة فى العالم القديم ، ولكن لم يمض على عام ١٨٠٠ ق.م. إلا وقت قصير حتى تضاعف نفوذ الملوك فجأة وجاءت النهاية المحزنة على يد غزاة أجنب . هؤلاء الغزاة هم الهكسوس الذين جاءوا من آسيا فاحتلوا مصر وقضوا على استقلالها .

تأسيس الإمبراطورية

استمرت سيادة الهكسوس في مصر ما يقرب من مائة سنة ، ومن المحتمل أن بعض الأمراء المصريين كانوا يحكمون أقاليمهم في بعض الجهات ولكنهم كانوا دون شك خاضعين لملوك الهكسوس . وفي أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد ثار أمير طيبة على هؤلاء الأجانب وانتهى الأمر بإخراجهم من البلاد . وأعاد قاهر الهكسوس تنظيم الحكومة وجعل طيبة عاصمة الملك ، في المكان الذي تقوم فيه الآن مدينة الأقصر ، ولهذا فإن الباحث عن تاريخ الإمبراطورية المصرية يحصل على ما يريده عند دراسته لما بقي من آثار ذلك العهد المجيد هناك في تاريخ مصر (١) .

وآثار الأقصر غنية جداً بنقوشها وما على جدرانها من مناظر مرسومة ، وأمامها في الناحية الغربية من النيل مئات المقابر نحتت في جوانب الصخر ودفن فيها ذوو النفوذ ممن عاشوا في عصر الإمبراطورية وتركوا على جدران هياكلها فصولاً كاملة لتاريخ البلاد وحضارتها ، وعلى جدران المعابد الفخمة في الناحيتين

١ - يقسم المؤلف تاريخ مصر الى ثلاثة عصور اولها عصر الاهرام وفي رايه الاصل انه يبدأ من القرن الثلاثين ق.م. حتى القرن الخامس والعشرين، وثانيها العصر الانتعاشي ويصل الى أوج ازدهاره حوالى ٢٠٠٠ ق.م. وثالثها عصر الإمبراطورية من ١٥٨٠ - ١١٥٠ ق.م. ولكن الناحية العظمى من علماء الآثار تفضل أن تبدأ عصر بناء الاهرام - أى الاسرة الثالثة فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد. ونقسم التاريخ المصرى الى ست عصور وهى :

١ - العصر العتيق (الاسرتين الاولى والثانية)

٢ - ثم الدولة القديمة

٣ - عصر الفترة الاولى

٤ - الدولة الوسطى (وتبدأ حوالى سنة ٢١٠٠ ق.م. بالاسرة الحادية عشر)

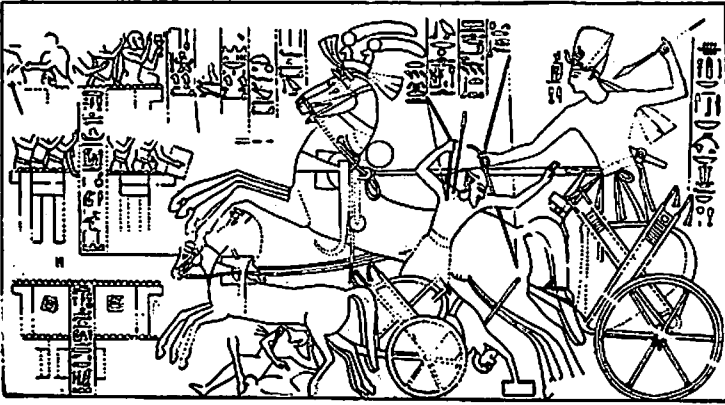
٥ - عصر الفترة الثانية

٦ - وأخيراً الدولة الحديثة من الاسرة الثامنة عشر حتى نهاية الاسرة العشرين

أما باقى الاسرات أى من الواحدة والعشرين حتى نهاية الاسرة الثلاثين فانها تسمى باسماء أخرى .

(المغرب)

الشرقية والغربية من النيل نرى المناظر التي تمثل مواكب المجد في ذلك العصر .
ونرى فيها مناظر المعارك الحربية التي خاض غمارها ملوك مصر المحاربون .
ويستلفت أنظارنا الملوك وقد رسموا بحجم كبير يقودون عرباتهم الحربية وقد
تفرق أعداؤهم مذعورين أمام جياد عرباتهم . وكان الجواد جديداً على مصر ولم
يره أحد من عاشوا في عصر الأهرام أو في الدولة الوسطى ، ولكن بعد انتهاء تلك
الفترة بدأ المصريون يستوردون الخيل من غرب آسيا حيث عرفها الناس هناك
قبل ذلك الوقت بنحو خمسمائة عام على الأقل . وعرف المصريون أيضاً العربات .
وعندما أتقن أهلها فنون الحرب على نطاق واسع بعد طردهم للكسوس ، بدأوا
عهداً جديداً في تاريخهم فسيروا الجيوش وكونوا إمبراطورية كبيرة .



شكل ٤٢ : أحد ملوك الإمبراطورية فوق عربته الحربية

الملك رمسيس الثاني بعد انتصاره على الآسيويين الذين كانوا في الحصنين
الذين على يسار الصورة . وكان الآسيويون يطلقون لحاهم كما نراهم في الصورة .
وإذا فحصنا رسم الملك نراه قد ربط أعنة الخيل في وسطه لتبقى يديه طليقتين
وقد أمسك باحدى يديه زعيماً آسيوياً كان يركب عربته ورفع حربته القصيرة في
يده اليمنى ليضعه . وهذا الرسم جزء من سلسلة مناظر طولها نحو ٥٢ متراً
مرسومة على الحائط الخارجي للبهو الكبير في معبد الكرنك - وكانت هذه المناظر
منقوشة على الحجر وملونة بألوان زاهية أعطت للبناء روعة وجمالاً وكان لها في
الوقت نفسه الأثر المطلوب في نفوس من يراها من الشعب ، فيعرفون بطولة ملكهم
ولم يبق للون أثر في أكثر هذه المناظر كما تأثرت الرسوم نفسها وتهدمت أجزاء
كثيرة منها .

وأصبح الفراعنة قواداً لجيوشهم التي أحسنوا تنظيمها وخاصة فرق الرماة بالقوس والسهم و فرق العربات . ولأزمهم النصر فكونوا أمباطورية امتدت من شاطيء الفرات في آسيا إلى الشلال الرابع في أفريقيا .

وكانت الأمم في العصور القديمة تبدأ في جمع المدن والأمارات الصغيرة لتكون منها مملكة واحدة توحد إدارتها ، ولكن التطور الجديد في حياة البشرية جعل هذه الشعوب المختلفة تتجمع في امباطورية واحدة ضمت جزءاً كبيراً من الشرق الأدنى القديم ، وظلت هذه الامباطورية من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد أى أكثر من أربعائة سنة .

وكان معبد الكرنك أعظم مباني طيبة ، وقد زاد في مبانيه الملوك الذين حكموا في الأسرات المختلفة حتى أصبح سجلاً جامعاً تقرأ فيه تطور الامباطورية في تاريخها وفيها ودينها . ويرى الزائر وهو الأعمدة الكبير ويرى خلفه مسلة عظيمة من حجر الجرانيت من قطعة واحدة ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً أقامتها الملكة حتشبسوت أول امرأة عظيمة في تاريخ العالم ، وكانت هذه المسلة واحدة من اثنتين أحضرهما معاريو هذه الملكة من صنخور الشلال الأول ، وكان قطعها ونقلها ووضعها في مكانها عملاً مجيداً . لم تكن الملكة حتشبسوت محبة للحرب ، ولم تخرج على رأس الجيش ، ولكنها وجهت عنايتها لإقامة المباني العظيمة وتوسيع نطاق التجارة الخارجية . فإن هذه الملكة كانت في حاجة إلى بعض أشياء كالية لمعابدها ومقبرتها فأرسلت حملة إلى بلاد بونت ^(١) سجلت مناظرها على أحد جدران معبدها الفخم الذي ينتهى في الناحية الغربية من النيل حيث عثرت بعثة متحف المتروبوليتان في نيويورك عندما كانت قائمة بحفائرها لتنظيف هذا المعبد على كثير من بقايا رسوماها

١ - لم تكن بلاد بونت قاصرة على الشاطيء الإفريقي أى في مكان بلاد الصومال فقط بل كانت تطلق على الشاطيء الإسيوى أيضاً وكانت بلاد بونت تشمل المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب فرتاحيته أى الصومال وجنوب الجزيرة العربية . (المغرب)

وتماثلها على طول الطريق الموصل إلى الهيكل ، كما عثرت أيضاً على معالم البرك التي كانت في الصالة السفلى في المعبد ، ولكن هذه الأشياء التي ساعدتنا على فهم تاريخ تلك الملكة ومعرفة أعمالها أتنازغنا عن معاصريها الذين أرادوا حو ذكراها من الوجود ، ولكن الأحجار الصامته في معبد الكرنك لم تلزم صمتها إلى الأبد بل حدثتنا عن كثير من الأسرار وكشفت لنا نقوشها التي أرادوا إخفاءها عن كثير من أعمالها لأن أعداءها أقاموا مبنى حول قاعدة هذه المسلة ليخفوا نقوشها عن الناس . أراد تحوتمس الثالث بعد أن تولى العرش أن يحو تلك الذكرى التي كان يكرها ففنن على آثارها حرباً وأصدر أمره إلى العمال ليذهبوا إلى معبدها في غرب طيبة ليحطموا أكثر من مائة تمثال لتلك الملكة أقامتها فيه لتجليله ، كما خطموا أيضاً إسمها أينما عثروا عليه وحطموا أسماء جميع من عاونوها من الرجال ومن بينهم



شكل ٤٣ : جزء من أسطول الملكة حتشبسوت في بلاد بونت

كان أسطول الملكة حتشبسوت إلى بلاد مونت مكوناً من خمس مراكب نرى في هذا الرسم اثنين منها وقد رسا الأسطول على الشاطئ وطويت القلوع وأخذ الملاحون بعد أن مدوا « السقالات » يحملون البضائع لشحنها وأخذ بعض هؤلاء الملاحين يعاكس قرداً جلس على ظهر المركب . وتحدثت النقوش قائلة « تم تجميل المراكب بجميع الأشياء الجميلة في بلاد بونت والأخشاب العطرية من أرض الآله (أي بلاد العرب) وأكوام من البخور الجاف ، وأشجار البخور ، وكذلك البنوس والعاج وذهب بلاد «امو» الأخضر ، وخشب القسرة ، وخشب الخسيت ، ونوعين من أنواع البخور ، والكحل ، والقروود والنسانيس والكلاب وجلود الفهد الجنوبي وكذلك بعض الآهالي وأطفالهم . ولم يحدث أن جرى إلى ملك من الملوك بمثل هذه الأشياء منذ بدء الخليقة » . وهذا المنظر منقوش على أحد جدران معبد هذه الملكة في طيبة .

ذلك المهندس الذي أقام مسلاتي الكرنك ، ولكن الجدران التي بناها رجال تحوتس الثالث حول قاعدتي المسلتين تهدمتا الآن وأصبح في استطاعتنا أن نقرأ النقش المسطر عليها وعرفنا منه الكثير عن أعمال حتشبسوت .

وإذا رأى بعض الناس فيما فعله الملك تحوتس الثالث أمرا كان يحسن تجنبيه فإن ذلك لا يؤثر قليلا أو كثيرا في الحقيقة المعروفة وهي أنه أول قائد حربي عظيم في التاريخ وأنه أعظم ملوك مصر المحاربين ، ولهذا نسميه نابليون مصر ، فحكم أكثر من خمسين عاما منذ حوالي عام ١٥٠٠ ق.م - (عام ١٤٤٧ ق.م) ونقرأ على أحد جدران معبد الكرنك أخبار حروبه في مدى عشرين عاما حطم خلالها مدنا وبممالك في غرب آسيا ثم كون منها أمبرطورية ثابتة الأركان . وبنى تحوتس الثالث أول أسطول حربي كبير مكنه من بسط نفوذه على بحر إيجة .

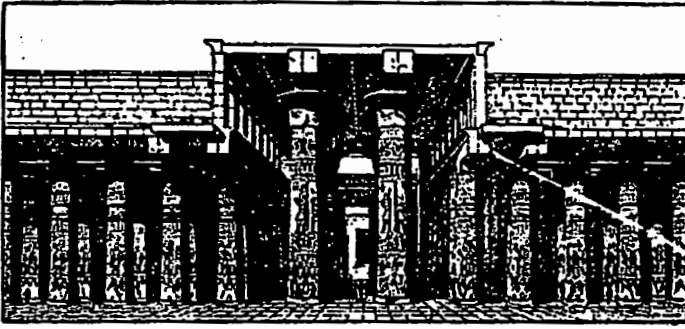
وجاء بعده ملوك فاتحون آخرون ولم تبدأ قوتهم في الانحلال إلا بعد مضي رون من الزمان على وفاته .



شكل ٤٤ : تمثال للملك تحوتس الثالث نابليون مصر ومقارنته بموميائه نرى في أ تمثالا من الجرانيت لذلك الفاتح العظيم ويمكننا أن نقارن ملامح وجهه بموميائه . ونرى في الخطوط الجانبية للآنتين في ب أن التشابه تام وأن الفنان المصري القديم أجاد في النحت أجادة تامة في ذلك العصر

هياة الرفاهية في أيام الامبراطورية

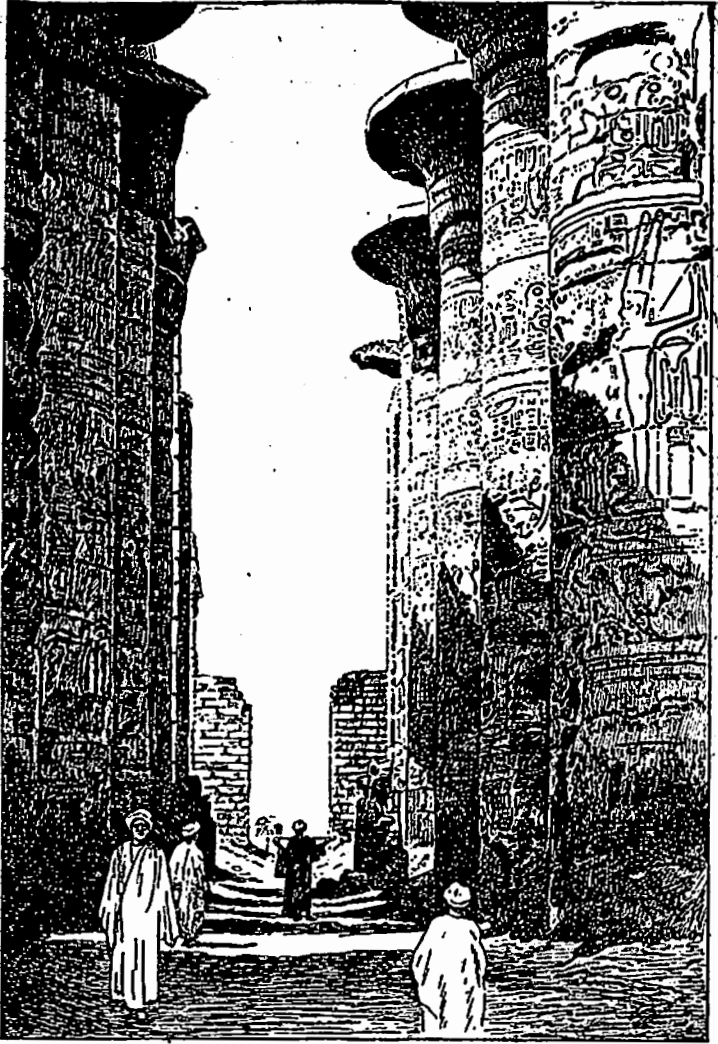
تدفقت الأموال على مصر آتية من آسيا ومن بلاد النوبة فساعدت هذه الثروة على وجود عهد يمتاز بالفخامة والقوة لم تعرف الدنيا له شبيها من قبل ، ووضح أثر هذا العهد وبخاصة فيما تركه من مبان فخمة رجة . فزرى مثلا في معبد الكرنك القاعة الكبرى المعروفة باسم هو الاعمدة ، فهي أعظم ما أقامه الانسان ، وارتفاع الاعمدة التي في الجزء الأوسط منه ٦٩ قدما ويستطيع مائة شخص أن يقفوا مجتمعين فوق تاج أى عامود منها . وتطورت نوافذ الضوء بعد أن كانت فتحات ضيقة في عصر الاهرام فقد أصبحت الآن نوافذ مرتفعة جميلة الشكل ، نرى فيها الأصل الذى أخذ عنه مهندسو الكنائس طراز البازيليكافيا بعد .



شكل ٤٥ : القاعة الكبرى في الكرنك كما كانت عند تشييدها ، وهي

أفخم بناء أقيم في عصر الامبراطورية

ليست هذه القاعة الا حجرة واحدة في المعبد ويبلغ طولها ٣٣٨. قدما وعرضها ١٧٠ قدما أى أن مساحتها تقارب كتدراية نوتردام في باريس وعدد أعمدها ١٣٤ عمودا مرتبة في ١٦ صفا وارتفاع اعمدة الجزء الأوسط ٧٩ قدما . وفي هذا الجزء صفان من اثني عشر عمودا يزيدان في ارتفاعهما عن الاعمدة الاخرى الجانبية ، وكان النور يدخل القاعة من النوافذ فوق الاعمدة الوسطى . واذا قارنا هذا النوع من النوافذ بالنوع الضيق (انظر شكل ٣٦) الذى كان يفضله المصريون في العصور السابقة لرأينا فارقا كبيرا . وقد اقتبست أوروبا هذا النوع المرتفع واستعملته في مبانيها .



شكل ٤٦ : الأعمدة الضخمة في الجزء الأوسط من بهو الأعمدة في معبد الكرنك

وكانت معابد طيبة في أيام الامبراطورية معابد فخمة تحيط بها حقول ملأى بأشجار النخيل ، وقامت أمامها المسلات وتمائيل الفراغة ، وكان كل شيء دقيق الصنع ملوناً بألوان زاهية جذابة ، وكانت بعض الأجزاء من هذه المباني مغطاة بصفائح من الذهب أو الفضة تذهل الابصار بضياءها وتنعكس صورتها في مياه بحيرة المعبد ، فإذا مادلف الزائر الى داخلها وجد نفسه في ردهة متسعة تضيئها الشمس وتحيط بجوانبها البواكى المقامة فوق الأعمدة ، ولكن هذا الزائر العادى لا يستطيع أن يتقدم أكثر من ذلك . انه يلقي ببصره الى الأمام فيرى أبهاء أخرى ولكن تلك المباني كانت بالنسبة إليه مليئة بالأسرار .

وكانت هناك معابد مختلفة توصل بينها طرقات طويلة صفت على جوانبها تماثيل من الحجر من الطراز المعروف باسم « ابو الهول » ، وكانت هذه المباني وطرقاتها مجموعة عظيمة جعلت من طيبة مدينة تعد من أعظم مدن (١) العالم القديم ، وكسبت لها صيتاً بعيداً بأنها أعظم المدن وأكبرها ، وأعظم المدن التي بناها الانسان وكانت مقامة على نظام متجانس جعلها كلها كأنها مبنى واحد فخم واسع الأرجاء .

ويعود الفضل الأكبر في تقدم العمارة المصرية الى كل من المثال والرسم فقد لونوا الأعمدة ذات التيجان الزهرية بألوان تماثل ألوان النباتات الأصلية ، كما لون الرسامون مناظر الحرب بألوان زاهية براقه ، وقامت تماثيل الملوك أمام المعابد ، وكان بعضها عظيم الحجم الى درجة تفوق ارتفاع صرح المعبد نفسه ، وكان يراها الناس من مسافة أميال ، وكان في مقدره المثالين أن يصنعوا مثل هذه التماثيل الضخمة من قطعة واحدة من الحجر بالرغم من أن ارتفاعها ثمانون أو تسعون قدماً ، ووصل وزن بعضها الى ألف طن . وفي محاجر أسوان مسلة لم ينته العمل منها

١ - عرفت أوروبا فنون تخطيط المدن وتنظيمها على انها وحدة متجانسة متوازنة ولكن ذلك لم ينتشر في أمريكا بعد ، ولم يبدأ فيها هذا النوع الا من عهد قريب

وتركت ملقاة في مكانها ، يبلغ ارتفاعها مائة وسبعة وثلاثين قدماً ، ولو قدر لها أن تستخرج من مكانها لبلغ وزنها أكثر من ١١٠٠ طن . وقد استطاع مهندسو العصر الإمبراطوري نقل كثير من أمثال هذه الأحمال الثقيلة إلى مسافة تبعد مئات الأميال من أماكنها دون أى قوة غير القوة الإنسانية . ونرى في أمثال هذه الأعمال ما أحرزه قدماء المصريين من التفوق العظيم وفاقوا بذلك غيرهم من الشعوب .



شكل ٤٧ : نقل مسلتي حنشبسوت على السفن في النيل - وكانت كل منهما تزن ٣٥٠ طناً

نقلوا هاتين المسلتين في سفينة نيلية طولها ٣٠٠ قدم ووضعوها بحيث تتلامس القاعدتان . وطول كل مسلة ٩٧ر٥ قدم ووزن المسلتين ٧٠٠ طن وكان يجر هذه السفينة ثلاثون زورقا ، وفي كل واحد منها اثنان وثلاثون بحارا يستعملون المجاديف أى أن العدد الذى لزم لتسيير سفينة المسلات كان ٩٦٠ بحارا . وقد أشرف المهندسون على نقل هاتين المسلتين من معاجر أسوان عند الشلال الاول ثم أشرفوا على نقلهما في النيل حتى وصلت طيبة التى تبعد ١٥٠ ميلا عن أسوان

ونرى في الرسم أنهم وضعوا كل مسلة فوق زحافة ليسهل جرها كما هي الى المكان الذى أقيمت فيه في معبد الكرنك والشكل المنشور في هذا الرسم أخذ حسب المنظور الحديث عن رسم مصرى قديم على أحد جدران معبد هذه الملكة في طيبة

ويقوم في طيبة على الشاطئ الغربى للنيل تماثلان كبيران للملك أمنحوتب الثالث أعظم الأباطرة المصريين حباً للترف والنفخامة ، ونرى خلفهما الجبل الذى نحتوا في جوانبه مئات الهياكل لمقابر ذوى الأهمية من رجال الامبراطورية .

وهنا يرقد كبار القواد الذين راقفوا الملوك في حروبهم في آسيا وفى بلاد النوبة

وهنا دفنوا أيضاً المهندسين المعماريين والفنانين الموهوبين الذين أقاموا المباني التي أمرنا اليها وجعلوا من طيبة أفخم المدن في العالم القديم .

وعلى جدران هذه المقابر نقرأ أسماء هؤلاء العظماء ، وفي بعض الأحيان نقرأ أيضاً كثيراً مما حدث لهم في حياتهم ، فمثلاً نقرأ في إحدى المقابر قصة أحد القواد الذي أنقذ حياة الملك تحوتمس الثالث أثناء صيده للفيلة في آسيا . فقد أسرع هذا القائد في اللحظة المناسبة فضرب بسيفه خرطوم فيل هائج كان يطارده الملك .

وكان هنا في طيبة قبر القائد الذي استولى على مدينة يافا في فلسطين وذلك باخفاء جنوده في غرائر وضعها على ظهور الخمر وأدخلها إلى المدينة كبضائع للتجارة ، وهي إحدى المخاطرات التي كونت فيما بعد جزءاً من قصة ، على بابا والأربعون لصاً .

ولم يعثر الآثريون على مقبرة هذا القائد بعد ، ولكن طبقاً ذهبياً يحمل اسمه يوجد الآن في متحف اللوفر بباريس . ومن المرجح انه كان في تلك المقبرة ، لأن مقابر المصريين الذين عاشوا في تلك الأيام كانت تملأ بالكثير من أدوات المنزل يضعها أقارب الميت الغني بعد وفاته ، فنجد في هذه المقابر الأثاث المنزلي والملابس والطعام الذي يحتاج اليه في العالم الآخر ، حتى الآلة التي كان يستعملها في قياس الوقت لم ينسوا أن يضعوها معه .

أما الملوك فكانوا يعدون أنفسهم بكل ما يساعدهم على أن يحيوا حياة رغدة مترفة بعد الموت . وأفخم ما وجدناه من الأثاث الجنائزي في مقابر الملوك هو محتويات مقبرة الملك توت عنخ آمون أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر . وتمدنا مقابر الامبراطورية بأشياء أكثر من تلك الأدوات التي كانوا يستعملونها أثناء الحياة . فإنا إذا درسنا النقوش والنصوص التي تعطي جدران مقابر جبانة طيبة نرى التقدم الكبير الذي أحرزه قدماء المصريين في الآراء الدينية بعد عصر الأهرام .



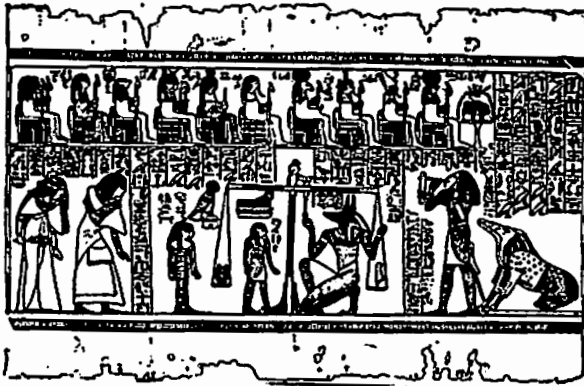
شكل ٤٨ : أقدم الساعات في العالم - مزولة مصرية

ساعدت شمس مصر الصافية على جعل المزولة آلة سهلة الاستعمال ففي الصباح كانوا يدعون القائم (١-١) في ناحية الشرق يسقط ظل على القاعدة (ب-ب) في المكان الذي نرى فيه علامة الساعة الأولى - وكلما ارتفعت الشمس كلما أصبح الظل أقصر ، ونرى بعد ذلك علامات الساعة الثانية حتى الساعة السادسة فيكون الوقت قد أصبح ظهرا ، وعند ذلك تدار هذه الآلة لتصبح ناحية القائم (١-١) ناحية الغرب حتى يقاس ظل شمس بعد الظهر بالطريقه عينها وقد أخذت أوروبا عن المصريين تقسيم اليوم الى اثني عشر ساعة .
وتحمل هذه الساعة الشمسية اسم الملك تحوتمس الثالث أي أنها صنعت منذ ثلاثة الاف وأربعمائة سنة . وبعد عهد تحوتمس الثالث بما يقرب من الف سنة اقتبس اليونانيون هذا النوع من الساعات . والساعة المنشورة في الشكل أعلاه توجد في متحف برلين ، وقد رُم الاثرى بورخارت قائمها العلوى (١-١)

فكان كل واحد من أصحاب القبور يتوقع أن يلاقى حسابه في العالم الآخر حيث كان أوزيريس هو القاضى الأعظم والملك بين هؤلاء الموتى . وكان كل ميت يستطيع أن يحيا مرة ثانية ، ويقوم من الموت كما فعل أوزيريس ، ولكنه كان مجبرا - قبل أن يحصل على ذلك - أن يقف بين أيدي أوزيريس لتوزن روحه فيوضع قلبه في أحد كفتي ميزان ويوضع في الكفة الأخرى رمز الحق والعدل على شكل ريشة .

وكان أصدقاء الميت وأهله يضعون في التابوت الذى يحوى جثته ملفا من البردى يحوى أدعية وتعاويد سحرية كان من المفروض أن تعينه في حياته التى سيحياها بعد الموت ، ونحن نطلق الآن على أمثال تلك الملفات «كتاب الموتى» وكان هذا «الكتاب» في أكثر الحالات حاويا لمناظر تمثل بعض ماسيراه أو سيلاقيه الميت في الحياة الأخرى ، ومن أهم تلك المناظر صورة المحاكمة في قاعة الحق أمام الإله أوزيريس .

وجاء اليوم الذي تولى الملك امنحوتب الرابع عرش مصر بعد أبيه الملك امنحوتب الثالث ، وكان قد مضى على تأسيس الامبراطورية نحو مائتي سنة اتصلت فيها مصر بغيرها من البلاد واكتسبت خبرة من حكم مناطق كثيرة تقع في قارتين على شاطئيه برزخ السويس ، وهي منطقة أكبر بمراحل متعددة من وادي النيل الذي كانوا يعيشون فيه .



شكل ٤٩ : منظر المحاكمة كما وردت في أحد كتب الموتى

نرى المتوفى « أنى » وخلفه زوجته يقفان على يسار الصورة وامامهما الميزان . ونرى فى احدى الكفتين قلب الانسان يقوم بوزنه الاله انوبيس (ورأسه على هيئة رأس ابن آوى) ليعرف ان كان صاحبه صادقا او غير صادق ، والى جانبه يقف الاله تحوت وقلبه فى يده ليسجل الحكم وعلى اليمين زى العبودة البشعة التى تلتهم الارواح المذنبه .

وينحنى « أنى » احتراما وينظر الى قلبه الذى فى احدى كفتى الميزان وفى الكفة الاخرى ريشة الحق .

وفى الجزء الاعلى من الصورة نقرأ تضرعات أنى الى قلبه ان يقف الى جانبه والا يتخلى عنه ، كما نرى ايضا صفا من الالهة الذين يشهدون هذه المحاكمة : (عن بردية فى المتحف البريطانى)

كانت الامبراطورية هى السبب الذى جعل ملوك مصر يجدون أنفسهم وسط معترك دولى ، وظل آلهة مصر يشدون أزر الملوك أينما امتد نفوذ مصر كما فعلوا من قبل ، وهكذا تدرج المصريون إلى الإيمان بأن إله الشمس « رع » ، مد نفوذه

أيضاً على مصير البشر في خارج حدود مصر ، أى أنه أصبح إلهاً دولياً وليس إلهاً مصرياً فقط .

ولم يفكر أحد في ذلك العهد في أن العالم وحدة أو أن لهذا العالم كله إله واحد يسيطر عليه . ونضجت فكرة الصلة الدولية في مصر حوالى ١٤٠٠ ق . م . وسرعان ما تمت معها فكرة وحدة العالم . وللمرة الأولى في تاريخ الدنيا ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان إمبراطورى ، وتلك هى أقدم صورة في التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت إليها خبرة الشرق .

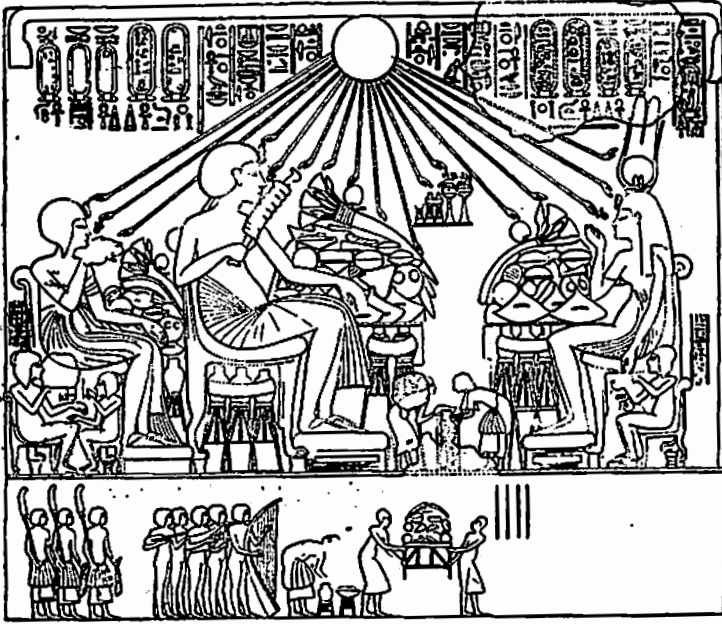
وهنا بزغ فجر جديد في تاريخ العالم عندما استطاع سكان وادى النيل أن يدركوا أنهم جزء من عالم كبير لا يمكن للإنسان أن يلم بأطرافه ، وظهر بينهم أيضاً التوحيد قروناً عديدة قبل أن يظهر في أى قطر آخر .

وفى مثل ذلك الوقت الحرج تولى الملك امنحوتب الرابع عرش البلاد حوالى عام ١٣٧٥ ق . م . وكان شاباً كثير التفكير ، شجاعاً لا يخاف ، ولكنه لم يراع الحكمة في إصراره على إجبار رعاياه على اعتناق فكرة العالمية الجديدة . حاول أن يحطم آلهة مصر القدماء ، وحاول أن يغرى الناس بعبادة إله واحد فقط هو إله الشمس ، فكان هذا العمل من جانبه حادثاً جديداً لامتثل له في التاريخ البشرى . وأصدر أمره إلى جميع شعوب الإمبراطورية بما فيها آسيا وإفريقيا ليعبدوا إلهها واحداً سماه « أتون » ، وأغلق المعابد وطرد الكهنة ليحمل الناس على نسيان دينهم القديم وأمر بمحو أسماء هؤلاء الآلهة أينما وجدوا وبخاصة في نقوش المعابد ، وكره الشرك فأمر أيضاً بتكسير علامة الجمع أينما وردت في أى نص يذكر جمع كلمة « إله » وكانت كراهيته شديدة بنوع خاص للإله « آمون » (١) إله طيبة في عصر الإمبراطورية .

١ - « آمون » هو النطق الصحيح لاسم هذا الإله عندما يكون وحده أو عندما يأتى فى آخر اسم يكون الإله جزءاً من تركيبه . أما إذا جاء فى أول اسم مركب مثل امنحوتب (كتبه اليونانيون امينوفيس) فان نطقه يتغير وينطق آمن . وعلى ذلك فتكون كتابته « توت عنخ آمن » خطأ ويجب أن تكتب « توت عنخ آمون » .

ووصلت به كراهيته لأمون إلى حد تغيير اسمه لأن كلمة الإله المذكورة فيه فإن معنى اسم امنحوتب هو «أمون راض» ، فغير اسمه إلى « اخناتون ، ومعناها « المفيد لأتون » .

وأخيراً ترك اخناتون مدينة طيبة الفخمة بما فيها من معابد وقصور وبنى له عاصمة جديدة في مصر الوسطى سماها « مشرق أتون ، ومكانها الآن بلدة تل العمارنة ولم يستمر الناس في سكنى تلك المدينة بعد وفاة اخناتون فهجرها بعد سنين قليلة وما زالت بقايا جدران منازلها وقصورها قائمة حتى الآن بعد أن كشف الباحثون الأثريون عنها . وقبل الحرب العالمية الأولى اكتشفت إحدى بعثات الحفر الألمانية في منزل من منازل تلك المدينة بقايا معمل أحد المثالين ، ووجدت فيه عددا كبيرا من القطع الجميلة التي أمدتنا بمعلومات جديدة مدهشة عن فن النحت في ذلك العصر . وتبع اخناتون عدد من الناس آمنوا بدينه واعتقوه وقطعوا مقابرهم في صخر الجبل القائم وراء المدينة ونقشوا جدران تلك القبور بمنظر جميلة ترينا مظاهر الحياة في تلك المدينة التي نسيها الناس . فقرأ على جدرانها الأناشيد (١) التي كتبها اخناتون نفسه في تمجيد إله الشمس وهي ترينا بساطة وجمال إيمان هذا الملك الشاب بالاله الأوحد . فقد أوصلته عقيدته الى الإيمان بأن الإله الواحد لم يخلق المخلوقات الدنيا فقط ، بل أنه خلق جميع الناس على اختلاف أجناسهم بما فيهم المصريون والأجانب . وكان « أتون ، أباً رحيمياً يحافظ على كل مخلوقاته ويغمرها برعايته ، حتى الطيور التي تعيش بين النباتات كانت تعترف برحمته قرفع أجنحتها كما يرفع الإنسان ذراعيه شكراله كما يقول النشيد . ولقد تتبعنا تطور الإنسان وتقدمه في خلال آلاف السنين ولكتنا لم نر أحداً قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات .



شكل ٥٠ : الملك اخناتون يجلس الى مائدة الغذاء مع عائلته

حرمت التقاليد القديمة على الملك أن يصور وهو يقوم بأعمال الحياة اليومية بين أفراد عائلته . ولم تكن قبل عصر العمارنة نرى الا لمحات قليلة من الحياة الرسمية ولكن في المقابر الصخرية في العمارنة نرى وجهاء الدولة يتبارون في رسم ملكهم في حياته الخاصة على جدران مقابرهم، وذلك أمر كان حدوثه مستحيلا قبل عصره . فترى مثلا في هذا الرسم الملك الشاب يجلس الى مائدة محملة بأنواع الطعام ، يمسك بيده اليمنى قطعة كبيرة من اللحم يأكل منها بشهيه بينما الملكة الى جواره وقد أمسكت بيدها دجاجة كاملة . والى جانب الملكة جلست أميرتان صغيرتان تأكلان بأيديهما كما يفعل والدهما ، وفي الناحية اليمنى من الصورة جلست أم الملك والى جانبها ابنة لها تشاركان العائلة في طعام الغذاء . ونرى في وسط الصورة أربعة من الخدم يحملون الطعام بينما اخذت فرقة موسيقى وتريه تشنف أسماعهم بأنغامها أثناء الاكل .

تدهور وسقوط الإمبراطورية المصرية

ولم يكن في استطاعة عامة الشعب في القرن الرابع عشر قبل الميلاد أن يفهموا عقيدة مثل العقيدة التي نادى بها اخناتون ، وامتلات البلاد بكهنة المعابد الساخطين على الدين الجديد كما امتلات أيضاً بجنود الجيش الذين أحسوا أنهم أصبحوا مهملين . وتآمر الكهنة سرا مع الجند ووجدوا منهم أذنا صاغية ، وبدأت الفوضى والاضطرابات تأخذ سبيلها في كل مكان ، ولم تقتصر على مصر وحدها بل وصلت أيضاً إلى ممتلكات مصر في اسيا فأخذت هذه الولايات تعد نفسها للقيام بالثورة .

وقد وقفنا على سير الأمور في آسيا من خطابات تل العمارنة ، وهي مجموعة من الخطابات يبلغ عددها أكثر من ثلاثمائة خطاب كانت مودعة في احدى مكاتب حكومة اخناتون في تل العمارنة حيث ظلت في مكانها أكثر من ثلاثة آلاف عام حتى عثر عليها بعض الأهالي عندما كانوا يحملون السباخ من خرائب تل العمارنة ليخصبوا به حقولهم .

وهذه الخطابات محررة على قوالب صغيرة من الطين باللغة البابلية والخط المسماري وأكثرها جاء إلى ملك مصر من ملوك غرب آسيا وهي في مجموعها أقدم مراسلات دولية في العالم ، ونرى فيها كيف أن هؤلاء بدأوا يفكرون في التحرر من حكم ملك مصر وكيف بدأت الإمبراطورية المصريه تتحطم وتهاوى أركانها .

فالحثيون نزلوا من آسيا الصغرى واستولوا على حدود دفرعون الشمالية في سوريا وغزا العبرانيون حدودهم الجنوبية في فلسطين آتين من الصحراء ، وكانت هذه المتاعب والاضطرابات في داخل مصر وفي خارجها على أسوأ ما يكون عندما مات اخناتون في تل العمارنة . ومهما قيل عن هذا الملك بأنه كان حليماً ويعيش على آراء مثالية

غير واقعية فليس هناك من ينكر عليه أنه كان أعظم نابغة ظهر في العالم حتى ذلك الوقت .

لم ينجب أختاتون ولدأ ذكراً ليخلفه على العرش فزوج كبرى بناته من شاب من الجاشية الملكية وأشركه معه في الملك ، ولكن هذا الشاب لم يعيش طويلا ، وعندما أدركته المنية اختار أختاتون شاباً يافعاً آخر اسمه توت عنخ أتون ، أى (صورة أتون الحية) وزوجه من ابنته الثالثة لأن ابنته الثانية قد ماتت قبل ذلك ، وفعل أختاتون مع توت عنخ أتون ما فعله مع من سبقه فأشركه معه في الملك ، فلما جاء اليوم الذى مات فيه أختاتون أصبح صهره الصغير وحده على العرش .

واستطاع كهنة أمون أن يجبروا الملك الحديث السن على ترك عاصمة أختاتون في تل العمارنة ويعود إلى طيبة مدينة أمون ويغير كلمة أتون في إسمه إلى أمون فاصبح اسمه توت عنخ أمون (أى صورة أمون الحية) . وهكذا عادت مصر إلى عبادة أمون وغيره من الآلهة واختفت ديانة أتون الجميلة اقدم ما عرفه العالم عن التوحيد ووقف المخلصون لهذه الديانة في وجه توت عنخ أمون ولكن هذا الشاب الصغير لم يلبث أن أصبح ألعبوبة في يد الرجال المجريين الذين كانوا حوله .

ومات بعد أن حكم فترة تزيد عن ست سنوات ^(١) ولم يكن عمره يزيد عن

١ - تبيل الابحاث الحديثة الى القول بأن مدة حكم توت عنخ امون لم تقل عن ٨ سنوات وانه تولى العرش عندما كان فى العاشرة من عمره ، كما يقول اكثر الباحثين بأن كلا من سنخكارع الذى تزوج كبرى بنات أختاتون ، وتوت عنخ اتون كانا اميرين من العائلة وربما كانا اخوين له من ابيه . ويقول المؤلف أن توت عنخ امون مات مقتولا ولكن لا يوجد فى الآثار المصرية اى دليل على ذلك ولم يصادف قبولا عند أحد من المستغلين بالتاريخ (العرب)

الثانية عشر إلا قليلا . وربما كان موته في هذه السن المبكرة لم يكن طبيعياً وإنما قتله الكهنة ذوو المطامع والجنود الذين حولوه . وبعد وفاته دفن توت عنخ آمون على مقربة من أسلافه العظام أجداد زوجته ، ولم يكن هناك أمير قوى في العائلة المالكة يشق طريقه إلى العرش ، ولذا زالت أيام حكام الأسرة الثامنة عشر حوالى عام ١٣٥٠ ق . م . بعد أن حكمت مائتين وثلاثين سنة ، والتي كانت أعظم البيوت المالكة في تاريخ مصر ، وتركت وراءها ذكرى عظيمة لأن ملوكها كوتونوا أول امبراطورية كبيرة في تاريخ الشرق القديم .

انتهى حكم توت عنخ آمون قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، ولو فرضنا جدلاً أنه كانت لديه الحكمة وقوة الخلق التي تساعده على الصمود في وجه أعدائه فإننا لا نتوقع من أى حاكم في مثل ظروفه أن يتابع آراء أخناتون وينجح في تطبيقها أى ينجح في تغيير الديانة في مصر وامبراطوريتها .

لم يكن اخناتون يرمى إلى تغيير الديانة تغييراً تاماً فحسب ، بل أراد أيضاً أن يغير العقلية والعادات والفن . وأراد أن يقتلع كل شيء من جذوره كما يقتلع الانسان جذور النبات ، فقد كان يرمى من وراء حركته أن يخرج من قلوب المصريين عقائدهم التي ربوا عليها وأن يخرج من قلوبهم عاداتهم وعلى الأخص ما كان يتعلق منها بآمالهم الدينية وما كانوا يرجونه من حماية وسعادة في مملكة أوزيريس بعد الموت .

ومن الطبيعي أن نتوقع أن يلبأ الكهنة إلى جميع أعمال الوحشية لتحطيم كل ما أخرجهم صناع وفنانو أخناتون ، ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً فلم يبق إلا النادر القليل الذي يكشف عن جمال الديانة وروعة الفن في أثناء تلك الأيام الثائرة في عهد أخناتون .

وكانت هذه الحقيقة من الأسباب التي زادت في أهمية اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون لأنها حوت قطعاً فنية قام بصنعها فنانون عصر أخناتون ، وكانت هذه القطع الفنية مكدسة في مقبرة صغيرة ذات حجرات أربع نحتت على عجل في وادى الملوك في الناحية الغربية من النيل ، واستطاعت الملكة والمخلصون للبيت المالک أن يملأوا قبر الملك الشاب بجميع ما يليق بفرعون مصر من أشياء فخمة فوضعوا فيها الأثاث الجميل الصنع ومصنوعات أخرى هي آيات في الفن والعظمة .

وفي تلك الأيام الممتلئة بالاضطرابات السياسية التي مرت على البلاد بعد دفن توت عنخ أمون تمكن اللصوص من الوصول إلى مقبرته ولكنهم ضبطوا وهم متلبسون بجرمهم وحاول حراس الجبانة أن يعيدوا كل شيء إلى أصله وأن يصلحوا ما أفسده اللصوص ولكنهم لم يتقنوا ما أرادوا عمله .

وبعد مائتي سنة من وفاة توت عنخ أمون عندما كانت الامبراطورية في أواخر أيامها أمر الملك رمسيس السادس بحفر مقبرته في وادى الملوك فوق المكان الذي كانت فيه مقبرة ذلك الملك الشاب ورمى العمال بقطع الأحجار فوق مدخلها وبنوا فوق ذلك الرديم أكواخا بسيطة ليقموا فيها ، هذا هو السبب الذي جعل مقبرة توت عنخ أمون تظل مجهولة وبعيدة عن أيدي المخربين بعد سقوط الامبراطورية المصرية . وظلت على الحالة التي تركها عليها حراس الجبانة حتى عثر عليها رجال الأثرى هوارد كارتير (Howard Carter) في خريف عام ١٩٢٢ فكانت المقبرة الملكية الوحيدة التي بقيت سليمة حتى العصر الحاضر .

وكنت بمن أسعدهم الحظ فزاروا الصالة الأولى من مقبرة توت عنخ أمون بعد اكتشافها بيضعة أيام فكانت من الأشياء التي لا يمكن للمرء أن ينساها ، فها هو الأثاث الفخم الذي كان يزين يوماً من الأيام قصر أحد فراعنة مصر قبل ثلاثة آلاف ومائتين وخمسين عاماً . وكان أجمل ما في هذا الأثاث كرسي من كراسي

القصر . كان اسم توت عنخ أمون مكتوباً على ذراعيه ، ولن أنس ما تسرب إلى نفسى من إحساس عند ما قرأت على الذراع الآخر اسم هذا الملك الصغير عندما تولى العرش وهو اسم توت عنخ أتون . وبعبارة أخرى كان هذا الكرسي الدقيق الصنع مما أخرجته يد الفنانين الذين عاشوا في أيام أخناتون وأنه كان يستعمل في القصر الملكي في العمارنة قبل أن يرى توت عنخ أمون نفسه مضطراً لتغيير اسمه . ومن هنا اتضح أن تلك المقبرة العظيمة كانت مملوءة بالكنوز الفنية التي تصور لنا الحياة والفن في أيام ثورة أخناتون في الوقت الذي حرر فيه العقل البشرى نفسه من جميع القيود القديمة واتجه ناحية جديدة في الفن وفي الحياة .

وكانت النتائج السياسية لمثل هذا التحرر الثورى وخيمة العاقبة ، فقد زالت أيام العائلة المالكة القديمة وانتقل الملك إلى بيت جديد تولوا العرش واحداً بعد آخر وكان أهمهم الملك سبتى الأول (حوالى ١٣١٣ - ١٢٩٢ ق.م) وإبنة الملك رمسيس الثانى (حوالى ١٢٩٢ - ١٢٥٢ ق.م) .

وبذل كل من الأب والإبن جهوداً جبارة متتالية ليعيدا - ولو إلى حد ما - الامبراطورية المصرية ، ولكنهما لم يستطيعا طرد الحيثيين من سوريا لأن هؤلاء الغزاة الأقوياء الذين جاءوا من آسيا الصغرى كانت لهم مواهب حرية ممتازة وكانوا قد عرفوا استعمال الحديد فصنعوا منه اسلحتهم ، بينما كانت الامبراطورية المصرية آخذة في التضاؤل وكانت آخر الممالك العظيمة التي عاشت في العصر البرونزى (١) . ومازلنا نرى اليوم في اثار طيبة مظاهر السقوط الذى كانت مصر على وشك التردى فيه . ففي مناظر المعارك الحربية التي خاضتها مصر في أواخر أيام

١ - لانعرف على وجه التدقيق الوقت الذى بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز ولكننا نجد ان أقدم وقت بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز على نطاق واسع وخلفوا وراءهم أدوات برونزية كثيرة كان في الاسرة الثانية عشر أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م .

الإمبراطورية نرى كثيراً من الأجانب الذين كانوا في الجيش ، ففي ذلك دليل على أن المصريين بدأوا يفقدون تمسكهم للجندية وأخذوا يستدعون الأجانب ليخوضوا حروبهم بدلاً منهم . وكان من بين هؤلاء الأجانب شعوب من شمال البحر الأبيض الذين تحدثنا عنهم عند كلامنا عن العصر الحجري ، نرى أفراداً من هذه الشعوب على الآثار المصرية بعد أن تعلموا من شعوب الشرق صناعة المعادن ، تراهم الآن جنوداً ماجورين في الجيش المصري ومصورين على جدران معابدها يحملون في أيديهم سيوفاً من البرونز عظيمة الحجم . وأخيراً جاء اليوم الذي اتحد فيه أقارب هؤلاء الجنود الأجانب الذين كانوا يعيشون في موطنهم مع غيرهم من شعوب البحر الأبيض المتوسط وغزوا مصر في جموع كبيرة حتى سقطت الإمبراطورية المصرية المتداعية ، وكان ذلك في منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

وفي مدى الأربعينات سنة التي مرت على الإمبراطورية المصرية كان ملوك الفراعنة يدفنون في طيبة في البر الغربي ، في وادي الجبال الواقعة خلف تماثلي الملك أمنحوتب الثالث ، وهو الوادي الذي ذكرناه عند حديثنا عن مقبرة توت عنخ أمون . ففي جنبات هذا الوادي نحت المصريون ستين مقبرة كانت تسير كل نها على شكل دهليز في جوف الجبل وبلغ طول بعضها بضعة مئات من الأقدام . وفي نهاية تلك المقابر كانت توضع موميات أولئك الفراعنة لتكون آمنة ولكن في اليوم الذي بدأ فيه الضعف يتسرب إلى الدولة وأذنت الإمبراطورية بالسقوط بدأ اللصوص يعيثون بها فلم ينج منها إلا قبر ملك واحد وهو الملك توت عنخ أمون . وحاول الملوك الضعفاء الذين تولوا العرش بعد الأباطرة أن ينقذوا ما بقي من موميات أسلافهم فأخذوا ينقلونها من مكان إلى مكان حتى أخفوها نهائياً في مكان قطعوه في الصخر في الجبل الغربي . وبقيت موميات الفراعنة آمنة في

ذلك المكان ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة حتى عثر عليها في عام ١٨٨١ ونقلتها الحكومة المصرية إلى متحف القاهرة .

وكانت تلك الموميات إلى ما قبل أعوام قليلة معروضة في المتحف وكان في استطاعة الزائر أن يقف إلى جانبها ويتأمل قسبات وجه أولئك الفراعنة الذين حكموا مصر وآسيا قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام ، ولكن الحكومة المصرية قررت وضع تلك الموميات في قاعة خاصة بالمتحف ولا يسمح بزيارتها لأغراض علمية .



شكل ٥١ : وادى الملوك فى طيبة حيث دفن المصريون ملوكهم فى عهد الامبراطورية

لم يستمر الملوك فى عهد الامبراطورية (بعد ١٦٠٠ ق م) على تشييد اهرام يدفنون فيها جثثهم بل فضل هؤلاء الملوك أن ينحتوا مقابر فى جوف الصخر فى ذلك الوادى . وكانت هذه المقابر تمتد مئات الاقدام داخل الصخر . وفى وسط الصورة نرى باب مقبرة رمسيس السادس واضحا ، وقد عثر كارثر على مقبرة توت عنخ امون تحت هذا الباب مباشرة .

ودب الضعف فى قوى الأمة بعد سقوط الإمبراطورية وفقدت حيويتها وقوة ابتكارها وأصبحت مغنا للغزاة الأجانب يستغلون أهلها وينقلون القمح ليطعموا به شعوب البحر الأبيض المتوسط .

وجاء كثير من اليونان والرومان ليزوروا مصر ويتأملوا ما فيها من عجائب
قام بها القدماء ، وترك كثير من هؤلاء الزوار أسماءهم منقوشة على الآثار كما يفعل
بعض السائحين اليوم عندما يحضرون إلى مصر ليشاهدوا الآثار نفسها .
إن قصة التاريخ المصرى مسطرة على هذه الآثار ولكن بعد مضي دورة من
دورات الزمن نسي الناس هذا التاريخ . وكان قد مضي أكثر من ألف سنة
على موت آخر شخص كان في مقفوره قراءة اللغة المصرية القديمة ، ومرت قرون
طويلة كان زائرؤ الآثار يتطلعون إلى تلك الكتابات التي تغطي جدران المعابد
والمقابر وغيرها في جميع أرجاء وادى النيل فلا يفهم أحد شيئا منها .

شمبوليونه محل رموز الكتابة المصرية

ظل العلماء متحيرين وقتاً طويلاً من تلك الألفاظ المسطرة على الآثار المصرية والتي لم يستطع أحد منهم قراءتها . ثم جاء الشاب الفرنسي حان فرانسوا شمبوليون (Jean François Champollion) وصمم على التغلب على هذه المعضلة وبدأ ينجح في ذلك بعد سنوات من الفشل المر . وكان عالم الطبيعيات الانجليزي توماس يونج (Dr. Thomas Young) قد اكتشف أسماء بطليموس وكليوباترا مكتوبة بالهيروغليفية فاستطاع شمبوليون بالاستعانة بهذين الاسمين أن يحدد أصوات اثني عشر من العلامات التي ثبت أنها علامات أجدية ورأى شمبوليون أنه يستطيع قراءة بعض أسماء الملوك الآخرين وفي عام ١٩٢٢ أرسل خطابه المشهور إلى الأكاديمية الفرنسية معلناً اكتشافه^(١) وموضحاً الخطوات التي اتبعها حتى وصل إليه .

ولم يكن في استطاعه شمبوليون أن يستفيد من حجر رشيد قبل أن يصل إلى هذا الحد في أبحاثه ، وبعبارة أخرى لم يكن حجر رشيد هو المفتاح الأول الذي استعمله شمبوليون في حل رموز اللغة الهيروغليفية ، بل إن حجر رشيد في الواقع هو الذي ساعده على زيادة محصوله من معرفة العلامات الهيروغليفية في وقت قليل ، كما ساعده أيضاً على معرفة معاني الكلمات وتراكيب الجمل ، ومات شمبوليون

١ . وجد شمبوليون مسلة مكتوب على قاعدتها نص يوناني يذكر انها مسلة احد البطالمة وروجته المسماة كليوباترا وكان على المسلة نفسها نقش باللغة الهيروغليفية ، فكان من رايه ان هذا النص يجب ان يحتوى على اسم بطليموس وكليوباترا . وكان قد سبقه باجتون قالوا بان تلك الخانات البيضاء الشكل التي يكثر تكرارها على الآثار المصرية ليست الا اسماء الملوك . ورأى شمبوليون انه يوجد في نقش المسلة اثنا من هذه الخانات البيضاء وانه يجب ان يكون احدهما اسم بطليموس والثاني اسم «بتو ليمايوس وكليوباترا» وخرج من ابحاثه باكتشاف حل لرموز الكتابة المصرية .

في عام ١٨٣٢ ولكنه استطاع قبل أن توافيه منيته أن يكتب أجرومية صغيرة وأن يعد قاموساً صغيراً للغة الهيروغليفية .

وما زال ينقصنا الكثير لنقول اتنا عرفنا كل ما يتعلق باللغة الهيروغليفية وكتابتها ، ولكن الجهود العظيمة التي توصل إليها شموليون وضعت الأساس الذي قام عليه العلم الجديد الذي نسميه الآن علم الدراسات المصرية القديمة (Egyptology) . وهذا العلم أعاد للعالم كتابة فصل من تاريخ البشرية في مدى ثلاثة آلاف عام ويمكن الآثار المصرية من أن تقص علينا تلك القصة المدهشة التي أوصلت الإنسان إلى الحضارة .

Ⓟ
اسم الملك بطليموس باللغة
الهيروغليفية



ب ت و ن ي م ا ي و س
XIIIIA NA I A A A I III I I

- = ب في الاسمين (٥٤٤)
- ⊖ = ت في الاسمين (٦٦)
- Ⓟ = و في الاسمين (٤٠١١١)
- Ⓜ = ن في الاسمين (٢٦٠١٧)
- Ⓜ = م في الاسمين (٧٦)
- Ⓜ = اى في اسم واحد (٧٧٦)
- Ⓜ = س في اسم واحد (١٨)

Ⓟ
اسم كليوباترا باللغة
الهيروغليفية



ك ل ي و پ ا ت ر ا
4 8 7 6 5 4 3 2 1

- Ⓜ = ك في أسماء الاسمين (١١)
- Ⓜ = ل في أسماء الاسمين (١٣)
- Ⓜ = أ ورد مرتين (٩٠٦)
- Ⓜ = ت في أسماء الاسمين (٢٧)
- Ⓜ = ر في أسماء الاسمين (١٨)
- Ⓜ = سدسات لا تنطق
و كتبت في آخر الكلمات
المؤنثات (١٠)

شكل ٥٢ : رسم يمثل الخطوات الاولى في حل شموليون للغة المصرية
الهيروغليفية

وكما توصل شيموليون إلى حل رموز اللغة المصرية تمكن علماء آخرون بطرق مشابهة لطريقة شيموليون من حل رموز الكتابات التي انتشرت في طول وادي دجلة والفرات في آسيا وأخذت آثار تلك البلاد تقص علينا هي الأخرى كيف خرج سكان غرب آسيا من حالتهم البدائية فعرفوا الصناعات وعرفوا أيضاً استعمال المعادن ووصلوا إلى استنباط طريقة للكتابة ثم ارتقوا إلى أن أصبحوا قوة عظيمة في العالم القديم .

ولنترك الآن قصة مصر. ومنتقل في الفصل التالي إلى قصة التاريخ المبكر في الشرق الأدنى في آسيا .

الفصل الخامس

غرب آسيا - بلاد بابل أقطار وأهناج آسيا الغربية

إن أهم مكان سكنه الإنسان في غرب آسيا هو ذلك الجزء المحصور بين الجبال في الشمال والصحراء في الجنوب ، وهو يكاد يكون حدودا تفصل هاتين المنطقتين وساعدتها الطبيعة لأن تصبح أرضا منزرعة ، وذلك المكان هو ما نسميه الهلال الخصيب^(١) لأنه يكون شكلا نصف دائري على وجه التقريب .

ويرتكز حرفه الغربي في جنوب شرقي البحر الأبيض المتوسط، ووسطه فوق شبه جزيرة العرب ويرتكز حرفه الآخر عند الخليج الفارسي وخلف ظهر هذا الهلال تقوم الجبال المرتفعة ، وعلى ذلك تكون فلسطين عند نهاية الجزء الغربي منه وبلاد بابل في الجزء الشرقي بينما تكون بلاد آشور جزءا كبيرا من وسطه .

وهذا الهلال الخصيب ليس إلا امتدادا لصحراء العرب، وهو يشبه شواطئ جون صحراوي تحيط به الجبال ، ولكن هذا الجون ليس مملوءا بالمياه ولكنه مملوء برمال الصحراء التي تمتد نحو خمسمائة ميل .

وفي أيام الربيع بعد ما تسقط مياه الأمطار تتحول مناطق كثيرة من هذا الجون الصحراوي إلى أرض مغطاة بالحشائش يتنازع عليها سكان الجبال وسكان الصحراء، كل يريد امتلاك ما يقدر عليه ويتصارع كل منهما على الفوز به ، وهذا الصراع ما زال يحدث إلى اليوم وكان يحدث في جميع الأزمان بل إن تاريخ غرب

١ - لا يوجد اسم جغرافي أو سياسي يطلق على البلاد التي تتجمع في نصف هذه الدائرة ، ونحن مضطرون عند الحديث على هذا الجزء من الناحية التاريخية كوحدة أن نجد اسما له ولهذا اطلقنا عليه في كتابنا المقرر على طلبة المدارس الثانوية (Ancient Times (Boston 1916) اسم الهلال الخصيب وأصبح هذا الاسم منذ ذلك العهد شائع الاستعمال .

آسيا ليس إلا تاريخاً للصراع بين سكان الجبال وسكان الصحراء .

وحرمت الطبيعة بلاد العرب من الأنهار ولا تسقط فيها الأمطار إلا مدة أسابيع قليلة في وسط الشتاء ولهذا فإن أكثر مساحتها أراض صحراوية وليس فيها إلا جزء صغير يمكن للناس أن يعيشوا فيه بصفة دائمة .

ومنذ أقدم الازمنة حتى الآن كان سكان هذه المنطقة مجموعة من شعوب من الجنس الابيض اسمهم الساميون ، وهم الآن - كما كانوا دائماً - ينقسمون إلى قبائل متعددة لم تتحد في تاريخها لمدة طويلة فتكوّن أمة واحدة متماسكة وتشبه في ذلك هنود أمريكا الذين ينقسمون إلى قبائل مختلفة يعرفون بها مثل السيوكس (Sioux) أو السيمينول (Seminole) أو الأريكوى (Iroquois)

ومن أهم قبائل هذه الشعوب السامية اثنان يعرفهما كل فرد حق المعرفة وهما العرب والعبرانيون الذين يعيش أحفادهم بين ظهر انينا في أمريكا .



شكل ٥٣ : بدو ساميون من سكان الهلال الخصيب على مقربة من بحر الجليلية

يستطيع هؤلاء البدو أن يحملوا خيامهم المصنوعة من وبر الجمل الداكن اللون من مكان إلى آخر حيث يجدون أماكن جديدة للرمعى .

ويتكلم هؤلاء العرب والعبرانيون حتى الآن لهجات لغة واحدة في الأصل . وما زال العرب إلى يومنا هذا يفعلون ما فعلوه أجيالا طويلة، يسرون وراء المرعى في بلاد الجزيرة العربية وما جاورها . وعندما تجف الحشائش على حافة الصحراء كان هؤلاء البدو ، منذ أقدم الأيام ، يتركون رمال اليبداء ليقيموا على حافة الأراضي المنزرعة ، فإذا أمكنهم أن يثبتوا أقدامهم ينقلبون على مدى الأيام من حياة البدو الرحلى الى حياة الزراعة ، وكثيرا ما كانوا يهاجرون إلى المناطق التي على حافة الصحارى في جموع كبيرة . جموع تعيش حياة أقرب إلى حياة الهمجية . وكانت تنزل على تلك البلاد كما ينزل السيل . ويتروكون الصحراء ويذهبون إلى المدن ثم لا يلبثون حتى يطفوا على من فيها من سكان ، وقد تكرر ذلك مرات عدة خلال آلاف السنين نذكر منها هجرة العبرانيين إلى فلسطين كما تصفها التوراة وغزو جحافل العرب لمن جاورهم من الشعوب بعد اعتناقهم للدين الإسلامى ، ووصلت فتوحاتهم إلى أوروبا وكادوا يطوقون البحر الأبيض المتوسط . فان تلك القبائل السامية التي خرجت للغزو واستقرت في البلاد المختلفة على هيئة جاليات ثم أخذت تنتشر نحو الغرب على طول البحر الأبيض وشمال أفريقيا إلى أن وصلت إلى أسبانيا والمحيط الأطلنطى ، ولكن لم يتم وصولهم إلى الاطلنطى إلا بعد قرون عديدة ، ولنقصر الآن حديثنا على الساميين في الصحراء ونبدأ بهم .

ففى فيا فى الصحراء لا يعرف الناس حدودا معينة ، والمرعى مباح لأول قادم ، مثل الهواء لا يمتلكه أحد . فليس بين رجال القبيلة الواحدة من يمتلك أرضا ، أو فهم من يقال أنه غنى لأنه صاحب أرض واسعة أو فقير لأنه لا أرض له . ولا يعرف أهل الصحراء قانونا ، فان البدوى ذا العين الفاحصة يرمى ببصره نحو التلال التي امامه ناظرا إلى قطعان القبيلة الأخرى ويتمنى لو تصبح ملكه ، وهو يعلم ان ذلك يصبح محققا لو أنه ذهب وقتل الراعى الذى يجلس على مقربة من البئر ، ولكن

يمنعه من ذلك عليه بأنه لو أقدم على ما فكر فيه فإنه سيحب الموت أو الدمار لأهله ، وأن دم هذا الراعى لن يذهب هدرأ ، وسيستقم أهل هذا الراعى له دون أن ينتظروا من الحكومة أن تفعل شيئاً لأن عادة الأخذ بالثأر مرعية الجانب بينهم وتوقف كل شخص عند حده ولها ما للقانون من أثر رادع .

وفى مثل تلك البيئة لا يمكن أن تقوم دولة لأنه لا يعرف أحد الكتابة أو حفظ المستندات وتكاد الصناعات أن تكون معدومة .

ويجيا رجال القبائل فى الصحراء حياة حرية مطلقة . وليس للحكومات القائمة فى بلاد العرب اليوم سلطة تامة على البدو الذين ينتقلون من مكان إلى مكان فى تلك البادية المترامية الأطراف ، وتشبه سلطتها عليهم ما كان للسلطات الأمريكية من نفوذ على رعاة البقر الذين لم يردعهم قانون .

وينتقل رجال هذه القبائل ومعهم قطعان أغنامهم على حافة الهلال الخصيب حتى تلوح لأعينهم مدينة من المدن تحف بها أشجار النخيل فيذهبون إليها ويقصدون سوقها ليشتروا السلاح والثياب وبعض الأدوات التى لا يستغنى عنها البدو . وتعلم هؤلاء البدو منذ وقت بعيد نقل السلع من مكان إلى مكان فأصبحوا الناقلين للتجارة بين مدينة وأخرى ، ثم تقدموا بعد ذلك فصاروا أصحاب التجارة ، يتأجرون لحسابهم الخاص ويسافرون دون خوف أو وجل فى ذلك المتسع العظيم من الصحراء الذى يفصل بين سوريا وفلسطين وبابل . وأصبح هؤلاء البدو أعظم التجار فى العالم القديم كما أصبح أحفادهم العبرانيون أعظم التجار فى أيامنا هذه .

والبرية وطن البدوى ، اعتماد على الحياة فيها وحيداً فصبغت روحه بالوقار ، وملأت خياله بكائنات لا يراها ولكنه يخشاها ، واعتقد أن تلك الكائنات سكنت فى كل شجرة أو صخرة وفى كل مرتفع أو عند مورد المياه . وكانت تلك المخلوقات هى آلهته التى اعتقد أن فى أستطاعته التغلب على أذاها إذا ما تتم

بعض الألفاظ التي فيها قوة سحرية . كانت تلك التعويذات هي أقدم أنواع الصلاة ، وكان البدوي يعتقد أن تعويذاته تضمن له أن تلك الآلهة لا تصيبه بأذى بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيعتقد أنها تجبر هؤلاء الآلهة ليقدموا له المعونة .

وتصور البدوي أن سلطة كل كائن من هذه الكائنات كانت تمتد على مكان محددة في هذا الكون المترامي الأطراف ، مثل بئر وما حوله من مراعي ، أما البئر التالي والذي لا يبعد أكثر من مسيرة يوم واحد فإنه كان تحت سلطان إله آخر القبيلة أخرى . لأنه كان لكل قبيلة إلهها الذي يعبده أفرادها ، وكان هذا الإله يسير مع أفراد القبيلة أينما ذهبوا يشاركونهم في طعامهم وفي أعيادهم ويقدم له كل شخص أول ما تلده إنثا ماشيته وأغنامه . ولم ير ذلك البدوي المتقل في إلهه إلا إلهها ذا خلق فجع محب للقسوة وله عادات همجية طالما حملته على ذبح أبنائه ليرضيه ويتق غضبه ، ومن ناحية أخرى آمن هذا البدوي في قرارة نفسه بالعدل والحق وكان يؤمن بأن واجبه يحتم عليه أن يكون عطوفاً على زملائه واعتقد أن ذلك من مر الله ، وأخيراً أصبح هذا الشعور نظرية خلقية عالية .

وفي عام ٣٠٠٠ ق . م كان الساميون قد أخذوا يتوافدون من الصحراء ليستقروا في فلسطين في الجزء الغربي من الهلال الخصيب ولم يأت عام ٢٥٠٠ ق . م حتى نراهم يعيشون في مدن تحيط بها الأسوار . هؤلاء هم الكنعانيون أسلاف العبرانيين ، وكان هناك ساميون آخرون استوطنوا في الشمال وفي الشرق أشهرهم الأكديون ثم العموريون فيما بعد . أما الفينيقيون فاستوطنوا الشاطئ الشمالي لسوريا ، وكان هؤلاء القوم بدواً رحلاً كغيرهم ولكن لم يلبثوا حتى أخذوا يجوبون البحار وأصبحت ميناء جبيل Byblos من أقدم موانئ فينقيا وأهمها . وكانت غابات الأرز تتوج الجبال التي تقع خلفها ، وكان خشب هذه

الأشجار ثميناً ، وكان المصريون يحرصون على الحصول عليه مما حملهم على إنشاء الصلات التجارية بينهم وبين أمراء جيل قبل عام ٠٠ ق م .

وما وافي عام ٢٠٠٠ ق م حتى كان الساميون الذين عاشوا في الجزء الغربي من الهلال الخصيب قد وصلوا إلى درجة غير قليلة من الحضارة استمدوا أكثرها من مصر وبابل ، لأن هذه البلاد التي تقع على طول الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط كانت في الطريق الذي يربط بين تلك المملكتين ، ولهذا كانت دائماً على صلة بكل منهما .

وإذا كان الساميون قد غزوا الهلال الخصيب من جنوبه أى من ناحية الصحراء ، فإن سكان الجبال غزوه أيضاً في شماله واتخذ بعضهم لنفسه موطناً فيه . ولم يكن هؤلاء الجيليون من الجنس السامى ولكنهم كانوا على كل حال من فروع مختلفة من الجنس الأبيض ، وقد تطاحن هؤلاء الجيليون مع القبائل السامية قروناً طويلة متنافسين على امتلاك الهلال الخصيب .

ونشأت أقدم الحضارات في آسيا الغربية في الطرف الشرقي من الهلال الخصيب في وادى نهري دجلة والفرات اللذين سنطلق عليهما من الآن اسم « الرافدين » ، ويبدأ هذان النهران في الجبال الشمالية ثم يصلان إلى الهلال الخصيب ثم ينحني مجراهما متجماً نحو الجنوب الشرقي ، وفي هذا المكان من بلاد الشرق أى على شاطئ الرافدين يمكننا أن نتبع تاريخ بعض الشعوب القديمة في مدى بضع آلاف من السنين ، ونرى تطور مدينتها .

وينقسم تاريخ دجلة والفرات إلى ثلاثة فصول ، أقدمها تاريخ بابل في الجنوب عند مصب النهرين . وعلى بعد ثلاثمائة وعشرين ميلاً تقريباً من الخليج

الفارسي^(١) أى عند المكان الذى يقترب فيه النهران من بعضهما ، نرى هذين النهرين وقد تركا المناطق الصحراوية فى الشمال ويبدآن سيرهما فى وادى واطىء خصب التربة كوتته رواسب النهرين . وذلك هو الوادى المسمى أرض بابل الذى يكون الحد الشرقى للهلال الخصيب .

ولم تكن مدينة بابل ذات أهمية أثناء الألف سنة الأولى من تاريخ تلك البلاد وورد اسم الوادى فى التوراة تحت كلمة « شنعار » وسنستعمل هذا الاسم عند الحديث على العصور القديمة لتلك البلاد لأن اسم بلاد بابل لم يصبح علماً على الجزء الشرقى من الهلال الخصيب إلا فى بداية الألف الثانى قبل الميلاد ، فإتانا إذا أصررنا على استعمال كلمة بلاد بابل فإتانا نكون كمن يطلق اسم فرنسا عند حديثه على بلاد الغال فى أيام يوليوس قيصر .

وسهل شنعار لا يكاد يزيد عن أربعين ميلاً فى العرض ، وتقل مساحته عن ثمانية آلاف كيلو متر مربع من الأراضى الصالحة للزراعة أى ما يقارب ولاية نيوجرسى فى الولايات المتحدة الأمريكية أو بلاد وپلس فى إنجلترا . ومناخها يتبع مناخ البحر الأبيض المتوسط أى تسقط فيه الأمطار أثناء الشتاء فقط ثم تليها شهور الجفاف فى الصيف وكمية الأمطار ضئيلة وهى أقل من سبع بوصات فى السنة^(٢) ولهذا تحتاج الحقول إلى الرى لينضج المحصول . وإذا وجد سهل شنعار من يعنى بثنون الرى فيه فإنه يصبح من أجود الأراضى ، وكانت الزراعة هى المصدر الرئيسى للثروة لسكانه فى الأزمنة القديمة .

١ - يصب نهرا دجلة والفرات فى الخليج الفارسى ويحملان معها رواسب تملأ هذا الخليج عاماً بعد عام . ومنذ الايام الأولى فى تاريخ بابل حتى الآن ملأ النهران من هذا الخليج مسافة ١٥٠ ميلاً تقريباً

١ - مقدرة على حساب التقارير الإنجليزية فى السبعة والثلاثين عاماً التى تبدأ من عام ١٨٨٧ وتنتهى فى عام ١٩٢٤

أقدم الحضارات الهامة في وادي الرافدين « السومريون »

أثبتت الاكتشافات الأثرية أن أقدم الحضارات الهامة في وادي الرافدين تطورت على يد قوم غير سامي الأصل ، لم نعرف جنسهم الأصلي على وجه التحديد حتى الآن ، وهم يسمون السومريون لأن المنطقة التي كانت لهم السيادة فيها من بلاد الرافدين كانت تسمى « سومر » .

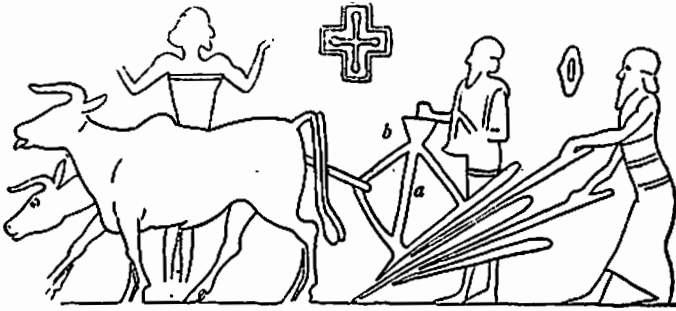
ومن المحتمل أن هؤلاء السومريين كانوا قد بدأوا في تجفيف المستنقعات التي كانت عند رأس الخليج الفارسي قبل عام ٣٥٠٠ ق . م وأخيراً امتدت قرى أكوأهم المبنية من الطوب اللبن من المنطقة الواقعة فوق بغداد الحالية حتى مصب النهرين وبخاصة على شاطئ الفرات لأن مياه دجلة واطئة كثيرا عن الأراضي المنزرعة .

وتعلم السومريون كيف يحافظون على مياه العيون بعمل جسورها ، كما عرفوا أيضاً توزيع المياه في قنوات الري ، وعرفوا حصاد محاصيل الحبوب . وكانوا في تلك الأيام يزرعون الشعير والقمح وامتلكوا الماشية والضأن والماعز . ولعبت هذه الحيوانات دورا كبيرا في حياتهم إلى الحد الذي جعلوا فيه إحدى آلهتهم الهامة على شكل بقرة واعتقدوا أنها كانت تجمي قطعان حيواناتهم . وكان لهذه الآلهة معابد كُشف عن واحد منها على مقربة من مدينة « أور » منذ عهد قريب وعثر فيه على نقوش على الأحجار نرى من بينها مناظر صناعة الألبان لدى السومريين ، كما نرى فيها مناظر تمثل الثيران تجر المحراث أو الثيران والحمير (١) تجر العربات ذات العجل

١ - يوجد على بعض الآثار السومرية رسم لحيوان غريب الشكل اختلف في وصفه كحصان

أو كبغل أو كحصان أسبوي متوحش .

أو المركبات ، وقد رسمت المركبات مزودة بعجلات متينة حولها إطار من الجلد أو النحاس كما كشفت الحفائر عن بقايا مهشمة منها .



شكل ٤١ : آلة بآبيلية قديمة لبذر الحبوب

نرى في هذا الشكل رسم آلة يجرها ثوران يمشى سائقهما الى جوارهما . ونرى خلف السائق رجلا يمسك بكلتا يديه هذه الآلة التي تحفر بسننها المدبب في الارض وتخط فيها عند سيرها . وفوق سن المحراث قناة رأسية (أ) في أعلاها قمع (ب) وإلى جانب الرجل الذي يقود هذه الآلة نرى شخصاً ثالثاً يسير بجواره يلقي بأصدي يديه حبوباً من القمع في القمع بينما يضع يده الأخرى في غرارة للحبوب معلقة في كتفيه . وكانت الحبوب تنزل من القمع الى القناة ومنها الى الخندق الذي حفره السن المدبب للآلة . هذا الرسم منقوش على اناء حجري صغير (نقلنا عن كلاي)

وعرف السومريون صناعة المعادن في وقت مبكر وكان من بينهم صناع مهرة عرفوا كيف يطرقون النحاس وعرفوا طريقة صبه ، ونرى من تحليل بعض أدواتهم أنها تحتوي على نسبة عالية من الصفيح مما حمل بعض الباحثين على القول بأنهم عرفوا في وقت مبكر صناعة البرونز وهو أكثر صلابة من النحاس .

وصنعوا من النحاس أسلحة وآلات ، وأدوات للزينة وغيرها كما صنعوا أيضاً تماثيل للعبودات ، وإلى جانب النحاس توصلوا أيضاً إلى معرفة الذهب والفضة والرصاص . وكونت الزراعة وتربية الماشية الجزء الأكبر من الثروة التي كانت أساساً للحياة السومرية ، ومع ذلك لم يأل السومريون جهداً في التقدم بصناعاتهم ولم يقف بهم الأمر عند حد الموارد الميسورة لهم بل استوردوا

الخامات من بلاد أخرى ، وساعدهم صوف الأغنام على تطور صناعة النسيج والحصول على ملابس صوفية بالرغم من أن الازار الذى نراه حول وسط السومريين فى الرسوم كان على الأرجح من جلد الغنم .

ونشطت تجارة هؤلاء الناس مع غيرهم من امم آسيا الغربية وكانت سلعهم التى حملوها إلى تلك البلاد عبارة عن الأدوات المصنوعة من المعدن والبضائع الصوفية وبعض الحاصلات الطبيعية كالبلح والحبوب كما أثبتت الأبحاث أن هذه التجارة وصلت غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط وشرقاً إلى مصب نهر السند وقد قام الدليل بصفة قاطعة على وجود الصلة التجارية مع وادى السند^(١) من العثور فى خرائب المدن القديمة فى سهل شنعار على أختام وأوان وحرز من صناعة سكان وادى السند القديما . أما فى ناحية الغرب فإن تجارة بلاد الرافدين كانت تتلاقى وتتداخل مع تجارة مصر فى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ومن المحتمل جداً أنها كانت تصل إلى مصر نفسها . ولا شك أنه كانت هناك صلة بين مصر وبلاد الرافدين ، لأن كلا من الحضارتين كانت تخرج أشياء مصنوعة متائلة الطراز وذات أشكال خاصة ، مثل دبوس القتال الذى على شكل الكهثرى ، والأختام الأسطوانية واستعمال حيوانات مرتبة فى أشكال خاصة فى الفن الزخرفى فى كل من الحضارتين .

١ - كسفت حفائر السير جون مارشال (Sir John Marshall) التى قام بها لحساب مصلحة الآثار الهندية فى السند والبنجاب عن وجود بقايا حضارة مبكرة يرجع تاريخها الى عام ٢٥٠٠ ق.م . وكان فى هذه المدن منازل مكونة من طابقين على الاقل ومبنية بالطوب الأحمر ، وكان فى هذه المنازل حمامات وكانت فيها أنظمة دقيقة لتصريف المياه . وكانت بعض الحيوانات تجر مركبات على عجلتين واستعملوا الغيلة الاليفة فى حمل الانتقال . وبالرغم من أن النظام الاقتصادى لوادى السند قام على الزراعة فإن الصناعة كانت مزدهرة وقام صناع المعادن بصنع أدوات من النحاس جعلوها اوانى واوعية من الفضة . وعرفوا أيضا التزجيج واطهروا فيه بعض المهارة . وصنعوا اختاما حفروها بمهارة ودقة تثبت لنا انهم عرفوا الكتابة .

وكان سكان وادى السند معنيين الى حد كبير بالتجارة ولا بد أن قوافلهم كانت ترسل نحو الشرق بصفة منتظمة مخترفة تلال بلوخستان حيث عثر العلماء على مدن شبيهة بمدن وادى السند . وقد عثر العلماء فى حفائرهم ، فى آسيا الغربية على آثار تثبت أن هذه التجارة قد امتدت الى الربع الشمالى الغربى أى الى البلاد الواقعة حول شاطئ البحر الابيض المتوسط .

وقادت التجارة وإدارة الحكومة هؤلاء السومريين في عصر مبكر إلى إثبات
بعض البيانات بواسطة حفرها حفرأ سطحيأ بالجزء المدبب من نبات الغاب فوق








































شكل ٥٥ : ختم عشر عليه في دلتا وادي السند (الالف الثالث ق م)

لايزيد حجم هذا الختم عن بوصة مربعة ، وهو آدق عمل فني وصل الى ايدي
علماء الاثار من حفائر وادي السند ، ويمكن اعتباره من آيات الصناعة الدقيقة في
الحضارات القديمة . ونرى على هذا الختم رسما غاية في الدقة لثور براهما
واسمه « زيو » وفوق الثور كتابة لم تحل رموزها الى الآن . (رسم عن صورة
فوتوغرافية من كتاب مارشال)

سطح مستو لقطعة من الطين اللين فإذا وضعوا الطين في الشمس جفت وأصبحت
صلبة ، فإذا ما وضعوها بعد ذلك في فرن لحرقتها فإنها تصبح لوحة فخارية تكاد
لا تتعرض للفتاء ، وأبقت الأيام على بعض اللوحات الفخارية التي يرجع تاريخها
إلى أقدم العهود ونستطيع أن نميز بسهولة الصورة الأصلية لبعض العلامات
التي جاءت في كتاباتهم ، ونحن نسمى الآلة التي كتبوا بها على الطين بالقلم (Stylus)
وكان بعض هذه الأقلام يصنع من شريحة صلبة من نبات الخيزران ولكن
بعضها كان من العظم أو الخشب ؛

وفي بعض النقوش ترى كاتباً وفي يده قلم ، وكان مثل هذا الكاتب لا يحفر خطوط صورة وإنما كان يلتجئ إلى طريقة أخرى ، فإذا أراد مثلاً أن يرسم خطأ فإنه كان يرفع قلبه ثم يضغط على حافته فيغمسها في الطين ثم يرفعه مرة ثانية ويضع حافته مرة أخرى إلى جانب الأولى وهكذا ، وإذا تأملنا شكل القلم نجد حافته على

	١	٢	٣	٤	٥
	أصلها	أصلها كما كانت في السراة القديمة	أصلها القديم	أصلها	المعنى الأصلي أو المشتق
1					طائر
2					سكة
3					عاب
4					نور
5					نور يوم
6					حب
7					بستان
8					بريش يعرف
9					عاب رأية من الأرض
10					يقف يذهب

شكل ٥٦ : رسم يوضح الصور الأصلية لعشرة من العلامات المسماة (جمعها ورسمها الأستاذ آرثر بوبيل)

شكل يشبه المثلث أو المسبار لأن رأسه أعرض من الناحية الأخرى ، وكانت كل علامة أو صورة تكتب بمثل ذلك القلم تصبح مجموعة من علامات مركبة من خطوط يشبه كل منها المسبار ونحن نسمى هذا النوع من الكتابة مسبارية نظراً لشكلها (مسبارية ترجمة لكلمة Cuneiform وأصلها من Cuneus اللاتينية ومعناها مسبار) . ولم يطل الزمن حتى أخذت الصور المرسومة بهذا النوع من الكتابة تبعد عن شكلها الأصلي فتصعب معرفتها حتى جاء الوقت الذي لم يعد للشبه بين العلامات المكتوبة وأشكالها الأصلية أى وجود .

ووصل الأمر بالكتابة السومرية أن أصبحت تحتوى على ستائة علامة منها علامات معنوية ومنها علامات صوتية ، وكانت الأولى تمثل الآراء أو الأشياء والثانية تمثل الأصوات ، وكانت تستعمل كقاطع في الكلمات وكانت بعض الكلمات تتكون من أكثر من علامة صوتية يضاف إليها فى أغلب الأحيان علامات معنوية لتكون مخصصة لها ، ولم يتطور عن هذه الطريقة السومرية أبجدية حروف لتحل محل المقاطع أى أنه كانت هناك مقاطع مثل د ك ر ، ن د بن ، ولكن لم توجد علامات للحروف ك أ و ر أو ب أو ن التى كونت هذه المقاطع ، ولهذا لا يمكننا أن نقدم للقارىء أبجدية كما فعلنا عند حديثنا على الكتابة المصرية (١) .

وترينا تلك المدونات التى على الطين أن السومريين اعتادوا أن يبدأوا شهورهم مع كل قر جديد وأن السنة كانت تتكون من اثني عشر شهراً قرياً ، ولما كانت مدة الاثني عشر شهراً قرياً تقل فى طولها عن السنة الحقيقية ، فإن الكاتب السومري اعتاد أن يضيف على السنة شهراً إضافياً كلما وجد أنه وصل إلى نهاية السنة التقويمية قبل الفصول بشهر أو ما يقرب منه .

وورث اليهود والفرس هذا التقويم الخاطئ غير العملى وما زال سائداً بين

يهود الشرق والمسلمين . ولم يكن السومريون يعدون السنين بل كانوا يفعلون ما فعله المصريون في مستهل حضارتهم ، وهي تسمية كل سنة باسم حادث هام وقع خلالها . وكان للسومريين نظام في حساب الأعداد يخلط بين النظامين العشري والستيني ، وكان لديهم علامات لرقم واحد والعشرة وللمستين ، وكانوا يضعون هذه العلامات حسب قيمتها ، كما نضع أرقامنا ، ولكن حسب ترتيبها في أرقام مفردة وعشرات وستينات ، بدلا من أرقام مفردة وعشرات ومئات ، ولكنهم لم يعرفوا الصفر . أما وحدتهم الأساسية في الموازين فهي الـ « مينا » وتنقسم إلى ستين « شكيل » وكل ستين « مينا » ، وزن « تالنت » ، وظلت هذه الأوزان سائدة في العالم القديم حتى أيام اليونان وكانت المينانزن رطلا من أوزاننا الحالية ، إذ وصلت هذه الوحدة إلى العالم الغربي من صلته بالشرق .

وكان مركز الحياة والثقافة السومرية في المدن ، وكان المعبد في المدينة هو نواة حضارتها والمركز الرئيسي فيها ، يقوم في وسطها تحيط به الأسوار الضخمة التي تفصله عن باقي اجزائها ، وفي داخل تلك الأسوار قامت أماكن العبادة ومخازن المعبد والمكاتب ، يشرف عليها جميعا الكهنة الأغنياء يعاونهم الكتبة الذين كانوا يثجرون ويرعون أملاك المعبد . وقام المعبد مقام البنوك لأن الكهنة كانوا يقرضون الناس باسم الإله ، ويتقاضون الأرباح باسم الآلهة أيضاً .

وكان برج المعبد يعلو فوق كل المباني ، وكان شكله على وجه التقريب مثل مكعب ولكن يقل عرضه كلما ارتفع . وحول هذا البرج ثلاث مدرجات من سلام ضخمة مبنية حول الجدران تصل بالزائر إلى الباب في منتصف البرج فوق باب المعبد ، وفي بعض الأحيان كانوا يزرعون الأشجار في مستويات مختلفة حول هذا البرج ، ينقلون إليها اللطى ويجعلون منها حدائق جميلة في مدرجات على ارتفاعات متعددة . وفي أعلا البرج معبد مربع الشكل ، فيه هو لاسقف له ، وخلفه هو مكان مقدس

ومن أهم المعابد ذات البرج تلك التي قامت في مدينة نپور (Nippur) لتكون حرماً لإله الهواء « إنليل » (Enlil) مما جعل من مدينة نپور بلداً ذا قدسية خاصة بين جميع المدن السومرية .

ولما كان هذا النوع من المعابد مبنيًا على شكل يجعل جوانبه تنحدر إلى الداخل كلما ارتفعت عن الأرض فتصبح قرية الشبه بالجبال ، وكان السومريون أنفسهم يسمونها « بيوت الجبال » ، فمن المعقول أن أهل سهل شنعار أرادوا أن يبنوا آلهمهم بيوتا تليق بهم فوق جبال صناعية . وكان المعبد ذو البرج الذي بنى في مدينة بابل فيما بعد سبباً لنشأه قصة برج بابل التي جاءت عن طريق القصص العبراني ، ولا شك أن طراز تلك المعابد كان له أثر رائع في نفس كل من وقعت عليه عيناه وكان نوعاً جديداً في العمارة وصل إليه السومريون وأصبح ذا أثر كبير في الطرز المعمارية . (١) .

وكان يقوم معبد آخر إلى جوار المعبد ذي البرج ، وكان هذا المعبد القليل الارتفاع هو المعبد الأساسي وكان بسيطاً في نظامه إذ لم يحتو إلا على هويليه الهيكل وكان الفلاحون يأتون إلى هذا الهيكل القائم تحت ظل المعبد ذي البرج يحملون قراينهم من الحبوب والبلح والتين والزيت واللبن والعسل وكذلك بعض الحيوانات .

١ - لم يبق إلا القليل من بقايا تلك الأبراج البابلية واختلفت الآراء في معرفة شكلها الاصل معرفة لا يدخلها شك . وقبيل الحرب العالمية (الاولى) عثر مرة اخرى على لوحة مسماوية من عصر متأخر سطر عليها ابعاد برج بابل .

وتسكن كولدوى Koldway الذي قام بحفر خرائب مدينة بابل ووجد القاعدة المربعة للمعبد أن يرسم رسماً تخيلاً لما كان عليه المعبد ذو البرج عند بنائه ، وساعده في ذلك عثور البعثة الامريكية الانجليزية تحت رئاسة الاستاذ وول (C. L. Woolley) على بقايا برج مماثل حفظت فيه أجزاء من مدرجات السلالم الثلاثة في مدينة « أور » .

ومات كولدوى في أوائل عام ١٩٢٥ ووافق المشرفون على اعماله على السماح بنشر الرسم شكل ٧٠ في هذا الكتاب في الاصل الانجليزي وهو رسم يمثل برج بابل كما كان في العصور القديمة وما يجدر الاشارة اليه ان الاستاذ وول وزملاءه نشروا رسماً فخماً لمعبد أور كما كان في أيام السومريين .

وكانت توضع هذه الأشياء فوق مواقد القرايين وكان يؤخذ جزء منها ليكرس أمام الإله بعبارة أخرى أمام تماثله .

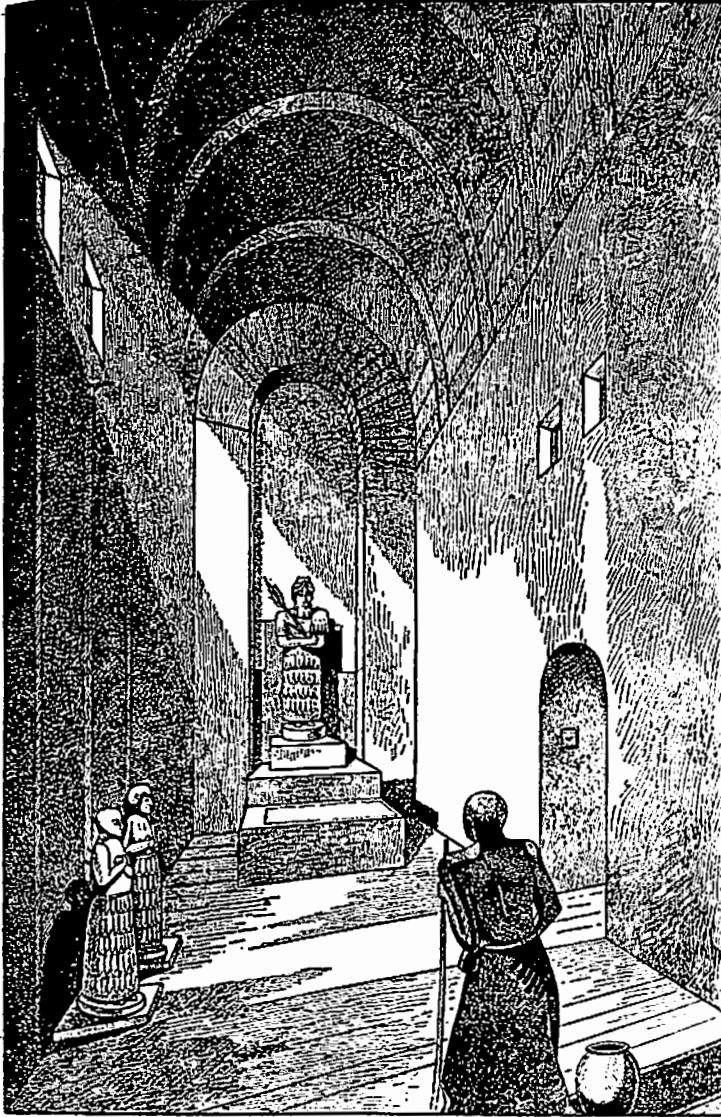
وفي خرائب هذه المعابد عثر الأثريون على أنواع كثيرة من الأدوات التي كانت تستعمل في العبادة وعلى الأواني التي كانوا يضعون فيها السائل ليصبوها على القرايين أثناء الصلوات ، كما عثر الأثريون أيضا على مناظر يرجع تاريخها إلى ذلك العصر وعرفنا من دراستها ، أنه كانت تقوم في تلك المعابد احتفالات ذات معاني رمزية .

فمثلا كانوا يضعون جريدة النخل ومعها بعض شماريخ البلح في إناء ثم يصبون فوقها الماء ، والتفسير المحتمل هو أن ذلك يمثل فضل الإله على البلاد



شكل ٥٧ : أهل بيت أمير ، « أور » ينتظرون الموت على باب مقبرته

عثرت البعثة الانجليزية الامريكية تحت رئاسة وولى أثناء حفائرها في أور على اجسام هؤلاء الرجال والنساء والحيوانات وما معهم من أشياء على باب مقبرة الامير . وقد تمكن الفنان الحديث بارشاد الاثريين من أن يتخيل هؤلاء جميعا وقد وقفوا على استعداد لقتلهم ، وقف كل في مكانه الذي عثر فيه على جثته . وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن قتلهم على هذه الصورة يمكنهم من الانتقال الى العالم الاخر ليظلوا في خدمة سيدهم هناك .



شكل ٥٨ : منظر داخلي في أحد المعابد البابلية من (الألف) الثالث ق.م
من حفائر المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو - صورة لما كان عليه المعبد في الزمن
القديم - من رسم سيتون لويد (Seton Lloyd)

فهو الذى يرسل الفيضان كل سنة فى النهر لتبقى الزراعة فى الأرض . ونحن نستطيع أن نفرض أنهم كانوا يقومون بعمل أمثال هذا الطقس الدينى ووضع الهدايا والقرابين أمام آلهة الأرض وما عليها من نباتات وآلهة الهواء والسماء والبحر ويصحبونها بأدعية ليأتى الماء وفيرا ويكثر المحصول . ويدعون أيضا أن تجنبهم الآلهة مصائب الفيضان المدمر مثل الفيضان الذى أرسله الإله مرة فخرّب كل شيء ، ذلك الفيضان الذى كان الناس يتناقلونه عن آبائهم وأجدادهم ووصلت أخباره إلى العبرانيين .

واختلفت ديانة السومريين عن ديانة المصريين فى نقطة هامة . كان السومريون يدفنون موتاهم فى أغلب الحالات تحت أرضية بهو المنزل الذى يعيشون فيه أو تحت إحدى الحجرات ، ولو أنهم فى بعض الحالات كانت لهم جبانات خارج المدينة . أما عقيدتهم فى الحياة بعد الموت فإنها كانت غامضة وكانوا يتصورون أن الموتى يعيشون فى مكان مقبض تحت الأرض مليء بالظلام والتراب ، يذهب إليه الناس جميعا لافرق بين صالح ومجرم ، وانتشرت بينهم عقيدة بأنه إذا مات انسان فإنه سيحتاج فى حياته الثانية إلى أهل بيته ، فحرصوا على أن يضعوا معه ما يجنبه الحياة فى العالم الآخر بدون خدم وحيوانات . وقد رأينا فى حفائر مقابر أمراء أور الأوائل جثث الحرس والخدم من رجال ونساء والثيران ما زال مشدودا عليها فى المركبات ، قتلوها جميعا على باب حجرة الدفن لتلحق بسيد ها ولتستمر فى خدمته بعد الموت .

وانتشرت بيوت الأهالى حول المعبد وكانت مستطيلة الشكل ومبنية بالطوب اللبن ، وكان البيت - فى أقدم العهود - يحتوى على قاعة رئيسية فيها أبواب توصل إلى الحجرات الأخرى . وفى العصور التالية كان يتوسط المساكن فناء غير مسقوف ولهذا كانت تلك المساكن ظليلة غير حارة ومناسبة لمناخ البلاد ، وكان الضوء يغشاه

من نوافذ على مقربة من السقف أو من أبواب ذات عقود عالية تفتح على فناء الدار أما المدن فكانوا يقيمونها فوق أكوام صناعية ، ولم يكن يزيد عرض إحداها عن بضعة مئات من الأقدام ولكنها اتسعت مع مرور الزمن وزاد عدد سكانها ، ولكنها مع ذلك ظلت دائما محدودة ولم تتم واحدة منها نموا كبيرا كما نعهده الآن في المدن الهامة .

كان الطوب اللبن هو المادة الأساسية لجميع المباني العادية في العالم القديم ، وكانت مساكن الفقراء في بلاد الشرق القديم ، وما زالت حتى الآن ، تبنى بهذا النوع من الطوب . ويؤثر المطر كثيرا على جدران المساكن ولا تلبث أن تهدم بل إن بعضها ينهار إذا أمطرت مطرا شديدا في يوم من الأيام . وإذا حدث ذلك في أيامنا الحاضرة فإننا نرى أن أصحاب هذا المسكن يسوون الأنقاض ويبنون مسكنا جديدا فوق مسطحها . وهكذا فعل من سبقوهم خلال آلاف السنين فأصبحت المدن بعد مرور القرون كوما عاليا من الأنقاض تعلوه البلدة التي يسكنها الناس . وفي كثير من بلاد الشرق ما زال السكان يعيشون فوق أنقاض مساكن آبائهم وأجدادهم ، ولكن هناك أيضا كثير منها هجره سكانه وأصبح أكواما خربة ، نرى من أمثالها الكثير في جميع بلاد الشرق الأدنى مثل كوم طروادة في آسيا الصغرى ، وتل مجدو في فلسطين ومدينة الفنتين في مصر .

وكانت الرقم - أى اللوحات الطينية - التي تسجل حسابات المنزل والخطابات والمطالبات والإيصالات والمذكرات ، تظل تحت أكوام المساكن التي تهدم وتغطها أنقاض الجدران ، أما المعابد والمباني العامة فإن الرقم التي تظل فيها كانت تحتوى في أغلب الحالات مدونات حكومية هامة ، وفي مساكن الحكام وفي مكاتبهم توجد رقم تحوى قصص الحرب والغزو .

وكثيرا ما كان يهتم أحد الحكام بتدوين وثائق تتعلق بتشييده للمعابد أو للقصور

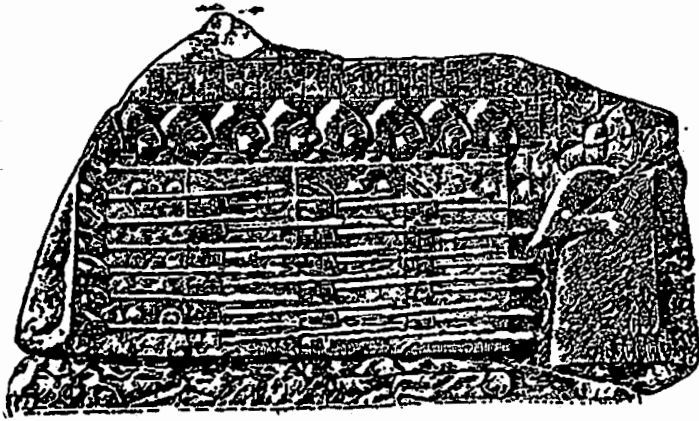
ووثائق عن انتصاراته وأعماله العظيمة ، وكان يضع أمثال هذه الرقم في أساس مبانيه حتى يتسنى لمن يأتي بعده من الحكام أن يجدها ، وليست هذه الرقم هي كل ما يمكن العثور عليه مدفونا تحت تلك الأكوام بل غالباً ما يعثر الأثريون هناك ايضاً على قطع فنية منحوتة .

وتحت هذه الأكوام ما زالت بقايا المساكن البابلية ذاتها . ولكن الحجر لم يستعمل إلا نادراً في مباني تلك المدن التي تهدمت . ومع هذا فإن كوم أى مدينة منهاغنى بما بقى فيه وهو مستودع للحضارة البابلية القديمة .

فمن خرائب المدن السومرية ، عرفنا كيف كانت الحياة في شوارعها المزدهمة وعرفنا أن أهم طبقات السكان هم الملاك الاحرار ، الذين كانوا يملكون الاراضى التي يعمل فيها أرقاؤهم أو التجار الذين كانوا يملكون القوافل أو يرسلون بضائعهم في القوارب التي تغدو وتروح في النهر ، هؤلاء هم الطبقة المتوسطة ، ولكن الموظفين والكهنة كانوا الطبقة الأرستقراطية في المدينة . وكانت كل مدينة من هذه المدن وما حولها من حقول ، تمتد إلى مدى بضع أميال وتكون وحدة سياسية مستقلة أو ولاية يحكمها ملك ، وتدلنا الوثائق المكتوبة وغيرها من الآثار على نوع الحياة التي كانت تسير عليها تلك المدن السومرية القديمة ، ونعرف منها أيضاً ما أحرزته من تقدم مدى أربعة قرون . وقد بدأت هذه الوثائق منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل عام ٣٠٠٠ ق. م . ، وفيها نرى فضل الحكام السومريين على تلك المدن رغم ما كان يعانيه الناس من فداحة الضرائب وما سببته من ظلم ، فقد كان حاكم المدينة ذا نشاط خاص في أيام الحرب ، زيادة عما تفرضه عليه الواجبات الدينية الكثيرة ذات المظاهر المتعددة ، وكان من أهم واجباته العناية بكل شئون الري ، لأن القنوات والجسور كانت في حاجة مستمرة إلى الإصلاح فلو أهملت لتعرضت الحقول إلى الجفاف والمحاصيل إلى الضياع وتنتشر المجاعة بين الناس إذا توقف جريان المياه .

وتقص علينا هذه الوثائق قصة أكثر من واحد من هؤلاء الحكام وتصوره لنا وقد خرج للحرب على رأس جنوده المدججين بأسلحتهم يسرون في كتاب ذات صفوف متراسة أو يحملون على أعدائهم في مركبات ثقيلة ذات عجلات أربع ، فقد كان السومريون أقدم شعوب العالم في تنظيم الحرب وجعلوا منه فنا رفيعا .

كانت الدويلات السومرية متعددة وحدودها متقاربة ، ولهذا كانت الحروب بينها كثيرة ولم تتمتع بالأمن فترات طويلة لأن كل دويلة منها كانت تحاول أن تستولى لنفسها على جزء من أراضي غيرها وكان سكان المدينة يسارعون وراء ملكهم لطرده المعتدين ، ولهذا فن العبت أن نتحدث بشيء من التفصيل عن التاريخ السياسي خلال هذا العصر المبكر .



شكل ٥٩ : ملك أحد المدن السومرية يقود كتيبة من جنوده يسير الجنود معا في صفوف متراسة خلف ملكهم الذي نراه في يمين الصورة وقد تهشم وجهه من هذا الحجر . وهذا هو أقدم مثل لتجميع الرجال لتكوين وحدة حربية واحدة هي الكتيبة . ذلك هو الفصل الاول في التاريخ الطويل لفن الحرب ، بدأ به أحد شعوب آسيا ، في الوقت الذي لم تعرف فيه مصر مثل هذا التنظيم . ونرى في الرسم الجنود السومريين وقد شرعوا حراهم للقتال ولكنهم لا يحملون أقواسا . وكل منهم يحمل درعا كبيرا يغطي جسمه ويابسر خوذة ضيقة - من المحتمل أن تكون من الجلد - فوق رأسه . وهم مرسومون بمشون قو جث رمزا لانتصارهم على أعدائهم .

وعثر على أجزاء من قوائم بأسماء ملوك بعض الدويلات السومرية . وهي
ألسماء الحكام الذين خلف بعضهم بعضا وكانوا القوى المسيطرة في ذلك السهل الذى
أصبح يسمى بلاد بابل فيما بعد ، وليس من المعقول أن نقبل تسلسل الملوك كما جاء
في القوائم ، لأنه كثيرا ما كان يحدث أن مدينتين أو أكثر اتتا قويتين في مكان
محدود أى قريبة من بعضها ومعاصرة لبعضها ، وفضلا عن ذلك فإن الزمن المدون
فيها لمدة حكم بعض الملوك طويل جدا إلى حد لا يمكن تصديقه ، ولكن بالرغم
من أن هذه الجداول ناقصة جدا فإنها تحوى بعض الحقائق التى أكدتها
الإكتشاف الأثرية في أور والوركاء ونيبور وأدب وغيرها . ولناخذ مثلا
مدينة أور التى ذكرت في قوائم الملوك بأنها ثالث دويلة بعد الفيضان ، اذا سبقها
كيش والوركاء .

ظهرت في حفائر أور ونيبور نقوش تشير إلى حكام في أور برزت أسماؤهم في
قوائم الملوك الخاصة بذلك العصر ، وكان أول ملك في هذه المجموعة هو الملك
« مس - أنى - بادا » ، وقد خلفه ابنه « آن - أنى - بادا » ، الذى بنى معبداً صغيراً للآلهة
البقرة في ضاحية من ضواحي أور وسجل هذا العمل على لوحة من المرمر وضعت
تحت أساس المعبد ، وحكم بعد « مس - أنى - بادا » أربعة ، وكان هؤلاء الملوك
الخمسة هم الأسرة الأولى من ملوك أور

وكشفت حفائر البعثة الإنجليزية الأمريكية في خرائب مدينة أور عن مدينة
بلغت حدا عظيما في وقت مبكر جدا . فقد عثر رجال هذه البعثة تحت أنقاض المباني
التهادمة على مقابر لأشخاص ذوى أهمية كبرى من المحتمل جدا أنهم كانوا حكام
تلك المدينة ، تلك هى المقابر التى سبق أن تحدثنا عنها ورأينا رسمها في شكل ٥٧ .
بنى أهل أور القدماء تلك المقابر من الطوب اللبن والأحجار وكانت محتوياتها تنافس

في الفخامة ما عثر عليه في مقابر بمصر في ذلك العهد . كان أحد الأبرام يحمل كساء للرأس مصنوعا من صفائح سميكة من الذهب وهو على درجة كبيرة من الفخامة ومزخرف برسوم دقيقة جداً حفرتها يد الصائغ الماهر، وكان هذا الأمير يعلق في حزامه خنجر من الذهب في غمد من الذهب المشغول المفرغ ؛ ووضعوا إلى جانبه في قبره أواني الذهبية التي كانت تزين مائدة طعامه أثناء حياته ، وكل هذه الأشياء



شكل ٦٠ - آناء من الفضة لاحد ملوك المدن السومرية

يزين هذا الاناء شريطان يدوران حوله وفيهما زخارف محفورة تمثل أحسن تمثيل للفن الزخرفي في الحضارة السومرية المبكرة . ونرى في الشريط العريض نسرا له رأس أسد يقبض بمخالبه على أسدين يعض كل منهما تيتلا . وهذا التماثل في ترتيب رسم الحيوانات من أهم ما وصل اليه الفن السومري . وانتقلت هذه الرموز التي تمثل أزواجا من حيوانات ترسم متقابلة أمام بعضها إلى أوروبا وما زالت باقية حتى الآن في الرسم الزخرفي وفي الرنوك أو في الرسوم المميزة لبعض الملوك والامم . وقد ظهر النسرة في أعلام ملوك النمسا وبروسيا وغيرها من أمم أوروبا وأخيرا وصل إلى أمريكا ، وكلها مستمدة من النسرة السومرية الذي يرجع تاريخه إلى ما قبل خمسة آلاف عام .

التي أخرجتها يد الصائغ ترينا المهارة الفائقة والدقة الفنية كما ترينا أيضا سمو الذوق في تصميم أشكالها .

وفي الأسرة الأولى في أور كان الملوك قد وصلوا في حضارتهم إلى الحد الذي مكنتهم من تشييد معبد الإلهة البقرة وتزيينه بتماثيل تستدعي الإعجاب ، إذ وضعوا على الافريز الذى أمام المعبد تماثيل ثيران قوية مصنوعة من النحاس المصبوب ، بينما وقف نسر هائل له رأس أسد ناشراً ذراعيه فوق غزالين - وكلها من البرونز - كأنما يحمى بوابة المعبد . أما الحائط الأمامية فكان يزينها شريط عريض من الزخارف تمثل الرعاة وهم يحملون الأبقار ، وغيرهم من العمال وهم يصفون اللبن ويصنعون الزبد . كان هذا الافريز في الأصل موضوعاً فوق لوح ، حرفاه العلوى والسفلى مصنوعان من النحاس ، أما صور الأشخاص والحيوانات والأشياء الأخرى فكانت منحوتة من قطع من المحار أو الحجر الجيري موضوعة في أرضية مصنوعة من طبقة رقيقة من الرفت الأسود التي ملأت الفراغ بين خطى النحاس . ولسنا نتوقع من تلك التماثيل الكبيرة التي تزين واجهة البناء أن تكون دقيقة الصنع مثل عمل الصائغ أو حفار الأحجار الثمينة ، ولكن النقوش وغيرها من الأشياء المنحوتة تظهر لنا الروح الفنية والمهارة الفائقة التي وصل إليها هؤلاء السومريون .

وكان التفات الكبير على عمل الأختام سبباً في تقدم صناعة حفر الأحجار ووصولها إلى درجة رقيقة من التقدم ، فقد كان السومري يصمم بختمه على الطين اللين لتقوم مقام التوقيع باسمه ، وهذه الأختام الشخصية هي أقدم ما وصل إلينا من أختام وكانت تختلف في أشكالها فمنها المستدير ومنها البيضاوى الشكل ومنها ما كان مربعاً أو مستطيلاً . وفي أكثر الأحيان كانوا يرسمون على الظهر المحدودب للختم شكلاً لأحد الحيوانات ،

ومع مرور الزمن ظهر ختم اسطواني الشكل ، حل محل النوع القديم من الأختام ، وكانوا يحفرون جوانب هذا الختم الاسطواني برسوم جميلة وأحياناً يكتبون عليها اسم صاحبها ، وكان تمرير هذا الختم الاسطواني على الطين اللين يقوم مقام التوقيع ، شأنه في ذلك شأن الختم الآخر ، ولم يلبث حفارو الأختام إلا قليلاً حتى أصبحوا سادة ثابتي القدم في صناعتهم وما زال أثرهم باقياً حتى الآن في فنوننا الزخرفية .

ويبدأ تاريخ سومر - حسب ما وصلت إليه معلوماتنا حتى اليوم - بالعصر الذي تنتمي إليه حضارة أور . فقد أثبتت النقوش أن د مس - أنى - بادا ، ملك له وجود تاريخي ، وهو أمر لم يتيسر لغيره من الملوك الذين حكموا قبله ووردت أسماءهم في قوائم الملوك ومن الجائز أن مدناً أخرى كانت مزدهرة في الوقت نفسه في سومر وكان تقدمها في الثقافة لا يقل عن مدينة أور ولتضرب مثلاً بمدينة د لجش ، التي كشفت الحفائر فيها عن عدد من المباني الهامة شبيهة بمباني الأسرة الأولى في د أور ، ومن المحتمل أن سقوط أسرة أور الأولى كان نتيجة حرب بينها وبين د لجش ، لأن أحد حكام هذه المدينة يدعى أنه أخضع مدينة أور لسلطانه . ومع ذلك فإنه مسطور في قوائم الملوك أن ملكة د أوان ، استولت على د أور ، وليس في تلك القوائم ذكر لحكام د لجش .

أما مدينة د أوان ، فإنها كانت في أرض د عيلام ، ومن المحتمل أن د أور ، كانت في ذلك الوقت تحت حكم أجنبي . من ذلك نرى أن محاولة معرفة الوضع الصحيح لتاريخ سهل د شنعار ، ليس من الأمور السهلة ، ولن يتيسر لنا أن نصل إلى الحقيقة أو نرتب معلوماتنا المشوشة إلا بعد أن تمكنا الحفائر من العثور على المدن السومرية التي نجهل أماكنها حتى الآن . وقد أوصلتنا الحفائر التي تمت حتى اليوم إلى كثير من المعلومات وعرفنا منها أن جميع الدويلات السومرية كانت تمر

في فترات غير آمنة يكثر فيها النزاع عندما يهاجمها العدو فيغزوها ويعن فيها نهياً ، ولكن رغم ذلك كانت هذه الدويلات تقضى أيام السلم بين فترات الحروب لتنهض من كبوتها وتستعيد مجدها .

وانتهت هذه المنازعات الداخلية بين دويلات سومر - ولو مؤقتاً - عندما هاجمها غزاة ساميون ، فقد بدأ بدو الصحراء يستقرون في سهل « شينغار » منذ بضعة قرون ، ومن المحتمل أن يكون بعضهم قد أتى من الشمال الغربي وسار في محاذاة نهر الفرات ، لأن عدداً كبيراً منهم استقر في ذلك المكان الضيق الذي يقرب فيه نهرا دجلة والفرات من بعضهما وتصبح المسافة بينهما نحو عشرين ميلاً .

وأخيراً أصبح هذا الجزء من السهل يسمى « بلاد أكد » وأصبح اسم السكان الساميين « الاكديين » ، وهي منطقة ذات موقع تجارى ممتاز على الطريق الموصل بين بلاد الرافدين والبلاد الجبلية التي في الناحية الشرقية منها وكانت تجارتها مصدر ربح ورفاهية لسكانها .

الانتصار السامى الاول عصر سرجون

ظهر فى القرن السادس والعشرين ق . م . فاتح من الجنس السامى فى د أكد ،
إسمه د سرجون ، (١) ، كان ماهراً فى الحرب فتمكن من هزيمة السومريين وجعل
من نفسه سيداً على سهل د شنعار ، بأ كمله . هزم الدويلات السومرية وجنودها حملة
الحراب وخضعت له كل البلاد حتى مصب نهري الدجلة والفرات . ولم يقف الملك
سرجون عند هذا الحد بل بعث بجنوده إلى منطقة الخليج الفارسى لمهاجمة عيلام .
وقاد سرجون رجاله الأكديين الذين كانوا يتسلحون بالقسى من جبال عيلام
الشرقية ، واتجه بهم غرباً وصعد بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل إلى شاطئ البحر
الأبيض المتوسط . وهناك قول ، بأنه أرسل سفناً لاختضاع جزيرة قبرص وربما
حدث صدام بين أسطوله وبين السفن المصرية التى كانت - كما سبق أن قلنا - تجوب
مياه ذلك البحر ، وترسو من آن لآخر فى موانئ المدن الفينيقية ؛ وليس مستحيلاً
أن تقود الصدقة فى يوم من الأيام إلى اكتشاف بعض الرقم التى كان يتبادلها ملك
بلاد الفرات فى ذلك الوقت مع ملك وادى النيل الذى كان يعيش فى قصره الفخم
فى منف

ومن المحتمل جداً أن سرجون واصل زحفه بعد أن وصل البحر الأبيض
المتوسط فذهب شمالاً متوغلاً فى المناطق الشرقية من آسيا الصغرى لى يحى
التجارة التى كانت مزدهرة إذ ذاك بين مناطق مناجم الفضة فى الشرق الجنوبى من
آسيا الصغرى وبين تجار بلاد الرافدين . كان سرجون أول زعيم فى تاريخ الجنس

١ - يضع بعض الباحثين الملك سرجون الأكدي فى القرن الرابع والعشرين ق . م . ويحددون غام

٢٣٥٠ ق . م . لبدء حكمه (الحرب)

السامى وكان أول حاكم يؤسس مملكة كبيرة في غرب آسيا تمتد من عيلام في الشرق إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتصل أيضاً إلى أعالي نهري دجلة والفرات في الشمال والغرب . وتركت فتوحاته العظيمة في غرب آسيا ذكرى لم يقو الزمن على محوها بالرغم من أن حياته انتهت بالقتل على أثر ثورة قامت ضده ، ولكن أحد أحفاده وهو « نرام - سين » استأنف فتوحاته وأقام آثاره في الفرات الأعلى .

لم يبق الأكديون بعد استقرارهم في الهلال الخصيب على ما كانوا عليه من بدو ، بل أدخلوا تغييرات كثيرة في أساليب حياتهم ، فبنوا لهم مساكن ثابتة وبنوا بيوتاً من الطوب اللبن وتركوا خيامهم وبهذا لم يعد ميسوراً لهم أن ينصبوها في المساء في مكان ما ، ليطووها في الصباح إلى مكان آخر .

وقد كشفت الحفائر منذ سنين قرينة في تل « إشنونا » عن المقر الرسمي لأحد الحكام المحليين في عهد الملوك الأكديين ، فلم يعد ذلك الحاكم يقيم في خيام كما فعل أجداده ، بل كان يقيم في بناء فسيح الأركان فيه بهوان ، وكان الجزء الخاص بعائلته مكوناً من صالة كبيرة يليها حجرة أخرى وعدة حجرات للخدم ، وحجرة استقبال وحجرة للنوم ومرحاض وحمام . وعمموا نظام البالوعات في جميع أجزاء القصر ، وكان المجرى الرئيسى لتصريف المياه مبنياً من الطوب اللبن ومقياً . وفي بعض المنازل الأخرى التي عاش فيها الأكديون ، عثر الباحثون على نوافذ ذات قضبان من الفخار وأبواب ذات عقود ، كما عثروا أيضاً على رسوم معمارية على الرقم ، وهذا دليل قاطع على عنايتهم بأمر البناء .

لم يكن هؤلاء الأكديين معرفة بالكتابة فاقتبسوا الكتابة المسارية عن السومريين ليكتبوا بها لغتهم السامية وكانت هذه هي المرة الأولى التي كتبت فيها لغة سامية ، واقتبس الأكديون أيضاً التقويم السومري والأوزان والمقاييس ونظام الأعداد وطرق التجارة . ولم يقف اقتباسهم من السومريين عند تلك

الأشياء التي تفيدهم في حياة السلم بل عرفوا منهم أيضاً ما يفيدهم في الحرب ، ففعلوا كيف يصنعون خوذات من الجلد أو من النحاس تزن الواحدة منها أكثر من رطلين ، وكانت تلك الخوذات السومرية أقدم محلولة للانسان لاستخدام المعدن لحماية نفسه في الحرب ، وكانت هذه الخوذات نقطة الابتداء التي قادت الانسان فيما بعد إلى اختراع المراكب الحربية ذات الدروع المصنوعة من الصلب وأبراج المدافع في العصور الحديثة .

وكان فن النحت السومري مصدر إلهام للأكديين . وأمامنا مثل على ذلك وهو لوحة الملك « نرام — سين ، المعروفة باسم لوحة النصر ، والتي عثر عليها في « سوسا ، وتوجد الآن في متحف اللوفر ، وهي التي لا يشك أحد في أنها من أعظم الأعمال الفنية في العالم القديم ، ويزيد في أهميتها أنها أقدم عمل فني عظيم أخرجه يد فنان من الجنس السامي ، ولم يمض زمن طويل حتى أصبح حفارو الأحجار الثمينة من الأكديين منافسين لمن علومهم هذه الصناعة من السومريين ، وما يدعو إلى الدهشة أن الفنانين الأكديين ركزوا اهتمامهم في أظهار التفاصيل الدقيقة في الأختام أكثر من اهتمامهم بالزخارف التي كان يعنى بها السومريون .

وبعبارة أخرى اقتبس الفاتحون الاكديون حضارة السومريين المغلوبين ؛ واختلط الساميون بسكان المدن غير الساميين في سهل بابل ، كما اختلط النورمانديون بالانجليز في انجلترا ؛ وفي أوقات الحروب كان الجنود الذين من أصل سومري يحملون حراهم ودروعهم ويسيرون إلى جانب سادتهم الساميين الذين لا يحملون غير القسي ، وفي أوقات السلم لم يستطع السادة الساميون الاستغناء عن الكتاب السومريين الحاذقين .

اتحاد السومريين والساميين ملوك سومر وآكد

حكمت عائلة سرجون نحو قرن ونصف من الزمان ، ولكنهم رغم نجاحهم في الحرب ، لم يستطع الملوك الأكديون منع الدسائس والانقسام بين رجال البلاط ، وكان عهدهم مليئاً بالثورات والاعتقالات ، وكان هناك مطالبون كثيرون بالملك إلى درجة جعلت الكاتب الذي كان يحرق قوائم الملوك عند وصوله لإثبات حوادث ذلك العهد ، أن يقع في حيرة يائسة فلا يزيد عن قوله « من هو الملك ؟ ومن هو غير الملك ؟ »

وزاد الطين بلة أن بعض سكان المنطقة الجبلية غزوا البلاد في ذلك الوقت التعس ، ولكن انتهى الأمر بهزيمتهم وطردهم ؛ وأصبح في استطاعة المـدـن السومرية أن تقف على قدميها مرة أخرى وتعيد سلطانها في البلاد . وأخيراً نهضت مدينة « أور » مرة أخرى ، وأصبحت لها الزعامة على غيرها . وأصبح للسكان الساميين الذين مضى عليهم عدة قرون في تلك المدن نفوذ في التنظيم الجديد ونرى بين أسماء الحكام المحليين كثيرين ممن تدل أسماؤهم على أصلهم السامي ، وأصبحت الأمة الجديدة تدعى باسم « سومر وآكد »

وازدهرت البلاد في تلك الأيام وبذل الملوك كل ما في وسعهم ليصلوا إلى أعلى مراتب الحضارة ، فحققوا ما نسعية الحضارة البابلية .

استمر حكم ملوك « سومر وآكد » نحو ثلاثة قرون ، كان القرن الأول منها عصر زفاهية تحت زعامة مدينة أور ، ثم تلاه قرنان مليتان بالتدهور فيما تلا ذلك : وبالرغم من أن الحفائر لم تكشف عن كثير من المدونات الرسمية في أور ، فإننا نعرف أنها تقدمت

في فتوحاتها نحو الشمال على طول نهر دجلة حتى شملت فتوحاتها بلاد « آشور » التي تظهر ابتداء من هذا الوقت في صفحات التاريخ . وأرسلت أور الحملات الحربية شرقاً إلى عيلام وغرباً على امتداد الفرات فوصلت إلى البلاد التي كان يقطنها قوم ساميون كانوا قد بدأوا يظهرن أيضاً وهم الذين نعرفهم باسم « العموريين » ،

كانت هذه الفتوحات سبباً في تجمع بلاد متعددة في غرب آسيا تحت حكم واحد وكانت النتيجة المترتبة على ذلك هي اتساع نطاق التجارة في غرب آسيا على صورة لم يسبق لها مثيل .

ونذكر كيف كان الناس في العهد الحجري يتاجرون في الكهرمان والظران وغيرهما ، ثم تطور الناس بعد معرفتهم للزراعة فأصبحت كيلة القمح أو الشعير وحدة لتسهيل التعامل . فإذا اشترى أحد الناس من جار له قارباً يساوي قيمة عشرين كيلة من الشعير ؛ ففي استطاعته أن يعطيه ثوراً قيمته خمسة عشر كيلة ويتبقى عليه بعد ذلك خمس كيلات يعطيها له .

وأخذت قيمة المعادن تزيد شيئاً فشيئاً وأصبحت وسيلة صالحة للتعامل وأساساً لقيم الأشياء التي يتبادلها الناس وكانت الفضة هي المعدن الذي أخذ يشق طريقه ليصبح في مكان العملة . وكما كان المصريون القدماء يستعملون حلقات من النحاس منذ عصر الاهرام للمعاملات البسيطة وحلقات من الذهب ذات وزن معين للمعاملات الكبيرة ، فإن البابليين القدماء كانوا يتعاملون بقطع من الفضة وزن الواحدة منها « شكل » ، أى جزء على ستين من وزن الرطل (المينا) وكانت هذه القطع الفضية على هيئة قرص مستدير لا يزيد في حجمه إلا قليلاً عن العملة الفضية التي قيمتها قرشان ؛ وأصبح ميسوراً للبابليين أن يحددوا الاسعار وقيم الأشياء بما يقابل ثمنها من قطع الفضة .

وكانت قيمة أى وزنة من الفضة ربع نفس الوزنة إذا كانت من الذهب ؛ ولكن قلت قيمة الفضة بعد ذلك عندما كثر تداولها بينهم .

واستلزمت التجارة تحرير كثير من الوثائق والحسابات وكانت كلها تكتب على رقم كثيراً ما عثر عليها الاثريون عند حفرهم لمدن هذا العصر ، وإذا فحصنا هذه الرقم نجد أنهم كانوا يستعملون صيغاً خاصة فى تحرير معاملاتهم التجارية مازلنا نستعملها حتى الآن ، وكانوا بوجه عام أول شعوب العالم الذين جعلوا تحرير المعاملات المالية أساساً فى الاعمال التجارية .

ولم يلزم البابليون أنفسهم باتباع أساليب خاصة فى التجارة فقط ، بل ألزموا أنفسهم أيضاً باتباع قواعد خاصة فى بعض العادات الإجتماعية ، وانتهى بهم الأمر أن أصبحت هذه القواعد قوانين تنظم الحياة بين الناس ويجب عليهم طاعتها . وأصبحت مدينة أور قوية غنية فى فترة قصيرة بعد أن تمكنت من ضم منطقة واسعة إليها ، منطقة يحكمها قانون ينظم شئونها ، وتزدهر فيها الصلات التجارية مع شعوب أخرى بعيدة عنهم .

ونرى أثر ذلك كله فى المعبد الذى شيده ملوك أور ، والذى كشفت عنه الحفائر حديثاً وثبت منها أنه بنى فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهو دليل مادى قوى على ثراء المدينة فى ذلك العهد .

ولم تكشف الحفائر حتى الآن عن آثار أدبية فى مدينة أور أثناء حكم ملوك سومر وأكد ، ولكننا نكاد نجزم بأن ذلك التطور الأدبى الذى نراه فيما بعد فى المدن الأخرى التى ورثتها ، إنما بدأ فى أيام ملوك أور .

ولم تصل إلى أيدينا الرقم الأصلية التى تحتوى على آداب ذلك العصر ولكن كتب المدارس وبعض الرقم التى كان يتمرن فيها التلاميذ هى التى أبقى عليها الزمن وأصبحت فى أغلب الحالات مصدرنا الوحيد لدراسة بعض الوثائق الأدبية الهامة ، إذ كان فى المدارس رقم تحوى مؤلفات فى الأجرومية وقواميس للاصطلاحات وجداول

للعلامات الكتابية ، وكان في استطاعة التلاميذ ، أن يذاكروا الحساب والاجرومية في الرقم التي في المدرسة ، وكان يستطيع الواحد منهم أن يذهب إلى الرفوف التي توضع فوقها الرقم المختلفة ، فيجد أبحاثاً في الطب ومعالجة الامراض التي كانوا يعتقدون أن السبب الاساسي لظهورها هو احتلال الشياطين والارواح الشريرة لجسم الإنسان .

وأراد أهل سومر وأكد أن يجدوا جواباً لما يطراً على أذهان الناس في أول جهودهم من تساؤل عن الموت والحياة ، فوضعوا قصصاً بسيطة تحدثوا فيها عن مخاطر الراعي « إاتانا ، عندما أصاب أغنامه العقم ولم تعد تلد له أحمالاً صغيرة . صعد « إاتانا ، على ظهر نسر واتخذ طريقه نحو السموات باحثاً عن عشب أصل



شكل ٦١ : ااتانا يطير في السماء

يجلس ااتانا على ظهر نسر يطير وقد وضع ذراعه حول عنقه ونرى فوق ااتانا في يمين الصورة منظر القمر كما نرى في الارض كلبين ينبجان وفي يسار الصورة نرى راعياً ومعه ثلاث عنزات ، وأمام العنزات يسير شخص آخر وقد رفع ذراعه ، وكلهم بما فيهم الحيوانات ينظرون مدهوشين نحو ااتانا الذي رأوه بأعينهم يطير في السماء

وفي الجزء العلوي من الجهة اليسرى نرى فخارياً يصنع بعض الاواني وأمامه خباز يصنع خبزاً مستديراً .
وهذا الرسم مأخوذ من طبعة أحد الاختتام فوق رقيم من الطين

الحياة . وبينما كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق رغبته ، سقط ثانية على الأرض ، وهذه القصة هي أقدم ما عرفناه عن محاولة الإنسان للطيران .

وهناك قصة أخرى ، هي قصة صياد السمك « أدابا ، الذى اشتدت به ثورة الغضب ، فكسر جناح آلهة الرياح الجنوبية عندما قلبت قاربه فى الماء فدعاها إله السماء إلى عرشه وسأله عما حدث ثم رضى بعد ذلك عنه ، وقدم إلى « أدابا ، خبز الحياة وماءها ، ولكن « أدابا ، كان سيء الحظ فأعماه الغضب وملأت الشكوك نفسه فرفض أن يأكل ما قدمه الإله له ، وبذلك ضيع على نفسه وعلى بنى الإنسان جميعاً فرصة الحصول على الكنز الأكبر وهو الخلود فى الحياة . ولو أمعنا النظر فى تحليل هذه القصة لوجدنا أنها محاولة لحل لغز الموت الذى يشغل دائماً ذهن البشرية ، وهناك قصة أخرى ، هي قصة البطل « جِلْجَمِش ، الذى خاطر وأتى أعمالاً عظيمة ولكنته فشل أيضاً فى الحصول على الخلود .

وفشل كل من حاولوا الوصول إلى سر الخلود ، اللهم إلا واحداً منهم فقط ، وقصته من القصص الغريبة ، نقرأ فيها كيف نجما هو وزوجته فى فلك بعد الطوفان العظيم ، ثم أخذتهما الآلهة بعد ذلك إلى النعيم المقيم .

ولم يؤمل ملوك سومر وأكد فى حياة سعيدة بعد الموت شأنهم فى ذلك شأن عامة الناس ، لأن الخلود كان وقفاً على الآلهة دون سواهم .

وعرف العبرانيون فيما بعد بعض هذه القصص ، وخاصة ما كان يختص منها بخلق العالم وبالطوفان ، وزادوا على النص الأصيل بعض تعبيرات وتأثيرات من الحياة السومرية والحياة السامية ، ووجدت هذه القصص طريقها إلى كل من اللغتين السامية والسومرية .

وكانت أكثر هذه القصص تكتب باللغة السومرية القديمة التى كانوا يعتبرونها لغة لها قداستها ، واستمرت بينهم كلغة مقدسة مثل اللغة اللاتينية فى وقتنا الحاضر

في الكنيسة الكاثوليكية ، وبالرغم من زوال النفوذ السياسي للبدن السومرية فإن القصص الدينية ظلت تكتب باللغة السومرية قروناً عديدة بعد أن انصرف الناس عن الكلام بها ، وماتت من بينهم كلغة للتخاطب .

ووصلت الحضارة أثناء حكم ملوك سومر. وأكد إلى أعلى مراتبها عندما امتزجت الحضارتان السومرية والآكدية، وأصبحت حضارة واحدة لها طابعها المميز وهي ما نسميه الحضارة البابلية .

كان هذا العهد هو أعظم العهود في تطور حياة الانسان في سهل شنعار الذي كان عهداً مطبوعاً بطابع التوسع التجاري . ولم ينس الناس في مستقبل الأيام ما كانت عليه مدينة أور من فخامة ، وعظمة وعندما أخذ العبرانيون بأسباب الحضارة في فلسطين كانوا يفخرون بأنهم من نسل إبراهيم الذي كانوا يعتقدون أنه كان من سكان مدينة « أور » ، عاش فيها في أواخر أيام العصر الذي كنا نتحدث عنه .

الاتصار السامى الثانى - عصر حمورابى

«والعصر التالى له»

لم يكد يبدأ الألف الثانى ق. م. حتى سقطت مملكة سومر وأكد ولم تسترجع المدن السومرية بعد ذلك التاريخ مكاتها فى الزعامة السياسية .
ولم يكن القضاء على دولة «أور» فى نهاية القرن الثالث والعشرين ق. م راجعاً إلى الحروب التى كانت بينها وبين الدويلات المنافسة لها فحسب ، بل كان راجعاً أيضاً إلى غزو أجنبي رزئت به البلاد من الشرق والغرب فى وقت واحد فقد جاء العيلاميون من الشرق واستولوا على المدن السومرية وأسروا آخر ملوك «أور» ونهبوا مقابر الملوك السابقين ، وجاء من الغرب قوم آخرون من الساميين ، وهم «العموريين» وبدأوا يغزون بلاد «أكد» وتمكن زعماء العموريين فى النهاية من فرض سلطانهم على بعض المدن فى الشمال ، وفى منتصف القرن الحادى والعشرين ق. م . نصب أحد هؤلاء الزعماء نفسه ملكاً على بابل التى لم تكن حتى ذلك الوقت بلدأه له أهمية سياسية كبيرة .

واستطاع هؤلاء الحكام أن يظلوا أصحاب السياسة مدى ثلاثة قرون وجعلوا من مدينتهم «بابل» فى النهاية مركزاً هاماً تجمعت فيه قوتهم الحربية وحضارتهم وأصبح اسمها علماً على سهل شنعار القديم الذى سمي منذ ذلك الوقت باسم «بلاد بابل» .
ولم يتيسر للملوك العموريين الأوائل الذين حكموا فى بابل ، الاستيلاء على كل بلاد سومر وأكد ، واستمر صراعهم مع العيلاميين وقتاً طويلاً دون أن يحرزوا نصراً جاسماً عليهم .

وأخيراً جاء اليوم الذى تولى فيه العرش ملك يسمى «حمورابى» وكان ترتيبه السادس من ملوك بابل ، كان ملكاً ممتازاً قضى السنوات الثلاثين الأولى من حكمه فى تدعيم مركزه فى الجزء الشمالى من بلاد بابل ، ثم التفت نحو الجنوب فاتصر على

لحاكم العيلامي الذي كانت مدن الجنوب تحت إمرته ، وبذلك أصبحت مدينة « بابل »
في عهده المدينة الأولى في البلاد .
تولى حمورابي العرش في عام ١٩٤٨ ق . م (١) وظل سبعة وخمسين عاما على



شكل ٦٢ : خطاب كتبه حمورابي ملك بابل
نرى في هذا الخطاب أثر السرعة في الكتابة عندما أخذ الكاتب يحرر على
الطين اللين ما كان يمليه عليه سيده الملك حمورابي .
كانت أمثال هذه الرقم توضع في أفران لحرقتها بعد كتابتها ثم تغلف بعد
ذلك بطبقة أخرى من الطين يكتبون فوقها العنوان ، وكان ذلك الغلاف يكسره
من يتسلم الرسالة ويرمى به لعدم الحاجة إليه
وفي هذا الخطاب يأمر الملك حمورابي أحد الحكام المحليين أن يستمع الى
شكوى موظف يعتقد أنه مظلوم وأن القضاء لم ينصفه .

١ - هذا هو التاريخ الذي فضله المؤلف . ولكن هناك آراء مختلفة في تاريخ تولى حمورابي الملك
ويرى « دلابورت » انه تولى الملك في عام ٢٠٠٣ ق . م .

(Delaporte, Le Proche-Orient Asiatique, p. 120 3e Ed. 1948)

ولكن مورتجات وهو من أشد المؤمنين بالتقويم القصير الذي يقل بأكثر من مائتي سنة عن التقويم الطويل
يرى ان تولى حمورابي للملك كان في عام ١٧٢٨ ق . م .

Scharff-Moortgat, Aegypten und Vorderasien in Altertum, München 1950, p. 483

ولكن قبل مورتجات كان أولبرايت من المؤمنين بوجود النزول بتاريخ حكم حمورابي الى عام ١٨٠٠

ق . م . بدلا من عام ألفين . (Albright, BASOR, 77, 1940)

العرش ، قضى منها الأعوام الاثني عشر الأخيرة في هدوء وطمأنينة بعد أن دانت له الأمور فالتفت نحو توطيد ذلك الملك فأثبت أنه بطل في السلم ، كما كان بطلا في الحرب ، وخلد اسمه في التاريخ على أنه ثاني حاكم عظيم من الجنس السامى بعد الملك سرجون .

رمى حمورابي بناظره إلى تلك المدن البابلية التي كانت تعج بالحياة وصمم على أن ينظم أمورها على صورة لم تعرفها من قبل فقم له ما أراد . وأهم المصادر التي أمدتنا بالمعلومات عن أعمال هذا الرجل العظيم ، هما أثنان ، يرجع تاريخ كل منهما إلى مايقرب من أربعة آلاف عام ، وأولها مجموعة خطباته ، وثانيهما اللوحة العظيمة التي سجل عليها قوانينه . فأول مرة في التاريخ نستطيع أن نعرف من تلك الخطابات دقائق الحياة المليئة بالعمل التي كان يحياها أحد الحكام الشرقيين في آسيا . فترينا تلك الخطابات الملك حمورابي جالسا في قاعة الحكم في قصره في بابل وقد جلس كاتم سره إلى جواره . وأخذ الملك يملئ عليه ما يريد من رسائل في جمل مقتضبة واضحة المعاني تحمل أوامره إلى ولايته الذين عينهم على المدن السومرية بعد أن أصبحت خاضعة له . فيأخذ كاتم السر قلبه من الكيس الجلد المعلق في حزامه ويسطر له فوق الرقيم الصغير سطورا من الكتابة المسماة . وبعد أن ينتهي الكاتب من عمله يرش الرقيم اللين بمحنة من التراب الجاف لمنع الغلاف الطيني الذي ياف به من الالتصاق بالكتابة ، ويكتب بعد ذلك عنوان المرسل إليه ثم يبعث بالرقيم ليوضع في الفرن .

ويأتي الرسل إلى الملك بخطابات ماثلة ، يفتحها كاتم السر الذي يثق فيه سيده فيكسر الأغلفة أمام الملك ويقرأ بصوت مرتفع ما يبعث به موظفوه من جميع أنحاء المملكة . ويملي الملك ردوده في الحال . فمثلا لقدفاض نهر الفرات وسبب بعض الخسائر وتوقفت الملاحة بين مدينتي « أور ، و « لارسا ، ووقف صف طويل من

السفن لا يستطيع السفر ، فيبعث الملك برده توأ ، آمرأحاكم « لارسا » بتطهير
المجرى في الحال لتواصل السفن سيرها .

ويهتم الملك اهتماما خاصا بقطعان أغنامه ، وكأنما هي الغريزة البدوية مازالت في
دمه ، فيأمر الموظفين ليجيئوا إلى بابل للاحتفال بقص أصواف الأغانم في فصل
الربيع ، كأنما مثل هذا الحادث عيد من الأعياد الهامة .

ويتقدم التقويم شهرا كاملا عن الموسم المعتاد ، فيرسل الملك خطابا دوريا إلى
جميع الحكام قائلا : « نظرا لظهور عجز في السنة ، احتسبوا الشهر الذي يبدأ
الآن أنه شهر أيلول الثاني ، ولكنه يلفت نظر الحكام إلى أن جميع الضرائب
التي تكون مستحقة في الشهر الثاني يجب أن تحصل ولا تؤجل إلى الشهر الذي
يليه ، لأن تقديم الشهر يجب ألا يتسبب عنه أى تاخير في الضرائب .

ويلفت الملك نظر جامعي الضرائب المتأخرين في التحصيل ويذكرهم بشدة إلى
ضرورة تأدية واجبهم ، والانهاء منها دون أى تاخير . ويوافق الملك على توقيع
العقاب السريع على موظف متهم بالرشوة ، ويمكننا أن تصور الملك وقد اكفر
وجهه وهو يأمر باعتقال ثلاثة من موظفي باب قصره الذين غضب عليهم . وفي
أكثر من مرة يذكر الملك حاكم « لارسا » بضرورة تنفيذ ما يصدر إليه من
أوامر على أسرع وجه .

وكم من متظلم كان يأتي إلى الملك إذا أعياه نيل حقه على أيدي القضاة في مدينته .
فكان هؤلاء المتظلمون يأتون إلى حمورابي وهم واثقون من حسن معاملته ولا يرد
أحدهم خائبا . وها هو رئيس خبازي المعبد ، تصدر إليه أوامر الملك بأن يسافر إلى
مدينة « أور » ، ليفنى بأمر أحد الأعياد الدينية . ولكنه يتظلم من هذا السفر
لأنه سيحرمه من وجوده في بابل عند نظر قضية له ، ويرى حمورابي أن الرجل
على حق فيأمر بتأجيل القضية .

ولا يقل اهتمام حمورابي بالشئون الدينية عن اهتمامه بإقامة العدل ، لأن كثيراً من خطابه التي كان يملئها كانت تختص بملكات المعابد وإدارتها التي كان يظهر دائماً عنايته بها .

كانت عينه لاتغمض ولا تنام، مهتماً بكل شئون البلاد ، قوى الشكيمة ، سريع البت في الأمور ، أدرك ذلك الملك أن الضرورة تقضى بتوحيد القوانين وقواعد لمعاملات التجارية في البلاد . وكان بعضها يتعارض مع البعض ولهذا جمع كل القوانين والمعاملات المدونة ، سواء أكانت لتنظيم التجارة أو الحياة الاجتماعية منذ أيام السومريين القدماء .

بَوَّبَ حمورابي تلك القوانين وأدخل عليها تحسينات وتعديلات كثيرة كما ألهمته حكمته ثم جمعها كلها في مجموعة واحدة من القوانين . ولم يكتبها باللغة السومرية مثل بعض القوانين القديمة بل كتبها باللغة السامية التي كان يتكلم بها الأكديون والعموريون ، ثم أمر بنقشها على لوحة عظيمة من الحجر ، نراه في أعلاها يتلقى القانون من إله الشمس ، وضع هذه اللوحة وعلى صفحتها القانون الجديد في معبد الإله العظيم « مردوخ » ، في مدينة بابل ، وأبقى الزمن على هذه اللوحة حتى الآن ، وهي تحوى دون شك أقدم مجموعة من القوانين القديمة ، وكثيرا ما يعثر رجال الآثار على بعض أجزاء من قانون حمورابي مكتوبا على رقم كانت تحفظ في قاعات الحاكم للرجوع إليها .

وينص هذا القانون على أن ينال الأراامل واليتامى والفقراء حقوقهم وألا يقع عليهم ظلم ، ولكن في الوقت ذاته يحتفظ بكثير من الآراء القديمة التي تدل على بساطة القلب ، ومن أظهر ما فيه مبدأ معاقبة المعتدى بأن يوقع عليه الضرر الذي سببه . وهو مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » ، وهو مبدأ ، كثيراً ، ما تسبب في الظلم عند تطبيقه تطبيقاً حرفياً . فمثلاً إذا انهار منزل وقتل ابن الساكن فيه فإن عقوبة

ذلك قتل ابن الشخص الذى بنى البيت، فيذهب ضحية ذلك شخص برىء هو الابن المسكين .

ورأى حمورابى ضرورة تنظيم أمور الزواج والاتفاق الشرعى بين الرجل والمرأة ، فأفسح لهذا الموضوع مكانا فى قوانينه . فاحتلت المرأة مكانا ممتازا فى بلاد بابل القديمة - كما كان شأنها أيضا فى مصر ، وكان فى استطاعة المرأة أن تمارس التجارة لحسابها الخاص ، وكان من بين النساء من احترفت مهنة الكتابة ، وكانت البنات تذهبن إلى المدارس لتلقى العلم جنبا إلى جنب مع الصبية .
وجاءت إصلاحات حمورابى بشمراتها فاتعشت البلاد انتعاشا لم تعرفه من قبل . وكانت حاصلات البلاد الزراعية وخاصة الحبوب والبلح هى المصدر الهام للثروة ، ولكن كان لدى السكان أيضا قطعان من الأغنام والماشية تدمم بالجلد والصوف ، وأصبحت الأخيرة صناعة من الصناعات الهامة لأن الملابس الصوفية كانت منتشرة الاستعمال بين سكان آسيا الغربية .

كان أهل بابل فى ذلك العهد يصنعون آلاتهم وأسلحتهم من البرونز ، ولم يكونوا ليجهلوا وجود الحديد وإنما كان هذا المعدن نادرا إلى درجة لم يجعل له أى شأن هام فى الصناعة ، ولم يعم استعمال هذا المعدن إلا بعد ألف سنة أخرى . وحافظ الجيش على هدوء البلاد وعلى سلامة حدودها ، وكانت قوافل الحمير التى تحمل تحارة البابليين تذهب من مدينة إلى أخرى ومن قوم إلى آخرين وهى آمنة مطمئنة . وكانت هذه الأسفار أمرا عاديا فى بلاد الفرات الأعلى فنشأت مراكز للتجارة ، وهذه مدينة من مدن الفرات أطلقوا عليها اسم «هرّان» ، أو «خرّان» ، وهى مشتقة من الكلمة البابلية «خرّانو» ، ومعناها «رحلة» . وكثيرا ما كانت بضائع التجار تملأ الأحواش مكدسة فى الغرائر ، وقد ميزوا كل حمل منها بلوحة صغيرة من الطين عليها اسم صاحبها . وكانوا يلقون بهذه العلامات التجارية عند



شكل ٦٣ : قوانين حمورابي - أقدم مجموعات القوانين

هذه القوانين منقوشة حول عامود من حجر الديوريت ارتفاعه ثمانية أقدام تقريبا ومجموع الكتابة أكثر من ٣٦٠٠ سطر. ٠ وفوق الكتابة نرى حمورابي الى اليسار واقفا أمام اله الشمس الجالس في الناحية اليمنى يتلقى منه القوانين

فتح تلك الغرائر ، ويعثر الحفارون على كثير منها الآن في خرائب المدن ونرى على أحد وجهيها اسم التاجر وعلى الوجه الآخر طبعة الجبل الذي كان يحزم الغرارة .
ووصلت هذه العلامات التجارية وكشوف الحساب التي كانت تصحب الأحمال ، إلى مناطق بعيدة ، وكان يقرؤها التجار المحليون في المدن السورية وفي البلاد الواقعة خلف ممرات الجبال في الشمال . وهكذا أخذت الكتابة المسمارية البابلية تشق طريقها تدريجاً في بلاد آسيا الغربية وبدأ تجار سوريا وكبادوسيا Cappadocia في آسيا الصغرى يكتبون كشوف الحساب والمطالبات التجارية وخطاباتهم على الرقم كما كان يفعل البابليون . وانتشر نفوذ حمورابي التجاري في غرب آسيا ، وظلت ذكراه بعد موته بأكثر من ألف سنة يرددها سكان سوريا وفلسطين في أيام العبرانيين ^(١)

وأصبحت طبقة التجار قوية وكانوا يسمون في بعض الأماكن بالحكام ، ولكن المعابد ومالها من موارد عظيمة كانت مركز الحياة التجارية ، إذ كانت مهيمنة على أراض كثيرة ، وكانت لها تجارة واسعة كما كانت تقرض النقود فان إقراض النقود كان أمراً عادياً ولكن أسعار الفائدة كانت مرتفعة ، إذ كان سعرها على قروض الفضة عشرين في المائة في السنة تدفع على أقساط شهرية ، ولما كثر تداول الفضة وأصبحت كثيرة في أيدي الناس قلت قيمتها ، وأصبح استعمال الذهب قليلاً ونادراً وكانت قيمته من اثنتي عشرة إلى خمس عشرة مرة من قيمة الفضة .

وصارت المصالح التجارية هي المصالح ذات الأثر الفعال في الحياة البابلية ، بل ووصل أثرها إلى الدين أيضاً ؛ فكانت للمعابد ، كما ذكرنا ، مكانة كبيرة في الحياة التجارية ولم تسع الديانة لمطالبة الأغنياء والأقوياء بما عليهم من حقوق للفقراء

١ - انظر سفر التكوين حيث ورد ذكر « امرا فيل » والمطلون انه تحريف لاسم حمورابي كما نطق به أهل غرب آسيا

والمساكين ويحتم علينا الإنصاف أن نذكر أن طقوس العبادة كانت تحوى بعض صلوات وأدعية اعترافاً بوجود فكرة الخطيئة وضآلة الإنسان ، ولكن كانت المنفعة الكبرى للديانة تتركز في أن الانسان كان يستطيع أن يحصل من الآلهة على ما يريد من منافع حقيقية وأن يتجنب غضبها .

وظل الناس يعبدون الآلهة السومرية القديمة ولكن زعامة بابل السياسية مكنت سكان تلك المدينة من وضع إلههم السامى « مردوخ » ، فوق جميع الآلهة الأخرى ، وزجوا باسمه في جميع الأساطير القديمة ، فظهر اسم « مردوخ » ، مكان أسماء بعض الآلهة السومريين القدماء الذين كانوا يلعبون أدواراً هامة في تلك الأساطير .

وفي الوقت عينه احتلت الإلهة « عشتار » ، السامية مكانها كآلهة الرئيسية في بابل ، وكانت « عشتار » ، العظيمة الهة للحب ، وانتقلت عبادتها بعد ذلك إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأطلق عليها اليونانيون اسم « أفروديت » .
ومن الأشياء التي منحها الآلهة موهبة التنبؤ بالغيب ، وكان هذا الفن يسمى التنجيم ، وكان الكاهن الذي يقوم به يطلقون عليه اسم المنجم .

ومنذ العصور القديمة ، في عهد ملوك سومر وأكد ، كان المنجم الماهر يستطيع أن يفسر العلامات الغريبة في كبد شاة تذبح كقربان ، وكان السائل يؤمن أن في استطاعة هذا المنجم أن يحدّثه عما يمكنه له الغيب ، وكان في استطاعة المنجم أن ينظر إلى أماكن النجوم والكواكب ويعرف منها ماذا أمر به الآلهة ليحدث في مستقبل الأيام ، وأخذت هذه الأساليب في فن التنجيم طريقها إلى الغرب فانتشرت فيه ، فكانت قراءة الأكياد أمراً شائعاً في روما فيما بعد ، وتطورت قراءة النجوم فيما بعد في أيام الكلدانيين وصارت علماً قائماً بذاته هو علم التنجيم الذي كان أساساً لعلم الفلك .

ولم يكن من الميسور تمرين الناس على أمثال هذه الأعمال في المعابد أو إعداد الكتاب للأعمال التجارية أو لإدارة الحكومة دون وجود المدارس التي كانت في المعابد أو كانت ملحقة بها . وكشفت الأبحاث الأثرية عن بناء مدرسة من عهد حمورابي ، وعثر في بقاياها على الرقم التي كان يتمرن فيها الصبية والبنات ملقاة على أرض الحجرات بعد أن ظلت في مكانها قرابة أربعة آلاف سنة ، وفي هذه الرقم نرى كيف كان الطفل يقضى الوقت الطويل الشاق في التعليم الذي كان يبدو به فهم وكتابة نحو ستائة علامة مختلفة .

كان اللوح الذي يتمرن عليه التليذ مصنوعاً من الطين اللبن وكان باستطاعته أن يمحو ما كتبه إذا مر عليه قطعة من الخشب أو الحجر . وكان التليذ يقبض على قلبه بين أصابعه ويخط سطورا طويلة من ضغطات مفردة ، يكتبها في أوضاع ثلاثة أفقية ورأسية ومائلة ، فإذا ما تعلم ذلك وأصبح يجيد استعمال قلبه عليه مدرسه كيف يكتب العلامات التي كانت كل منها تكون من أكثر من ضغطة واحدة ، وكانت الخطوة التالية بعد ذلك هي أن التليذ يتعلم كتابة الكلمات ثم الجمل القصيرة . وبما كان يكتبه هؤلاء التلاميذ القدماء حكم وأمثال قيمة ، وهذا واحد منها يبين قيمة تقدير البابليين لفن الكتابة : « إن من يتفوق في كتابة الرقم سيضىء كالشمس ، وبمثل هذا كانوا يشجعون الصبية أثناء عملهم الطويل الشاق في تعلم الكتابة .

ولم يصل إلينا إلا القليل النادر من الأعمال الفنية أو المعارية التي ازدهرت في ذلك العصر ، ويرجع ذلك إلى تحطيم مدينة حمورابي التي لم يبق منها قالب طوب واحد في مكانه ، ولكننا نعرف بما كشفت عنه الحفائر في المدن الأخرى أن بعض القواعد المعارية التي كانت معروفة في عهد السومريين ظلت متبعة بعد أن دخل عليها شيء من التطور ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك فاتنا ما زلنا حتى الآن

نستعمل بعضها، ولنضرب مثلاً بالعقد الذى رأينا أنه كان معروفاً فى مدينة « أور » ، وأنهم استعملوه فى بناء مقابر ملوكها الأوائل . وكذلك المصارف المقيمة التى ظهرت فى العصر الأكدى . وفى عهد ملوك سومر وأكد كانت بوابات المنازل الخاصة مبنية على طراز العقد ، فلما جاء عصر الإمبراطورية الآشورية أصبح للعقد شأن بارز فى هندسة واجهة القصر الملكى .

كان أهم تجديد معمارى فى العهد المبكر للمملكة البابلية هو انتشار المبدئى البرج ، ومع ظهور هذا النوع من المباني ظهرت أيضاً فكرة تزيين الأسوار ببناء دعائم لها على مسافات متقاربة منتظمة بحيث تبدو فيها تتوء يليه انخفاض ثم تتوء وهكذا (recessed panel) ، وكان هذا الطراز معروفاً للبنائين فى بلاد الرافدين منذ عهد السومريين ، كما تراه أيضاً فى مباني الطوب لدى كثير من شعوب الغرب . وأقام البابليون الأول أعمدة من الطوب أو الخشب غطوها بالفسيفساء ، ولكنهم لم يكثروا من الأعمدة بوجه عام بل كان استعمالها محدوداً فى طرزهم المعمارية .

ولم يخلف عصر حمورابى وراءه رسوماً أو تماثيل فنية كثيرة . فنحن نرى النقش المرسوم على الجزء العلوى من قانون حمورابى على حجر الديوريت ويمثل الملك وهو يتلقى القوانين من إله الشمس ، فنرى كيف نجح الفنان فى إعطاء هذا النقش مسحة من الهيبة والتأثير ، ولكننا نرى أيضاً أن البابليين كانوا يلفون أجسامهم فى ملابس صوفية ثقيلة ولهذا لم يتيسر للشال الفرصة لإظهار محاسن الجسم الإنسانى .

وإذا أردنا التحقق من نجاح المثالين فى إعطاء صورة صحيحة للشبه فإننا لا نستطيع ذلك ، لأن تماثيل الأفراد تكاد تكون متماثلة لافرق بين واحد وآخر . وتضاءلت أيضاً دقة صناعة الأختام بعد أن بلغت أوجها فى عصر الملك سرجون

وبالرغم من الإقبال على هذه الأختام كسلعة تجارية فإن صناعتها في عصر حمورابي كانت قد بدأت في الانحطاط .

وكان هذا الانحطاط في الفن نذيراً لما كان على وشك الحدوث ، فإن الأمة البابلية التي أحسن حمورابي تنظيمها لم تكد تعمر طويلاً بعد وفاته ، فقد نزل قوم غزاة من الشرق على سهل بابل ؛ وكان وفودهم تدريجياً في هجرات متتالية إلى بلاد الهلال الخصيب وخاصة بعد عام ١٩٠٠ ق.م . واستقروا أخيراً في بابل . وهؤلاء القوم هم « الكاسيون » الذين لم يستطع خلفاء حمورابي صدم .

وفي الوقت الذي زاد فيه عدد السكان الكاسيين (١) إلى درجة كبيرة منيت بلاد بابل لسوء حظها بغزاة آخرين جاءوا من الشمال الغربي وتقدموا جنوباً في محاذاة نهري الدجلة والفرات حتى احتلوا بابل ونقلوا ما غنموه منها إلى بلادهم . هؤلاء الغزاة هم « الحيثيون » الذين لم يقصدوا من غزوهم لبلاد الرافدين احتلالها أو استيطانها بل نهبا في هجمة سريعة عادوا بعدها إلى بلادهم وقد قضوا على آخر ملك من نسل حمورابي .

فلما انسحب الحيثيون من بلاد بابل ، وكان ذلك حوالي ١٧٥٠ ق.م لم يجد الكاسيون صعوبة في فرض سيادتهم على البلاد ، وكان انتصارهم إيداناً بزوال تقدم البابليين في حضارتهم . وهوت بابل إلى الحضيض وظلت في غفوتها دون أن تفيق حتى ظهرت كلديا على صفحة التاريخ . وهكذا انتهى أول الفصول العظيمة في تاريخ بلاد النهرين ، أما الفصل الثاني فإن مسرح حوادثه لم يقع في بابل بل انتقل شمالاً إلى المنطقة التي تعرف باسم « آشور » والتي كانت أثناء حكم ملكة بابل إخذى الديويلات الصغيرة ثم أخذت تتقدم حتى وصلت في النهاية إلى أن تكون قوة عالمية .

١ - من المحتمل أن يكون الكاسيون هم الذين أحضروا كثيراً من الخيل معهم إلى بلاد بابل . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الخيل لم تظهر في مصر إلا بعد ذلك الوقت ببضعة قرون .

آسيا الغربية : الآشوريون والكلمانيون

بلاد آشور القديمة ومنافسوها الغربيون

يحملنا الفصل الثاني من تاريخ بلاد الرافدين إلى أعلى النهر ، فنترك بابل ونذهب إلى الزاوية الشمالية الشرقية من تلك الصحراء التي تحيط بالهلال الخصيب ، فنجد هناك مرتفعا من الأرض يسهل الدفاع عنه ، ذا موقع منيع ، لا يتيسر للبدن التي تحيط بها الأرض المسطحة ، في سهل شنعار .

تلك هي المنطقة التي يحدها نهر دجلة في الشرق ، وتشرف على الصحراء في الغرب والجنوب ، وكان اسمها آشور (Assur) ومن ثم أصبح اسم المملكة كلها أرض آشور (Assyria) فيما بعد .

ونظر الوقوع آشور في منطقة جبلية مرتفعة فإنها كانت تتمتع بجو أصح من جو بلاد بابل الحار . وكان فيها أودية خصبة التربة تمتد بين ثنايا الجبال الشرقية والشمالية حيث كانت توجد بعض مدن تنافس فيما بينها . وفي هذه المنطقة نرى مرتفعات جبلية كانت محاجر صالحة لقطع الحجر الجيري والمرمر وغيرها من الأحجار الصلدة ، وفي هذا الأمر اختلفت آشور كثيرا عن بابل التي لم يكن بها أحجار للبناء ولهذا اقتصر في عمارتها على البناء بالطوب اللبن .

كانت تلك الأودية الشرقية خضراء بما فيها من المراعي وحقول القمح والشعير ، وكانت قطعان الماشية والضأن والماعز تنتشر على جوانب التلال ، وكانت الحمير هي الحيوانات الأساسية لحمل الأثقال والانتقال من مكان إلى آخر ، لأن الحصان لم يكن قد عرف في ذلك الوقت ، وهنا - في هذه المنطقة - عاش السكان على الزراعة وتطورت حياتهم في ظلها ، ولكن لم يمنع ذلك سكان بلاد آشور من أن ينشئوا

قبل مضي وقت طويل بعض الصناعات ويؤسسوا الصلات التجارية .

لم يكن سكان هذه المنطقة الواقعة إلى الشمال من بلاد بابل من الأصل السامى جميعا بل كان يعيش بينهم أقوام يتكلمون لغات غير سامية ومن أجناس غير سامية ففي الألف الثالث قبل الميلاد كان يعيش في المكان الذي تقوم فيه مدينة أشور بلدة سومرية عثر على آثار أهلها هناك ، وفي الوقت عينه كان أجداد القوم الذين يسمون الأشوريين يعيشون أيضاً في تلك المنطقة ولكننا لا نعرف من أين جاءوا ولا نعرف إن كانوا من الجنس السامى أو من جنس غيره ، ولكننا نعرف أنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم لغة سامية قريبة من اللغة التي كان يتكلمها أهل أكد حيث قامت أول مملكة سامية قوية في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بقيادة الملك سرجون .

وبدأت أشور كغيرها من جاراتها السامية في الجنوب دويلة مستقلة وكانت متأثرة بالحضارة السومرية ، واتصلت بغيرها من مدن السومريين ، وكتبوا لغتهم بالكتابة المسمارية ، كما أثرت بلاد سهل بابل على سكان أشور في فنون النحت والعمارة .

نرى من ذلك أن أكثر مظاهر الحضارة المبكرة في أشور جاءت إليها من الجنوب ، ولكن يجب ألا ينسينا ذلك أنها كانت معرضة أيضاً لتأثيرات من الشمال ومن الغرب ، فنذ منتصف الألف الثاني ق . م . ظهر في آسيا الصغرى أقوام من الحيثيين محبون للحرب ، اتجه بعضهم شرقاً إلى بلاد النهرين ، وليس بمستبعد أن أشور كانت إذ ذاك في مهب الرياح فتارة تخضع لغزاة من الغرب ، ثم لاتلبث أن تقع تحت حكم الدويلات الجنوبية التي تزعمها سرجون ثم ملوك أور ثم حمورابى أو غيره من حكام بابل .

وعلت هذه الحروب المستمرة أهل أشور كيف يحمون حدودهم في الشمال

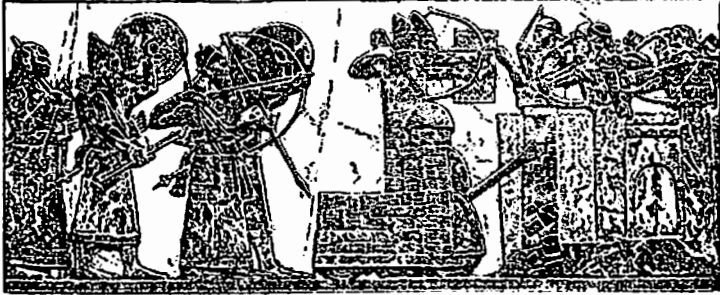
والجنوب بعد أن ظلوا نحو ألف عام منذ أن استولى سرجون على بلدهم، ولسنا ندهش بعد ذلك إذ رأينا الدولة الجديدة تبنى نفسها على أساس حربى فقد كان هناك الجنود غير النظاميين ثم حل محلهم جيش دائم أصبح القوة الرئيسية للحكومة، وتطورت هذه الدولة الحربية إلى تنظيم قوى ثابت لم تؤثر عليه المنافسات التي كانت بين الدويلات، تلك المنافسات التي أضعفت مملكة بابل ثم انتهت أخيرا بالقضاء عليها.

وبعد أن زال كل أثر للنزاعات صار في استطاعة مملكة آشور أن توجه جميع قواها التي توحدت للقضاء على أعدائها الخارجيين، وساعدهم على ذلك أنهم كانوا قد استخدموا الخيل ثم المركبات في جيشهم، وفي النهاية أصبحوا أعظم قوة حربية رآها العالم القديم.

وفي نفس الوقت أغدقت التجارة، وصلتهم بالشعوب المجاورة، الأموال والقوة على الأمة الناشئة. وكانت قوافل تجارتهم تذهب إلى آسيا الصغرى (كليكيا) لأنهم أحبوا الاتجار فيما تدره مناجم الفضة، وعرفوا بذلك طرق التجارة في البلاد الواقعة إلى الغرب منهم وأصبحت آشور مركزا هاما على طريق القوافل الذي ربط بين البلاد الجبلية إلى الشرق منهم وبين البلاد الواقعة إلى الغرب منهم. وكان التجار الآشوريون قد حذقوا أساليب التجارة التي وصلت بها دويلة أور، إلى مستوى عال في عهد ملوك سومروأكد. وعاش كثيرون من تجار بلاد النهرين في محلات أسوها في أماكن متعددة في جنوب شرقي آسيا الصغرى في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم «كبادوسيا» Cappadocia حيث كشفت الحفائر عن عدد كبير من الوثائق التجارية في هيئة رقم مكتوبة باللغة المسماة شيبية برقم آشور، ونعرف من هذه الرقم أن لهؤلاء التجار الغرباء الذين وفدوا من الشرق كان قد مضى عليهم أكثر من مائتي سنة في تجارتهم في كبادوسيا أي أنهم بدأوا في الوقت الذي زادت فيه سطوة ملوك سومروأكد. سنرى في الفصول القادمة كيف لعبت هذه المراكز التجارية

دوراً هاماً في حمل الحضارة ونشرها في البلاد الواقعة إلى الغرب ، ففي كثير من المدن التي في جنوب شرقي آسيا الصغرى نجد رقم التجار الاشوريين ، وهذه الرقم أصبحت في دراستنا بمثابة علامات توضح لنا الطرق التي سارت فيها الحضارة من بلاد الرافدين متجهة نحو جنوب شرقي أوروبا .

وأدى استغلال مناجم الفضة في كليكيما خدمة كبيرة للتجارة والمعاملات وأثر عليها أثراً كبيراً لان الفضة حلت محل الحبوب كوسيلة للتبادل ولدينا ما يثبت أن بعض القطع المعدنية كانت محتومة بما يدل على وزنها وربما مكان اصدارها أيضاً . وفي نص من النصوص يقارن الامبراطور الاشوري سنحاريب



شكل ٦٤ : ملك آشوري يهاجم احدى المدن المحصنة (القرن التاسع ق م)
يرجع تاريخ هذا الرسم البارز الى القرن التاسع ق م . ونرى فيه كيف وفق الاشوريون الى أجهزة الحصار . ونرى على اليمين مدينة تحميها أسوار مبنية بالطوب اللبن . ويبدل الرماة الذين يدافعون عن المدينة جهداً كبيراً في صد هجوم منجنيق محمول على مركبة ذات عجلات ، ولا نرى في الصورة من تلك العجلات الا الجزء الاسفل أما باقيها فانه مغطى بصفائح المنجنيق . وهذه الآلة الحربية ليست الا « دبابة » قديمة يحمي مقدمتها لوح من المعدن وفي الجزء الامامي منها برج للهجوم يكاد يصل ارتفاعه الى ارتفاع أسوار المدينة ويهاجم الجنود الاشوريون الذين في البرج أعداءهم ويرمونهم بما لديهم من سهام بينما يحرك الجنود الآخرون الذين في داخل الدبابة ذراع المنجنيق المصفح بالمعدن ليحدثوا به ثغرة في السور . ويحرك عمليات الهجوم ضابط يجلس في برج المراقبة الذي يعلوه قبة مصفحة بالمعدن وفي تلك القبة طاقات صغيرة لينظر منها . وفي المؤخرة نرى الملك الاشوري يطلق سهامه على المدينة .

وهذا الرسم من أقدم الرسوم التي وصلت الينا من قصور ملوك آشور . وهذا هو السبب في أن الفنان لم يراع النسب في الرسم ، وغالى مغالاة الاطفال فرسم الرجال وكانهم بلغوا في الطول أسوار المدينة .

الذى عاش في القرن السابع ق. م صب بعض النقود البرونزية ، بصب قطع وزن كل منها نصف ، شكل ، مما يدل على أن الآشوريين كانوا يسكون القطع ذات نصف الشكل قبل منحاريب ، وتلك القطع كانت دون شك الأصل السابق لعملتنا النقدية .

كانت آشور تعلق أهمية كبرى على صلتها بالغرب ، فلم تكن في حاجة إلى المعادن في تلك البلاد فحسب بل أنها لم يكن في استطاعتها أن تحكم آسيا الغربية ، وهي دولة لاشواطىء لها ، إلا إذا وصلت إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن كانت هناك عقبتان تحولان بين آشور وبين ذلك البحر ، أولاهما ملكة ميتاني التي كانت إلى الشمال الغربي من آشور ، وثانيهما الولايات الغنية التي كانت تهتم بالتجارة وكانت تحكم موانئ الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .

ويجدر بنا أن نتحدث باختصار عن هاتين العقبتين لأن ذلك يكشف لنا عن حركتين كبيرتين لقومين من جنسين مختلفين ، كان وجودهما سببا في توجيه تاريخ العالم المتمدن .

تكونت الطبقة الحاكمة في ميتاني من مجموعة من قوم جريثين يهتمون أنهم كانوا بدوا نزلوا من المراعي الشمالية وكانوا أحفاداً لأوائل الناس الذين تعلموا تربية الخيول ، إذ عرف أولئك الأجداد كيف يربون الخيول ويمرنونها على الحرب وعلى جر المركبات الحربية قبل أن يترك أحفادهم بلادهم في الشمال وينزلوا إلى الهلال الخصيب ، ولهذا كان ميسورا لبعض فرسانهم المهرة أن يندفعوا جنوباً أو غرباً ويهزموا من وقف في طريقهم من سكان منحى نهر الفرات ، واهتم أولئك الناس بتربية الخيول إلى درجة أن أحد الفرسان الذين اشتهر أمرهم بينهم واسمه كيكولي Kikkuli كتب مؤلفاً لمن يربي الخيول ، وقد عثر في عاصمة خيتا على جزء من هذا المؤلف على رقم من الطين ، وهو دون شك أقدم ما وصل إلى أيدينا من مؤلفات عن تربية الخيول .

وظلوا في أرض الفرات يحكمون البلاد، وكانوا أقدم أرسوقراطية بناها أهلها على تربية الخيول، وفي النهاية جعل فرسان ميتاني من أمتهم ولاية حربية لها خطورتها .

كان استخدام الجواد بدءاً لعصر جديد في بلاد الهلال الخصيب، فعندما كانت تهجم فرقة من العربات تجرها الجياد القوية السريعة وتنزل كالصاعقة على الجنود المشاة فإنهم كانوا يتفرقون كأوراق الخريف، وهكذا استطاع حكام ميتاني بواسطة مركباتهم الحزبية أن يصلوا في انتصاراتهم في الشمال الغربي إلى اختراق حدود « خيتا » .

ولم تقف أهمية ميتاني إلى ذلك الحد بل إن موقعها الجغرافي ساعدها على الوصول إلى أهداف أخرى . فإنها كانت ملتقى الطرق التجارية ودروب القوافل التي تبدأ من آشور وتعبّر الفرات في طريقها إلى الغرب . فلم يكن موقع ميتاني يجعلها عقبة كأداء فحسب بل إن ذلك ساعدها على غزو بلاد آشور فاحتلتها ، وكان الأشوريون مدى فترة من الزمن خاضعين لحكمها .

لم يكن الزعماء الميتانيون - بما لديهم من قوة لاستخدامهم الخيل - إلا في الطليعة لهجرات كبيرة قام بها الأقوام الهندو - أوروبيون متجهين نحو الجنوب ونحو الغرب وانتشروا من الهند حتى الجزر البريطانية .

ونحن نعلم أن شعب ميتاني كان يحكم في منتصف الهلال الخصيب حوالي عام ١٥٠٠ ق . م . وأن الميتانيين كانوا شعباً يمت بأصله إلى الدرجة التي تفرع منها بعض الشعوب الأوروبية وأنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة الشبه ببعض لغات أوروبا .

واستقر بعض القبائل الهندو - أوروبية في آسيا الصغرى بين الاناتوليين القدماء، أما الميتانيون أنفسهم فكانوا سداً منيعاً في وجه تجارة آشور نحو الغرب مدى

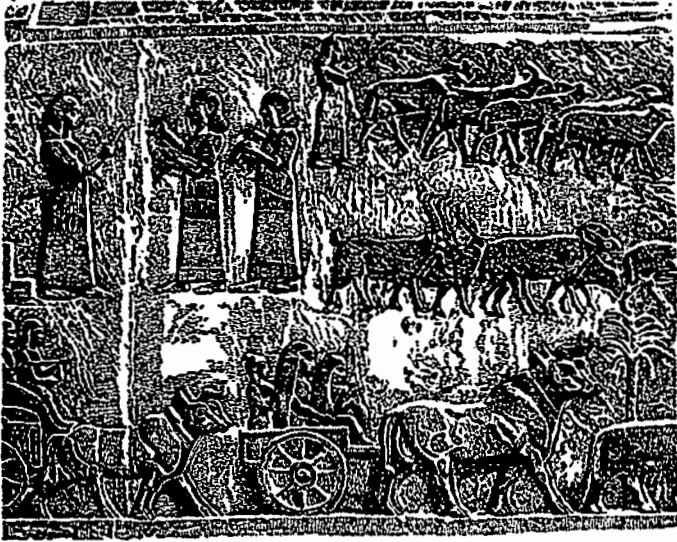
قرن من الزمان بل ووصل بهم الأمر أن أوقفوا توسع آشور بوجه عام .
أما العقبة الثانية في توسع آشور نحو الغرب فهي وجود سلسلة من المدن
الفينيقية على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، ووجودهم في تلك المنطقة
هو أقدم مظاهر تجمع الأجناس الذي كان السبب الرئيسي في تشكيل التاريخ الإنساني
ابتداء من ذلك الوقت ، إذ نرى الهندو - أوروبيين في الشمال والساميين في الجنوب
وبينما كانت أقدم النقط الأمامية للشعوب الهندو - أوروبية كانت في مملكة خيتا
في آسيا الصغرى وفي بلاد ميتاني على الفرات ، نرى أن توسع الساميين أوصلهم
إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إذ أصبحت موانئ ذلك البحر التي
كانت يوماً من الأيام في أراضي البدو الساميين قد أصبحت سلسلة من الدويلات
الغنية ذات التجارات الواسعة في البحار ، ومكنتهم أساطيلهم من أن يصبحوا من
ذوى الزعامة التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط كله ، وأثبتت تلك المدن
الفينيقية أنها عدو الملوك آشور لا يستهان به .

وبعد القرن السادس عشر ق . م . كان على الآشوريين أن يواجهوا الأخطار
الناجمة عن هجرة جديدة لأقوام ساميين سواء في الناحية التجارية أو في الناحية
السياسية .

وأعظم هؤلاء الأقوام أثرهم ، الأراميون ، الذين نراهم حوالى عام ١٢٠٠ ق . م .
قد أسسوا عدداً من الممالك المزدهرة في الغرب وخاصة في سوريا ^(١) ، واستطاعت
تلك أن تبني مدناً ملكية ذات قصور فخمة بما تيسر لها من أثر الحضارة الحيثية من
جهة والحضارة المصرية من جهة أخرى . وإلى جنوبي المنطقة التي استقر فيها
الأراميون ، أى في فلسطين كان قوم ساميون آخرون - وهم العبرانيون - بدأوا

١ - كثيرا ما يسمى الأراميون بالسوريين ، وتسمى المنطقة الواقعة شمال فلسطين عادة باسم سوريا .
وعلى أى حال يجب ألا نخلط كلمتي « سوريا وسوريين » (Syria, Syrians) بكلمتي « آشور
واشوريين (Assur, Assyrians)

يحتلون الاراضى ويستقرون فيها . وفي أوائل سنى الالف الاول ق. م . كان
الأراميون والعبرانيون ، ومعهم الفينيقيون الذين على الساحل احتلوا الجزء الأكبر
من الطرف الغربى لللال الخصب وابعدوا بين بلاد آشور وبين ساحل البحر
الايض المتوسط .



شكل ٦٥ : كتاب آشوريون وأراميون يسجلون الغنائم المستولى عليها من
احدى المدن الاسيوية (القرن الثامن قبل الميلاد)

يركب الاسرى من نساء وأطفال فوق عربات تجرها الثيران فى طريقهم الى الرق
فى بلاد آشور ، ويسوق احد الرعاة القطعان التى استولوا عليها . والى اليسار
يقرا ضابط آشورى من رقيم فى يده ، مذكراته عن الغنائم التى استولوا عليها فى
المدينة ، ويقف أمامه كاتبان ينوان مايقول . ويمسك أول الكاتبين فى يده بلوح
سميك من الطين (= رقيم) رفع منه القلم الذى يقبض عليه بين أصابع يده
اليمنى . أما الكاتب الثانى فانه يفرد فوق يده اليسرى قرطاسا من البردى يكتب
عليه بقلم فى يده اليمنى . وهذا الكاتب الثانى أرامى يكتب باللغة الارامية بالقلم
والحبر . ويمثل هذان الكاتبان طريقتى الكتابة اللتين كانتا سائدتين فى ذلك
العهد فى غرب آسيا ، احدهما الطريقة الاسيوية وهى الكتابة على الرقيم التى
كانت فى طريقها الى الزوال والثانية الطريقة المصرية أى استعمال الورق والحبر
والقلم التى أخذت تعم العالم .

وامتد نشاط التجار الآراميين إلى خارج بلادهم ، وذهبت قوافلهم إلى جميع البلاد الواقعة على الخليج الصحراوي حتى وصلوا إلى منابع نهر الدجلة وأخيراً أصبحت تجارة غرب آسيا في أيديهم . وكثيراً ما يعثر الباحثون على وزاناتهم البرونزية بين خرائب نينوى مما يدل على وفرة عدد التجار الآراميين في الاسواق الآشورية ، وكانوا مثل أقاربهم اليهود في الامم الحديثة المتحضرة ، أصحاب النفوذ والزعامة التجارية في عصرهم ولكن اليهود الحاليين يختلفون عن الآخرين في أنهم يعيشون كأمة واحدة مثل الآراميين .

كان الآراميون جنساً ذا حظ عظيم من الحضارة . وفي عام ١٠٠٠ ق . م . بل وزبما قبل هذا التاريخ بعدة قرون - كانوا يستعملون كتابة ذات حروف أبجدية تعلموها من الكنعانيين أو الفينيقيين ، وهذه أقدم أنواع الكتابة التي استعملت حروفاً أبجدية فقط^(١) وتعلم الآراميون من المصريين استعمال القلم والخبر وهي أشياء لاغنى عنها في استعمال الأبجدية الجديدة . وكما كانت قوافل البابليين تحمل الرقم المسماة إلى جميع بلاد آسيا الغربية ، فإن قوافل الآراميين بدأت تحمل إلى كافة أنحاء تلك المنطقة المطالبات التجارية والإيصالات محررة بالأبجدية الجديدة التي أخذت تحتل مكان العلامات المسماة .

وهكذا انتشرت الأبجدية الفينيقية - الآرامية في جميع بلاد آسيا الغربية ، وذهبت من الفرات إلى إيران بل وصلت إلى حدود الهند وأممت شعوب شرقي الهند بالأبجدية السنسكريتية (Sanskrit) وبهذا كان للآراميين فضل نشر تلك الأبجدية الشرقية الأصل في كتابات جميع أبجديات الامم المتحضرة الواقعة إلى الغرب من بلاد الهند .

١ - كان هذا صحيحاً قبل اكتشافات دامن شمرا في شمال سوريا (العرب)

وحل التجار الآراميون لغتهم (اللغة الآرامية) معهم أينما ذهبوا فانتشرت تدريجياً حول الخليج الصحراوي ، ومن الحقائق الهامة أن اللغة الآرامية انتشرت في المدن الآشورية القديمة حتى أصبح المتكلمون بها أكثر عدداً من يتكلمون اللغة الآشورية نفسها .

وعندما كان يتلقى تاجر أرامى رقياً عليه بعض ما يتعلق بعمله التجاري محرراً باللغة الآشورية ، فكثيراً ما كان يمسك بقلبه ويخط عليه مذكرات بالآرامية ، وقد عثر الآثريون على كثير من هذه الرقم الآشورية التي خط عليها أصحابها مذكرات بالآرامية في خرائب المباني الآشورية ، وانتهى الأمر بأن اللغتين الآشورية والآرامية أصبحتا تستعملان جنباً إلى جنب في الأعمال التجارية ، واستخدمت الحكومة عدداً من الكتبة الآراميين في الوظائف ، وكان من الأمور المألوفة جداً أن يرى الإنسان موظفاً أرامياً في الحكومة الآشورية ، يكتب سجلاته على البردي يسطر ما يشاؤه بالقلم والحبر بينما يكتب زميله في العمل سجلاته على رقيم من الطين .

وأخيراً أصبحت الآرامية لغة الهلال الخصيب كله ، وحلت أيضاً محل اللغة العبرية في فلسطين . وهي لغة شقيقة ومشابهة للآرامية - وأصبحت لغة التجار الآراميين بعد مضي عدة قرون اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح ويهود عصره في فلسطين . ووصلت هذه اللغة أيضاً إلى بلاد خيتا إذ عثر في ساردس (Sardes) في غرب آسيا الصغرى على شاهد قبر عليه نقش باللغة الآرامية ، وفي نهاية الأمر انتشرت حضارة الآراميين التجارية انتشاراً واسعاً وتركت وراءها مؤثرات خلدت على الأيام أكثر مما تركته دولة آشور الحربية

ومما يدعو إلى الأسف أن أكوام المدن الآرامية في سوريا لم يتم حفرها كلها بعد ، ولهذا لم يصل إلى أيدينا إلا آثار قليلة لتحدثنا عن تاريخ تلك المدن

وما زالت دمشق حتى الآن أعظم المدن السورية إذ يبلغ تعداد سكانها أكثر من ثلاثمائة ألف شخص ، ولكن بقايا المدينة الآرامية ما زالت تحت بيوت المدينة الحالية ومن المستبعد جداً أن يكشف أحد عن دمشق القديمة .

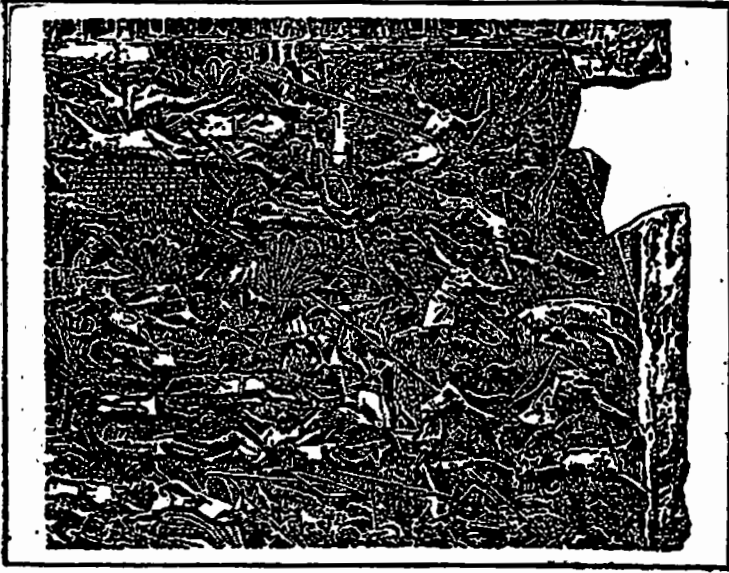
ونحن نفهم الآن كيف وقف الجيش الآشوري ينظر إلى تلك الصفوف المتراسة من الدول المعادية ، وكيف رأى نفسه في موقف يفت في عضداية أمة مهما تحلت بالشجاعة ، فكان أمامهم مباشرة حكام ميتاني ثم الآراميون والفينيقيون ، وخلف هذه الشعوب قوتان عظيمتان ، مصر في الجنوب الغربي وختيا في الشمال الغربي .

ففي القرن الخامس عشر ق . م . كانت الإمبراطورية الحيثية منافساً قوياً لمصر ، ووقف الآشوريون ينظرون إلى الصراع بين هانين القوتين على امتلاك الطرف الغربي من الهلال الخصيب إلى أن انتهت المعركة بينهما في القرن الثالث عشر ق . م . دون نصر حاسم لأحدهما .

ورأى الآشوريون كيف أنهكت الحروب قواهما ، وما جاء عام ١٢٠٠ ق . م . حتى ضعفت كل منهما وزاد في ضعفهما غزو آخر جديد هدد كلا منهما فانهارت إمبراطورية خيتا وتلتها الإمبراطورية المصرية بعد نصف قرن من الزمان .

ورأت ميتاني في البداية أن مصلحتها تقتضي انضمامها إلى جانب مصر ولكنهم تحتل الثبات في مهب المنازعات الدولية الكبيرة وانتهى الأمر بسحقها ، وكان المتنافسون في حلبة الشرق الأدنى ثلاثة هم مصر وأشور وختيا ، وكان تنافس ثلاثهم قوياً عنيفاً ، ولم يات عام ١١٥٠ ق . م . حتى كانت القوتان الغريبتان قد انسحبتا من الميدان تاركيتين آشور وحدها لتصبح الوارثة لإمبراطورية الشرق .

وبعد أن سقطت كل من ميتاني ومصر وختيا . بقي الفينيقيون والآراميون وجهالوجه أمام آشور . وكانت دمشق مقر الملوك الآراميين الأقوياء الذين



شكل ٦٦ : جنود اشوريون يطاردون أعداء هاربيين وصلوا الى مجرى ماء

يملاً مجرى الماء النصف الايمن من هذا الرسم وقد ميزه الفنان الاشوري بما رسمه في أرضيته من أسماك وموجات ، وما كان يعوم على سطح الماء من جعاب وسهام جنباً الى جنب مع جثث جوادين ، نرى أحدهما عائماً على ظهره وقد ارتفعت أرجله في الهواء . ونرى أيضاً جثتي رجلين حملهما التيار وفي أجسادهما غرست السهام . وهناك ثلاثة من الأحياء يحاولون الوثوب الى الماء في الوقت الذي عاجلهم فيه الجنود بطعناتهم بالحرايب أو رميهم بالسهام . ويحمل حملة الحرايب الاشوريون دروعاً طويلة ولكن الرماة كانوا في حاجة الى اليدين ليستعملوا القوس والسهم ولهذا لا يحملون دروعاً كالأخرين . ونرى الموتى مبعثرين على الأرض على شاطئ المجرى في الجهة اليسرى من الصورة ، وأخذت النسور تنقر عيون القتلى ، وفي وسط الصورة نرى جندياً اشورياً يقطع رأس عدوه والى جانبه جندي آخر وضع رجله على جسد ميت وأخذ يسرق مامعه من أسلحه . ولم ينس الفنان أن يرسم الزرع الذي كان على ضفة الماء فنراه واضحاً بين الجثث كما نرى الأسلحة مبعثرة أيضاً في وسط الشجيرات .

جمعوا ثروات طائلة من التجارة ، وحصنوا مدينتهم تحصيناً جعلها قادرة على الوقوف في وجه أى تقدم آشورى نحو البحر الأبيض المتوسط . ولنضرب مثلاً لتوضيح أثر قوة هؤلاء الملوك وهو نجاح دمشق في حماية مملكتى العبرانيين الصغيرتين لمدة طويلة من الزمن من غزو الآشوريين .

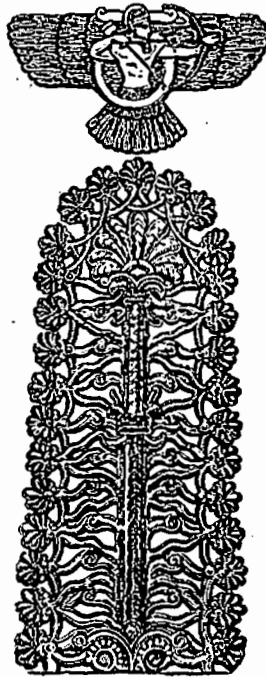
سارت الجيوش الآشورية وعبرت الفرات حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. ووصلت إلى البحر الأبيض المتوسط حوالى عام ١١٠٠ ق.م. ولكن ظل ملوك آشور مدى ثلاثة قرون ونصف قرن عاجزين عن غزو وإخضاع هذه المنطقة الغربية إخضاعاً تاماً بسبب وجود الممالك الأرامية والفينيقية والعبرية ، فقد وقفت هذه الممالك في وجه الجيوش الآشورية حتى القرن الثامن ق.م.

وبعد عام ١٠٠٠ ق.م. بقليل ، كانت قوة آشور على وشك أن تبدأ في تكوين إمبراطوريتها ، ولنقف الآن قليلاً وننظر إلى الوراء لنستعرض ما أحرزته آشور من تقدم في مدى ألقى سنة . كانت أولى آلات الآشوريين المعدنية مصنوعة من النحاس مثل باقى الشعوب القديمة . وخلال الألف الثالث ق.م. استعمل الآشوريون البرونز بكثرة وبدأوا منذ ذلك التاريخ يصنعون من هذا المزيج المعدنى أدواتهم وأسلحتهم حتى عام ١٠٠٠ ق.م. تقريباً ولهذا كانت أسلحة الجنود الآشوريين الذين ساروا للحرب نحو الغرب قبل الألف الأول ق.م. مصنوعة من البرونز ، ولكنهم استعملوا بعد ذلك التاريخ أسلحة من الحديد .

كان الحديد معروفاً للإنسان منذ عصر ما قبل الأسرات ، وعثر على أداة منه مدفونة بين أحجار هرم الجيزة الأكبر ، فقدما أحد العمال القدماء الذين كانوا يعملون في بنائه ، ولكن ظل استعمال الحديد نادراً حتى اكتشف الحيثيون مناجمه وطريقة إستخلائه وصناعته في الشمال الشرقى من آسيا الصغرى . ووزع ملوك حيتا هذا المعدن في جميع بلاد الشرق الأدنى ابتداء من القرن الثالث عشر ق.م.

ومن ذلك نرى أنه في القرون القليلة التي تلت عصر الحديد (Iron Age) أخذت آشور تستعد لتوسعها نحو الغرب ، وكان استعمال الحديد في أدواتها الحربية عنصراً هاماً في نجاحها في الحروب .

ولم يقتصر فضل الغرب - وبخاصة الحيثيين - على الآشوريين في تعريفهم ومدداهم بالمعادن بل أنهم قدموا للحياة الآشورية أشياء أخرى من مقومات الحضارة ، فمثلاً تعلم الآشوريون من الفن الحيثي الذي كان في شمال سوريا ، كيف



شكل ٦٧ : رمز الاله آشور

فوق الرسم الآشوري لشجرة الحياة نرى في أعلى الرسم قرص الشمس المجنح الذي استعاره الاله آشور كرمز له من الفن المصري ونرى الاله يرمى الإعداء بسهامه وتحت رمز الاله ، نرى رمز شجرة الحياة التي جعل منها الفنان الآشوري رسماً مزخرفاً بنخله تقوم في الوسط ويتفرع منها الجريد وأوراقه وخاصة في الجزء العلوي ، وضفروا الأوراق على الجوانب أيضاً في شكل متناسب جميل وأخذ اليونان هذا الرمز عن الآشوريين واستعملوا هذا الرسم كثيراً فيما بعد في فنهم .

يقصون أعمال الملك وما أتاه من شجاعة في صورة كبيرة منقوشة على أحجار عظيمة من المرمر كانوا يضعونها في صفوف لتزيين جدران القصر .

وكذلك كان الحال في العمارة . فقد كان لوجود الحجر في آشور أثر مكن الآشوريين من الاتيان بما لم يستطعه البابليون في أرضهم غير الجبلية .

وضع الآشوريون لمبانيهم أساسات ضخمة من الحجر كما كان يفعل الحيثيون والسوريون من قبلهم ، أما الأبنية نفسها فاستعملوا في بنائها الطوب متبعين في ذلك ما كان يفعله البابليون من قبلهم .

واقتبس الآشوريون من أهل بابل كثيرا من القصص الدينية ورموز الآلهة فقلدوها ودرسوها واحترموها ، ولكنهم لم يفرطوا في إله قبيلتهم القديم — الإله آشور — الذي أطلقوا اسمه على مدينتهم وعلى قبيلتهم .

وعندما كان الآشوريون في مجموعهم زراعا يعملون في الأرض ، وذلك في أوائل أيامهم ، ظنوا أن إلههم آشور إله الزراعة التي تحيا ثم تموت ثم يكتب لها الخلود مثل الإله أوزيريس في مصر .

ومهما كان الأمر فإن شجرة الحياة كانت أقدم رمز للإله آشور ، وكان الآشوريون يقيمونها ويزينونها عند حلول فصل الربيع كما تفعل بعامود شهر مايو (Maypole) . وعندما أصبحت بلاد آشور فيما بعد أمة حربية رأوا في إلههم آشور إله حرب لا يرحم واعتقدوا أنه هو إله الشمس . فكان هذا الإله يقود الملوك الآشوريين إلى النصر ويطلق سهامه القاتلة على العدو فيفتك به . أما الرمز الخاص به فإن الآشوريين نقلوا الشمس المنحطة عن الحيثيين الذين كانوا في شمال سوريا ، والذين كانوا قد نقلوها بدورهم من مصر .

وكانت الإلهة عشتار ، هي أعظم الإلهات في آشور ، فكانت الهة الحب ، وقد أخذوها عن البابليين .

لم يكن للديانة بين شعب آشور ذى النزعة الحريية القوية ، إلا أثر قليل على أخلاق الناس ، وكان الآشوريون فى هذا مثل من سبقهم من البابليين . ويرجع السبب الأكبر فى ذلك إلى أن كلا الشعبين تشابه فى عقيدته عن الحياة الأخرى وأنهم لم يؤمنوا بأنه سيكون هناك حساب فى الآخرة . أما موتاهم فكانوا - مثل البابليين - يدفونهم تحت أرضية المنازل التى كانوا يعيشون فيها .

وكشفت الحفائر فى مدينة آشور عن عدد من الأقيية المبنية بالطوب تحت أرضية القصر الملكى ، ووجدوا فى تلك الأقيية أجزاء من توابيت حجرية كبيرة الحجم ، وتلك التوابيت هى بقايا أقدم المقابر الملكية التى ظهرت حتى الآن فى بلاد آشور ، لأن جثث ملوك آشور الأقبياء كانت موضوعة فى تلك التوابيت ، أولئك الملوك الذين عاشوا وحكموا وبنوا هناك قبيل نهاية ألفى سنة من التطور الذى مهد لظهور الامبراطورية الآشورية .

وفى خرائب المدينة الملكية التى عاش فيها الملك سرجون الثانى (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) عثرت بعثة المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاغو على رقيم مسمارى فيه جدول بأسماء ملوك آشور وعددهم مائة وسبعون . حكم أولهم فى أواخر الألف الثالث ق. م .

وبدأ كاتب هذا الجدول يدون سنى حكم كل ملك ابتداء من أحد الملوك الذين حكموا فى أوائل الألف الثانى قبل الميلاد ، وعندما يتم نشر هذه الوثيقة نشر اعليها صحيحاً سيكون لدينا تقويم دقيق إلى حد لا بأس به مدى خمسة عشر قرناً من التاريخ الآشورى .

الإمبراطورية الآشورية

كان هدف التوسع الآشوري الأول هو إخضاع الغرب بغية الحصول على موقع حصين على البحر الأبيض المتوسط . وأملا في السيطرة على الطرق التجارية بين الشرق والغرب ، فطالما أجبرت الأمم المجاورة المعادية التي تقطن الشمال والشرق والجنوب الملوك الآشوريين على أن يعثوا بقواتهم وجيوشهم إلى هذه المناطق . وخلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق . م . كان الصراع محتدما بين الامبراطوريتين المصرية والحيتية حول احتلال مركز الصدارة في الغرب ، ولكن الحكام الآشوريين رأوا أن يظلوا في الشرق ، وحاولوا أن يقفوا موقف آشور هناك . بيد أنه عندما وجه الآشوريون أنظارهم ثانية إلى التوسع والغزو صوب الغرب ، كانت قوة آشور في الشرق في خطر دائم ، ومن ثم اضطر الملوك إلى أن يقوموا بجملات تأديبية ضد بابل وعيلام ، والولايات الصغيرة في جبال زاغروس ، أو أورارتوا (Urartu) في شمال أرمينيا . وفي خلال القرنين الحادى عشر والعاشر ق . م . أصاب آشور لنهار وانحلال نتيجة لغزو قام به الأراميون الذين كانوا يقطنون الطرف الشرقى للهِلال الخصيب . ولكن ما أن حل القرن التاسع حتى كانت جيوش آشور بدأت تسير للحرب . وعندما شرعت الإمبراطورية الآشورية في وضع خططها للتوسع تجاه الغرب موضع التنفيذ ، أنشأت الممالك الغرية أحلفا عدة لصد تقدم الغزاة من الشرق . بيد أن دمشق ، أهم مدينة في الغرب والمدينة التي طالما كانت في مقدمة المدن التي قادت المقاومة ، سقطت عام ٧٣٢ ق . م . ولم تلبث البلاد الغريبة أن أخضعت إخضاعاً تاماً وأصبحت تحت سلطان الامبراطورية الآشورية .

وفي وسط الحملات الغرية . وأثناء حصار السامرة ، تلك المدينة العبرية المنكودة

توفي الملك الأشوري (٧٢٢ ق . م) وعند ذلك آل العرش لابنه ، الذي تلقب عندما تولى العرش باسم سرجون تيمنا باسم سرجون السامى الذى كان أول الحكام العظام لبابل ، والذى حكم قبل ذلك بألني سنة ، ووصلت الإمبراطورية الأشورية على يد سرجون هذا الذى نعرفه باسم سرجون الثانى إلى ذروة مجدها وغاية سطوتها كإمبراطورية عسكرية . وكان خلفاؤه أعظم الأباطرة الأشوريين (١) ، وبني سرجون الثانى قصرأ ملكيا جديدا فى شمال شرق نينوى . وكان هذا القصر أكبر القصور التى عرفتها آسيا إلى ذلك الحين وأكبرها اتساعا وأعظمها رونقا وبهاء .

ولقد أطلق عليه اسم دورشاروكن (dur-Sharrukin) (سارجونبرج Sargonbug) وكانت مساحة فناءه ميلا مربعا ، تكفى لإيواء عدد من الشعب يبلغ تعدادهم ثمانين ألفا ، وأما مبنى القصر نفسه فكان يشغل مساحة خمسة وعشرين فدانا . وهذا ما لم تحط به بابل فى أوج عظمتها وازدهارها إذ لم يكن لها مركز للحكم مثل هذا ، وهكذا أصبحت آشور من نواح متعددة سيدة بلاد غرب آسيا .

ولكن عظمة سرجون الثانى هذه كانت دون مجد ابنه سنحاريب الذى كان سياسيا من أعظم ساسة الشرق الأدنى القديم . وكان اسمه ذاتعاً مرهوباً بين شعوب البلاد التى فى آسيا الصغرى ، إذ قام بحملات نهب فيها مدينة طرسوس Tarsus والحصون الإغريقية الأيونية التى تقع فى أقصى الشرق وكان ذلك بعد

١ - أهم ملوك أسرة سراجون الثانى هم :-

٧٢٢ - ٧٠٥ ق م

٧٠٥ - ٦٨١ ق م

٦٨١ - ٦٦٨ ق م

٦٦٨ - ٦٢٦ ق م

سرجون الثانى Sargon II

سنحاريب Sennacherib

أسرحدون Esarhaddon

أشور بانى بال Assurbanipal

(ويطلق عليه الإغريق ساردانابالس Sardanapalus)

عام ٧٠٠ ق . م بقليل وبعد ذلك أخذت حملاته تتقدم نحو الجنوب ، فاستولت على المدن الفينيقية الساحلية التي تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحدود المصرية . وفي الواقع قضى وباء على جزء عظيم من جيش سنحاريب ، جاءهم هذا الوباء من مستنقعات الدلتا . ذلك الوباء الذي نظر إليه العبرانيون على أنه ملاك الرب (يهوى) وهذا هو السبب في أن سنحاريب لم يعبر حدود مصر . بيد أنه اتخذ سياسة حازمة قوية عنيفة إزاء مدينة بابل ، عدوته القديمة . إذ كانت هذه المدينة تقوم بثورة بعد أخرى مما جعل سنحاريب يصمم على القضاء على مدينة حمورابي قضاء مبرماً ، بل لم يجد بأساً من أن يحول مجرى إحدى القنوات لتغمر أطلال هذه المدينة التي فر عنها أهلها فأضحت أطلالا فوق أطلال .

وهكذا باتت بابل اثرا بعد عين . ولكن القوة التي تكمن في النيل ظلت مصدر خطر على التوسع الآشوري . فكانت جميع الولايات التابعة للإمبراطورية الآشورية ترزح تحت عبء باهظ من الجزية التي فرضت عليها ، ولهذا فلم يكن من العسير على مصر أن تثير الفتن بين هذه الشعوب الغريبة التي ناءت بتلك الأعباء . تلك الشعوب التي كان يحدوها الأمل في التخلص من وطأة هذه الجزية . ورأت آشور أن تدخل مصر يجب أن يوقف عند حده ومن ثم ظهر ابن سنحاريب أمام أبواب القلاع الشرقية في الدلتا عام ٦٧٤ ق . م . ولقد صد أول الأمر ورد على أعقابها ، ولكنه عاود الهجوم ، ورغم أنه مات قبل أن يدخل الدلتا إلا أن مصر سقطت في النهاية فريسة للجيوش الآشورية ، وأصبح حفيد سنحاريب لفترة من الزمن سيد النيل الأدنى .

ولم يأت عام ٧٠٠ ق . م حتى كانت الإمبراطورية الآشورية تحكم الهلال الخصيب بأسره وامتدت حول الخليج الصحراوي بل وشملت فضلا عن ذلك مساحة عظيمة من المناطق الجبلية الشمالية الواقعة بعدها وأدى إخضاع مصر إلى



شكل : ٦٨ - أقدم القنوات الصناعية المعروفة : أنشأها الملك سنحاريب

اكتشف المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو أطلال هذه الإعجوبة التي تدل على المهارة الهندسية الفائقة في عام ١٩٣٣ . وكانت هذه القناة جزءا من مشروع سنحاريب الهائل للرى والذي كان يقصد من ورائه مد الحقول التي كانت حول نينوى بالمياه من الجبال الشمالية التي تبعد ثلاثين ميلا . ولما وجد المهندسون الاشوريون أنه لا بد من نقل المياه فوق نهر صغير أنشأوا قناة حجرية هائلة يبلغ طولها حوالي ١٠٠٠ قدم وعرضها ٨٠ قدما . حيث تجرى فيها المياه بين سورين منخفضين يبلغ سمك كل منهما ٩ أقدام . وهكذا لم تكن المياه تجرى فوق النهر الصغير وكأنها فوق قنطرة فحسب ، بل كانت تجرى أيضا عبر وادي النهر الذي كان يبلغ اتساعه ١٠٠٠ قدم .

صورة لما كانت عليه عند تصميمها - عن سيتون لويد Setbn · Lloyd

ضم وادى النيل الأدنى فى الغرب . ولكن مصر كانت بعيدة جدا وكانت أصعب من أن يحتفظ بها لوقت طويل ولما كانت الغزوات والفتوحات الآشورية تستند إلى قوة عسكرية مستمرة ، فقد كان فى مقدورها أن تبقى خلال جيلين كاملين- بعد سرجون الثانى ، فقد كونت هذه الفتوحات أعظم الإمبراطوريات التى عرفها العالم اتساعا وسطوة .

ولم يكتف سنحاريب بتوسيع نطاق القصور الملكية القديمة التى آلت إليه عن أجداده سواء فى آشور أو سارجنبرج . بل كرس جهوده لإصلاح وتجميل مدينة نينوى فى شمال آشور . وجعل منها عاصمة الإمبراطورية الآشورية الذائعة الصيت ، لكى يضمن للمدينة مورداً مائياً كافياً وصلها بالأنهار التى تجرى من الجبال الشمالية وذلك ببناء قناة صناعه هائلة .

وقامت على ضفاف نهر دجلة قصور ضخمة هائلة ومعابد ذات أبراج مرتفعة بما أقامه الأباطرة الآشوريون ، وكانت أسوار نينوى الشاهقة الضخمة التى أنشأها سنحاريب تمتد قرابة مليون ونصف على ضفاف نهر دجلة ، كما أن طول هذه الأسوار داخل المدينة بلغ قرابة ثمانية أميال . وجعل سنحاريب من قصره الفخم مركزاً يحكم منه العالم الآسيوى وجميع الشعوب الخاضعة له ، بيد من حديد .

وكانت إدارة هذه الإمبراطورية بأسرها تتركز فى ديوان الملك ، الذى وضع نظاما للرسل الملكيين . وشرع فى إنشاء الطرق وتمهيدها . وكان ذلك أول عهد لآسيا بإنشاء الطرق ومازال أحد هذه الطرق باقيا إلى الآن أنشأه سرجون الثانى ليصل نينوى بمدينة القصر ، سارجنبرج ، وعين الملك فى جميع النقاط الهامة على الطرق الرئيسية موظفين ليقوم كل واحد منهم بالإشراف على جميع الأعمال الملكية وتيسير إجراءاتها ، وبهذه الطريقة أمكن ضمان سهولة أمر انتقال الرقم البريدية ، والمحاصيل والبضائع

التي تتعلق بالقصور الملكية . وكان هذا النظام بداية لنظام البريد الذي كان له أن يبقى معمولاً به عدة قرون في الشرق الأدنى . وكان الامبراطور الأشوري يتسلم الرسائل ويتلقى التقارير من أكثر من ستين حاكماً للولايات والمناطق التي كانت تحت حكمه ، وذلك عدا الرسائل التي تصله من عدد كبير من الملوك المغلوبين الذين كان يسمح لهم في بعض الأحيان أن يظلوا في مراكزهم وعلى عروشهم تحت السيطرة الأشورية ، وبما وصل إلى أيدينا ، عدد من الرسائل التي كتبها سنحاريب نفسه ، عندما كان ولياً للعهد ، وأرسلها إلى أبيه الملك سرجون .

وكان هدف الدولة ومهمتها الكبرى هو الاحتفاظ بجيش قوى وفي الواقع كانت الدولة عبارة عن جهاز عسكري هائل ، يلقى الرعب في قلوب الناس بدرجة لم يعرفها العالم حتى ذلك التاريخ . ويمكن أن تتصور مثل هذا الموقف ، وأن تقربه إلى أذهاننا إذا تخيلنا أن وزارة الحربية تصبح الإدارة الحكومية المركزية في عاصمة المملكة وأن الحكومة كلها تتركس جهودها في هذا السبيل . وهنا يجدر بنا أن نعيد ذكر حقيقة هامة ساعدت في الوصول إلى هذه النتيجة ، وهذه الحقيقة هي أنه نتج من إلتقائهم بالحيثيين في الغرب أن بدأ استعمال الحديد بين الأشوريين ومن ثم كانت القوات الأشورية هي أقدم الجيوش الكبيرة في العالم التي زودت نفسها بأسلحة حديدية .

وفي قاعة واحدة لحفظ الأسلحة في قصر سرجون عثر على ما يقرب من مائتي طن من الأدوات الحديدية ، ولهذا يمكننا أن نقول أن قيام الإمبراطورية الأشورية وسيادتها كان إلى حد كبير راجعاً إلى ظهور الحديد واستخدامه .

كان الجزء الأعظم من الجيش الأشوري يتكون من رماة يعضدهم جنود من حاملي الرماح المدججين بالسلاح وحاملي الدروع . وإلى جانب هؤلاء كان الفرسان

وراكبو العربات من نينوى الذين كانوا بمثابة السوط الذى يلهب ظهر الشرق .
ولاول مرة فى التاريخ استخدم الآشوريون المنجنيق وغيره من آلات الحصار .
وكان من اليسير على هذه الآلات أن تصدع الأسوار الطوية فى المدن الآسيوية
تلك الأسوار التى جففتها حرارة الشمس ، وتفتح فيها الثغرات ، وكان من العسير
أيضا على أية قلعة مهما كانت مناعتها أن تقاوم طويلا هجوم المشاة الآشوريين
الذين اشتهروا بالشدة فى الحروب .

فإلى جانب الأسلحة الحديدية والآلات الحربية اتسم الجنود الآشوريون
بقسوة فطرية خاصة ألقت الرعب والهلوع فى نفوس أهل غرب آسيا وجعلتهم
يفزعون من ذكر قوات النينويين^(١) ، وأينا ذهبت الجيوش الآشورية تركت
وراءها ذبلا من الخرائب والأطلال . وبين الأكوام التى يتصاعد منها دخان
الحرائق والتى كانت يوما ما مدنا عامرة ؛ وضعوا صفوفًا متراصة من القوائم
الحشوية علقوا عليها جثث الحكام التائرين بعد سلخ جلودهم وهم أحياء ، بينما ارتفعت
حولهم أكوام القتلى ؛ التى وضعها الجنود الآشوريون فوق بعضها ليشيدوا بذكورى
النصر العظيم . ويحذروا الآخرين من الاحتجاج أو الثورة . وخلال سحب من
الغبار ؛ ارتفعت على جميع الطرق الرئيسية فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، رأى سكان
الممالك المهزومة قطعانا ضخمة من الماشية ، والخيل والحمر ، والماعز ، والخراف ؛
ومعها قوافل طويلة من الجمال المحملة بالذهب والفضة التى استولوا عليها من البلاد
المهزومة وتجتمع كل هذه وتلك فى قصر الملك فى نينوى . ويسير أمام هذا الركب
زعماء هذه الممالك المغلوبة ؛ وقد ربطوا حول أعناقهم رؤوس أمرائهم السابقين
التي فصلوها عن أجسادهم ، ولا شك أن هذه الثروات المسلوقة كانت ضرورية لقيام
الجيش وسد حاجاته ، ولكنهم استخدموها أيضا فى أغراض أخرى غير حربية .

كانت القصور الآشورية منشآت معمارية توحى إلى الناظر بقوة منشئها الطائلة وكانت الأقواس الثلاثية تقام في مدخل القصور الآشورية . وكانوا يغطون جدرانها بطبقة من الطوب المزيج ذى الألوان الزاهية، وكانت هذه الأقواس هى الأصل الذى أخذ عنه الرومانيون فيما بعد عندما أقاموا أقواس النصر . وعلى كل من الجانبين قامت تماثيل من المرمر على هيئة ثيران ذوى رؤوس آدمية ؛ وفوق كل هذا ترتفع أسوار شاهقة تعلوها الأبراج مبنية من الطوب المحروق . يراها الناس فى المدينة الملكية من مسافة بعيدة .

أما فى داخل القصر فقد كان هناك أفريز سفلى مزخرف يمتد على الجدران مئات من الأقدام وعليه صور بارزة منحوتة فى المرمر . وعثر المنقبون الآثريون فى نينوى فى تل واحد على واحد وسبعين ردهة من ردهات القصر ، وأزاحوا النقب عن ميلين من هذه الصور البارزة المرمرية التى نقلوا كثيرا منها إلى المتحف البريطانى .

وتمثل هذه النقوش أعمال الأباطرة سواء فى الحروب أم فى ميادين الصيد ، وتشابه الصور الآدمية تشابها يبعث على الملل وقلبا نرى إحساسا على الوجوه ، وربما كان الطابع الرسمى للصور وحجمها الكبير ، حائلا دون رسم صور معبرة دقيقة، وعلى أية حال فإن الحيوانات المفترسة التى نحتها المثالون الآشوريون كانت ناجحة ونجح هؤلاء الفنانون فى إظهار طابعها القاسية . ولقد سرت طبيعة النمر فى دماء الآشوريين حتى ظهرت فى رسومهم المنحوتة . ومن جهة أخرى . تعتبر التعبيرات العاطفية للألم والعذاب التى تظهر فى ملامح بعض هذه الأشكال الحيوانية الرائعة . نصرا أفيا جليلا . وإن كان المرجح أن المثال الآشورى قد توصل إليه إلى حد ما ، عن طريق دراسة الاسود والثيران الفخمة التى كانت ترسم على الأختام البابلية



شكل : ٦٩ - زخرف حائطي في دار موظف في بلاط سرجون الثاني

تتكرر هذه الرسوم الزخرفية على جدار من حجرة تبلغ مائة قدم طولاً ويلاحظ أن أشكال الثيران والمعبودات المجنحة صورت في أوضاع يتلو بعضها بعضاً مكونة حلقات متتالية فيها كثير من الانسجام الإيقاعي في الألوان من اكتشاف المعهد الشرقي في دور شروكن : وهي مدينة خورسباد الحالية والصورة من عمل التمان (C.B. Altman)

القديمة في عهد سرجون الأول منذ الفين من السنين ، وحقيق بنا أن نقر بأن تصوير الحيوانات في فن النحت الآشوري قد فاق مثيله في أى شعب من شعوب العالم القديم .

وكثيراً ما كان يرسم فوق الافريز المنحوت في جدران القصر رسوم ملونة ذات مناظر جميلة وكانوا يضعون طبقة من الطلاء الأبيض فوق الطبقة الطينية السطحية لتصبح أرضية للمناظر المرسومة ، وتتكون الزخارف بصفة عامة من نطاقات وأشربة مملوءة بالأشكال مثل المعبودات المجنحة أو الغزلان أو الثيران الخ . أو يملؤها بزخارف مثل الأشكال الوردية ، أو التي تشبه النخيل . أو الأقراص أو الدوائر المقسمة أو ما يشبه زخارف الأسوار .

وقد اكتشفت بعثة المعهد الشرقى في خورسباد منذ عهد قريب في دار موظف في البلاط الملكى رسماً على حائط يمتد بطول الحجرة ، والألوان المستعملة هنا هى الأحمر والأزرق والأبيض مع تحديد الأشكال باللون الأسود ، وقد دل التحليل الكيماوى على أن اللون الأحمر مأخوذ من سلفات الزئبق ، وأن اللون الأزرق مأخوذ من حجر اللازورد ونجح الآشوريون نجاحاً كبيراً فى استعمال الألوان عند رسمهم للمناظر الملونة ، ونرى انسجاماً جميلاً فى ترتيب المواضيع المرسومة .

ومن الطبيعى أن يقتبس الآشوريون كثيراً من الحضارات التى سبقتهم إذ ظهر فى صناعة تزجيج القوالب الملونة من مصر وبابل منذ أمد بعيد ، كما نرى أن كثيراً من الرسوم الزخرفية فى أعمال الفنانين الآشوريين مصرية الأصل ، كما أن قطع الأثاث المطعمة بالعاج والأبنوس التى كان يضعها العمال الفينيقيون تكشف أيضاً عن أصلها المصرى ، وكان العمال الفينيقيون فى نينوى يقومون بصنع أطباق من البرونز المنقوش بمهارة فائقة ، وهم فى ذلك يجمعون بين الطرازين المصرى والآشورى ،

ويخبرنا سنحاريب أنه كان لديه في قصره « بوابة بنيت على نمط قصر خيتي ، ، كما أن أسلافه طالما شيّدوا بوابات مماثلة لتلك التي رأوها في دولة الحيثيين في الغرب ، وكان من أهم خصائص الأباطرة الآشوريين. قدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية عنهم .

وقد تمكن سنحاريب عن طريق القناة الصناعية التي أنشأها أن يروي الحدائق الغناء التي زرعها على شاطئ النهر قبل نينوى وبعدها ، وفي تلك الحدائق استنبت كثيراً من الأشجار والنباتات الغريبة من جميع أنحاء أمبراطوريته العظيمة ، وكان من بين هذه الأشجار شجيرات القطن التي قال عنها « إن الأشجار التي تحمل الصوف جناها القوم ومشطوا صوفها لصنع الملابس ، . وجاءوا بهذه الأشجار من الهند . وهكذا نرى أن القطن ظهر أول ما ظهر في العالم القديم في ذلك الحين ، ذلك القطن الذي يساهم بنصيب وافر في إقامة صرح مجدنا الاقتصادي (١)

واهتم الآشوريون أيضاً ببعض الفنون الجميلة ، فازدهر الأدب لديهم ، وشرع سرجون الثاني مثلاً في جمع مكتبة من الرقم عليها مؤلفات قديمة ، وسار من جاء بعده على منواله وظلوا على شغفهم بالأدب واهتمامهم به . ويفخر « آشور - باني - بال ، حفيد « سنحاريب ، وآخر الأباطرة الآشوريين العظام ، بأن أباه لم يهمل له سبل تعلم الفروسية وإتقان رمي القوس والسهم فحسب ، بل علمه الكتابة على الرقم وأدبه بأدب العصر وحكمته .

وكشفت الحفائر بين أطلال حجرات مكتبة « آشور - باني - بال ، في نينوى عن مجموعة من اثنين وعشرين ألفاً من الرقم ظلت ملقاة على أرضها ألفين وخمسمائة سنة ، وهي موجودة الآن في المتحف البريطاني . وجمع الملك في هذه

١ - لاشك أن شجرة القطن هذه تشابه القطن الذي ينمو في المناطق الجنوبية في الولايات المتحدة

المكتبة المؤلفات الدينية والعلمية والأدبية وفق نظام دقيق — حسب رغبته — وكانت دون ريب أقدم مكتبة عرفها آسيا لقد كان الآشوريون أعظم تقدما في هذه الأمور من البابليين ، كما أن الحضارة الآشورية كانت أبعد من أن تكون ترديدا وصدى للحضارة البابلية .

يبد أن الأباطرة الآشوريين أتوا بخطأ سياسى جسيم، وإن كانوا لا يختلفون في ذلك عن كثير من الحكام الذين جاءوا بعدهم ، لأن حروبهم أدت إلى القضاء على السكان الذين كانوا مهرة في الصناعة والذين كانوا مصدراً للثروة والرخاء ، حدث هذا أول الأمر في نطاق بلادهم ، ثم في جميع أنحاء الممالك التي أخضعوها . ورغم اهتمام الأباطرة الآشوريين بإدخال نوع جديد من النسيج مثل القطن إلا أنهم لم ينشئوا ، أو بالأحرى لم يكن في إمكانهم ، إقامة صناعات أو معاملات تجارية كالتى قامت في بابل .

فلقد كان الشعب بصفة عامة شعباً زراعياً وكان من اليسير أن يستدعى الرجال من مزارعهم لفترات قصيرة لحماية حدودهم . فلما اتسعت الإمبراطورية لم تكن هذه الجماعات من القوات المؤقتة كافية لأداء الغرض المرجو منها .

وأصبح الزراع يستدعون بصفة دائمة من حقولهم ليملاؤوا مراتب جيش دائم أخذ في النمو المطرد . وليس من المستبعد أن الطبقة الحاكمة قد حرصت على شراء الملكيات الزراعية الصغيرة بغية إنشاء ضياع شاسعة ، فإتينا نقف على أبناء قنوات قد أهملت ، وعن حقول مهجورة ، عندما نقرأ عن جهود سرجون الجبارة لإعادة المجتمعات الزراعيه القديمة . ورغم كل هذا فإن هذا التوسع الحربى الذى قامت به الإمبراطورية وصل بها إلى درجة من الاتساع أصبح من العسير معها على هذا الجيش الدائم أن يحصى حدودها .

ولما توالى أبناء الثورات الجديدة ، أقلقت الحاكم فى نينوى وجعلته يأمر

رعاياه في الممالك الأجنبية بدخول الجيش ، وليس يدهشنا بعد ذلك أن تأخذ قوى الأمة الأثرورية في الضعف وفقد القوة الكامنة فيها ، وقد رأينا هذا الجيش الذي بلغ تعداد الأجانب فيه حداً أصبح يهدد الأباطورية بالخطر ، ورأينا انهيار الصناعات واضمحلالها وهجر الحقول التي أصبحت معطلة ، فضلاً عن أن الحركة التجارية في البلاد باتت في قبضة التجار الأراميين ، وأن اللغة الأرامية ذاعت بين المدن في جميع أنحاء الأباطورية وانتشرت بها ، حتى في مدينة نينوى ، وطغت على اللغة الأثرورية نفسها

وإلى جانب هذا الضعف الداخلي ، كانت تهدد الأباطورية أخطار داهية من الخارج . وهذه الأخطار جاءت ، كما درجت العادة منذ القدم من كلا جانبي الهلال الخصيب . فقد استمرت القبائل الأرامية في احتلال بعض أجزاء الأباطورية شيئاً فشيئاً ، بعد أن نزحت من الصحراء .

ويذكر سنحاريب بأنه استطاع في حملة واحدة أن يأسر مائتي ألف أسير من بابل معظمهم من الأراميين وفي نفس الوقت كانت هناك قبيلة صحراوية تعرف باسم كلدى (Kaldi) نطلق عليها الآن اسم الكلدانيين قد شرعت منذ عدة قرون في الاستقرار التدريجي حول رأس الخليج الفارسي والإقامة على شواطئه في سفوح الجبال الشرقية ، وكان هؤلاء الكلدانيون بدواً ساميين أخذوا يلعبون نفس الدور الذي لعبه الأكدونيون إزاء أكد والأموريون إزاء بابل .

ومن جهة أخرى ، كانت القبائل والجماعات الهندية الأوروية موجودة دائماً عبر الجبال الشمالية ، منذ أيام الفرسان الميثانيين . حقيقة أن الميثانيين اختفوا منذ أمد بعيد ولكن قبائل غيرها وهي قبائل الميديين والفرس من الشعوب الهندو أوروية كانت في طريقها إلى القوة والسلطان .

وكان لهذه الحركات أثر بالغ في زعزعة الأباطورية الأثرورية دون شك ،

وكان المصريون قد نخلصوا من عبء السيطرة الآشورية . ولكن فرعون مصر ؛ وقد أفرغته جماعات البرابرة الفماليين ، إضطر إلى إرسال جيش لمديد المساعدة للآشوريين .

ولم يحل عام ٦١٦ ق . م حتى كان الكلدانيون قد سيطروا على بابل وأصبحوا سادتها . ولقد زحف « نبوبولاسر Nabopolassar ، الملك الكلداني الجديد في بابل ، الذي لقب نفسه « بملك أكد ، زحف ضد الآشوريين وهزمهم في موقعةتين ، وبلغت فتوحاته بعدها حتى عاصمتهم القديمة أشور ، ولكنه فشل في الاستيلاء على هذه المدينة ، وعلى أية حال فقد زحف الميديون من الجبال الشمالية في السنة التالية (٦١٤ ق.م) وساروا ييازه نهر دجلة ثم استولوا على أشور ، ووصل (نبوبولاسر) متأخراً فلم يشترك في الهجوم ، ولكنه عقد تحالفاً مع سياكسارس (سياخار) (Cyaxares) وهاجما مدينة نينوى سوياً .

ولما كانت مدينة الأباطرة الآشوريين القوية قد عانت جيلاً كاملاً من الانهيار الداخلي ، فقد سقطت (عام ٦١٢ ق.م) بعد أن قاومت دون طائل هذه الهجمات المتكاثفة من الخارج . وعلى لسان النبي العبراني ناحوم (الإصحاح الثاني ٨ ، ١٣ والإصحاح الثالث جميعه) نسمع صدى صيحة الفرح التي ترددت في جميع أنحاء الإمبراطورية من بحر قزوين حتى نهر النيل عندما رأيت الأمم أن السوط الرهيب الذي ألهب ظهور شعوب الشرق لم يعد له وجود . وكان سقوط نينوى سقوطاً أديباً لا مرد له وعندما مرّ اكسينوفون (Xenophon) وصحبه العشرة آلاف أغريقي بهذا المكان بعد مضي قرنين من الزمان لم تكن الأمة الآشورية بعد ذلك اليوم سوى أسطورة غامضة ، ولم تكن نينوى عاصمتها سوى كومة هائلة من الأطلال لا تختلف عما نراها عليه اليوم . وفرت فلول الجيش الآشوري صوب الغرب وظلت فترة قصيرة من الزمن تقاوم بعد أن ساعدتها القوات المصرية ، ولكن ذلك

لم يدم طويلاً فانهزموا وانتهت القوة الآشورية . حتى اللغة الآشورية كان ما لها إلى الزوال ، وأصبحت الآرامية هي اللغة التي يتحدث بها سكان دولة آشور . كما أصبحت أيضاً لغة بابل وهكذا انتهى الفصل الثاني الكبير للتاريخ على ضفاف بلاد الرافدين ولم يكن قد استغرق إلا أقل من قرن ونصف من الزمان (من حوالى ٧٥٠ حتى ٦١٢ ق.م)

وبالرغم من أن سقوط الإمبراطورية الآشورية كان سقوطاً مباغتاً وعنيفاً إلا أنه ترك الأثر الذى فى غرب آسيا فى حالة تختلف اختلافاً كلياً عن الحالة التى وجدها عليه الأباطرة الآشوريون الأوائل .

تجمعت الشعوب الواقعة فى الناحية الشرقية فى البحر الأبيض المتوسط وخضعت لسلطة حاكم واحد ، فاتصلت ببعضها اتصالاً وثيقاً مستمراً صبغها كلها بصبغة متشابهة وأصبح لبلاد الشرق الأدنى - للمرة الأولى فى تاريخها - حضارة عامة بينها .

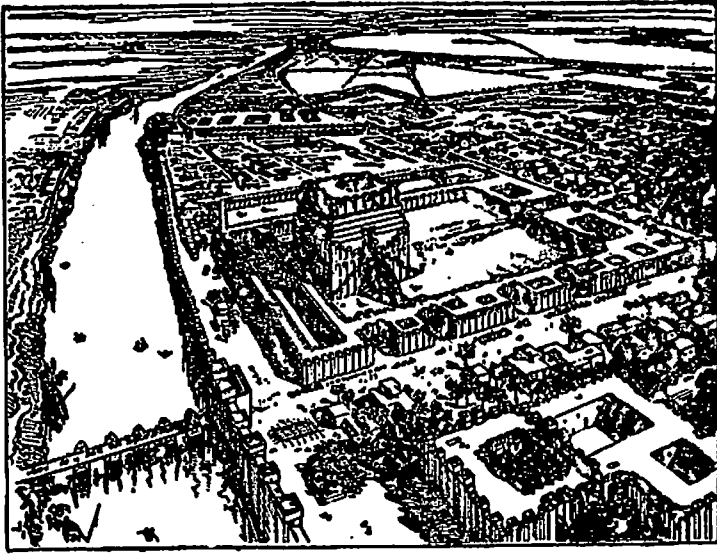
ومن الطبيعى أن تتقدم أساليب الحكم وأنظمتها فى مثل تلك الإمبراطورية ، وقد استفادت من ذلك الإمبراطورية الفارسية التى نشأت بعد سقوط دولة آشور بستين سنة ، واستمرت على اتباع ما كان هناك من تنظيم فى إدارة الحكومة . فقد خطت الإمبراطورية الآشورية خطوات واسعة وخاصة فيما يتعلق بنظامها الحربى العظيم فى سبيل الفكرة التى كانت منذ ذلك الحين فى نمو مطرد ، ألا وهى ضم قوة العالم فى قبضة يد واحدة ، هذه الفكرة التى كان لها أن تتحقق فى النهاية على يد الإمبراطورية الرومانية .

وبالرغم من فظافة الحكم الآشورى وقسوته ، فإنه كان خطوة فى تقدم الحضارة ، فإن بناء القصور الفخمة فى نينوى وفيما جاورها من المناطق كان الصفحة الأولى فى

مجد المعمار في آسيا . وفي نفس الوقت كان لدى نينوى أول المكتبات التي عرفت هناك ، ويجب ألا ننسى أن الحكم الأشوري — كما سنرى فيما بعد — كان سيياً في ذلك الصراع الدولي الذي مكن اليهود من أن يتصوروا إلههم تصوراً كله مجد وإجلال ، وذلك عندما قارنوه بإله الحرب الأشوري . ذلك التصور الذي كان له منذ ذلك الوقت أعمق الأثر على تاريخ الإنسان .

الامبراطورية الكلدانية

أسس الكلدى ، أو الكلدانيون ، سادة بابل الجدد ، امبراطورية جديدة كانت حياتها القصيرة هي الفصل الثالث الكبير في تاريخ بلاد الرافدين ، إذ كانوا آخر السادة الساميين الذين حكموا بابل القديمة .



شكل ٧٠ : اعادة لتصميم مدينة بابل فى عهد نبوخذ نصر

ان البرج الذى يقع فى مقدم الشكل هو معبد مردوخ الكبير تحوطه بعض المباني والمعابد فى القسم المقدس الذى يقع فى المنطقة الجنوبية من المدينة . أما مجموعة المباني فى مؤخرة الشكل عند منحنى النهر فهى قصر نبوخذ نصر ، ذى الحدائق المعلقة . أما فى الجانب الشرقى (اليمين) للنهى المقدس فيتجه « طريق المواكب » صوب الشمال ليصل الى القصر . ويسير نهر الفرات على الجانب الغربى (اليسار) للمدينة . وكانت عليه قنطرة (كوبرى) اقيمت منذ القرن السادس ق٠م وقد أمكن اعادة رسم التصميم القديم بعد أن قام الالمان بحفائر هناك تحت اشراف العالم كولايفى (Koldewey) أكثر من ثمانية عشر عاما (الرسم منقول عن كولايفى)

وأقام الكلدانيون عاصمتهم في بابل . التي أعادوا إنشاءها بعد تخريبها على يد سنحاريب وسموا بلادهم أكد ، ولكننا نطلق عليها اليوم اسم «كديا» . وفي عام ٦٠٥ ق . م وعلى مقربة من بلدة قرقيش Carchemish على نهر الفرات ، هزموا جيوش الغرب المتحالفة التي كانت تشمل فلول الجيش الاشوري تعضدها قوات مصرية . وهكذا شملت إمبراطورية الكلدانيين الهلال الخصيب بأسره . أما فيما يتعلق بالميديين فقد تركوهم يحكمون الجبال الشمالية .

ولما قفل نبوخذ نصر راجعاً من انتصاره المبين في موقعة قرقيش بدأ ذلك الإمبراطور الذي يعتبر أعظم الأباطرة الكلدانيين جميعاً ، حكمه (٦٠٤ ق . م) الذي استمر أربعين عاماً - وهو حكم بلغ فيه الرخاء مبلغه ، ووصلت قوة الإمبراطورية إلى غايتها ، وليس أدل على ذلك من ذكره في التوراة . فقد كان نبوخذنصر إحدى الشخصيات العظيمة في تاريخ الشرق . ولما نفذ صبر نبوخذنصر إزاء تلك الثورات العنيدة التي قامت في الغرب والتي كانت مصر تؤازرها وتظاهرها ، قام بحملات تأديبية ضد هذه البلاد وخاصة مملكة يهودا العبرانية الصغيرة . ثم نقل كثيراً من اليهود أسرى إلى بابل ، ودمر عاصمتهم «أورشليم» (٥٨٦ ق . م)

وبالرغم من الحروب الطويلة العنيفة التي خاضها نبوخذنصر ، وجد هذا الملك العظيم من الوقت متسعاً ومن المال وفرة ليوسع من نطاق بابل ويجمّلها . ورغم أن نبوخذنصر قد قلّد آشور في أشياء كثيرة إلا أنه فاق أسلافه الاشوريين في عظمة وأبهة المباني التي شرع في إنشائها . فقد أعاد بناء المعابد في الحى المقدس الشاسع ، حيث كانت تعبد الآلهة البابلية التي كانت تتمتع بتقديس تقليدى . وأنشأ طريقاً لمرور المواكب يصل هذه المعابد بالقصر ، ماراً ببوابة كبيرة هائلة تعرف «ببوابة عشتار» ، لأنها كانت مقامة باسم هذه الإلهة . وخلف هذه البوابة يقع القصر الملكى الشاسع ، وتقوم الدواوين الحكومية ، بينما ارتفع فوق الجميع المعبد

الشاهق الذي كان في الواقع ، وقد علاه معبد مردوخ ، كأنه برج حقيقى واستحق أن يسمى برج بابل . وزرع فوق سقف القصر الملكى أنواعا كثيرة من النباتات الاستوائية الجميلة ترتفع على مدرجات الواحدة تلو الاخرى مكونة حديقة تأخذ بالألباب ، وكانت هذه الحديقة تطل على بوابة عشتار فرادتها جمالا وبهاء . وهناك فى ظلال النخيل وأشجار الرخس التى توحى بالترف والذعة كان الملك ينعم بساعة من ساعات الراحة مع نساء بلاطه ويمتتع ناظره بعظمة مدينته . وتلك الحدائق المدرجة فوق قصر نبوخذنصر ليست إلا حدائق بابل المعلقة التى ذاع صيتها بين أهل الغرب حتى عدما الاغريق لإحدى عجائب الدنيا السبع . وهكذا أصبحت بابل مدينة ملأى بالمباني الفخمة مثل مدن آشور ومصر .

وشهدت بلاد بابل مدينة كبيرة للمرة الاولى ، فقد وسع نبوخذنصر من نطاقها وأنشأ حولها الأسوار الضخمة المحصنة لحمايتها وتشمل هذه الأسوار سوراً يمتد من نهر دجلة إلى نهر الفرات عبر السهل المحصور بينهما . وفى نفس الوقت كان ليصل بين ضفتى نهر الفرات عند بابل قد أقام أقدم قنطرة عرفها الناس ، وليست تلك القوائم الحجرية المهدمة التى مازالت تمتد فى بطن المجرى القديم لنهر الفرات إلا بقايا أقدم ما وصل إلينا من هندسة القناطر ، وكانت بابل نبوخذنصر هذه هى التى أدهشت هيرودوت بعجائنها بعد مضى قرن من الزمان ، تلك الدهشة التى نرى أثرها فى الوصف الذى كتبه هيرودوت لهذه المدينة . وتلك أيضاً هى بابل التى شاع ذكرها بين جميع الشعوب المسيحية ، على أنها المدينة الكبرى التى كانت مقرا لسبي العبرانيين ، ولكن لم يبق من هذه الأبحاث التى ذاع صيتها بين العالمين سوى النزر اليسير ، وقد استمرت الأبحاث الأثرية الألمانية فى هذه المنطقة من ١٨٩٩ حتى ١٩١٧ يد أنها لم تكشف النقاب إلا عن أطلال ضئيلة لجدران من الطوب اللبن ، وباستثناء بوابة عشتار لم يبق هناك سوى بعض الآثار البسيطة التى لا يمكن الاستدلال منها

على عظمة بابل، ولا توحى بتلك الحياة المترفة السعيدة التي ازدهرت في يوم من الأيام في طرقها وميادينها العامة .

ويبدو أن الكلدانيين قد هضموا الحضارة البابلية واستساغوها، كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين الذين وفدوا على هذا السهل القديم . فازدهرت التجارة وراجت الأعمال، كما خطت الفنون والصناعات خطوات واسعة في سبيل التقدم والنهوض، وعظم الاهتمام بالدين والأدب، وسجلت مؤلفاتهم على رقم مكتوبة بالمسارية، كما جرت العادة منذ القدم .

وتقدم العلم تقدماً ملحوظاً في فرع خاص من فروعه وهو الفلك . فقد واصل البابليون العادة القديمة في محاولة قراءة المستقبل مستدلين بالأجرام السماوية . وكانوا ينظرون إلى الكواكب المعروفة إذ ذاك، (عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل) على أنها القوى التي تتحكم في مصائر البشر، كما أن الآلهة البابلية الخمسة الرئيسية، كانوا يمثلون هذه الكواكب السيارة الخمسة .

ووصلت إلينا أسماء هؤلاء الآلهة البابليين على أنها أسماء الكواكب الخمسة، ولكنها تغيرت عندما وصلت إلى أوروبا فترجموها إلى كلمات تلائم الحياة الرومانية، فأصبح كوكب المشترى، إلهة الحب، هو فينوس (الزهرة)، بينما بات كوكب الإله الأعظم مردوخ كوكب جوبيتر (المشتري) وهكذا دواليك، وظل علم الفلك القديم حياً إلى يومنا هذا، فتخرج من أفواهنا جمل دون تفكير في معناها مثل قولنا : نجمة السعيد، أو : عمل نجمة نحس،

ولقد ترك علم الفلك الكلداني أثراً لا يمحي، في تقويمنا فيما يتعلق بالأسماء التي نطلقها على أيام الأسبوع . فهذه الكواكب الخمسة التي ذكرت منذ هنيئة بالإضافة إلى الشمس والقمر تكون مجموعة من سبعة أجرام سماوية، كان كل منها إلهاً على جانب عظيم من الأهمية . ولما كانت العبادة الكلدانية قد انتشرت في سوريا

وذاعت . فقد جرت العادة أخيراً على العبادة والتغنى بمدح كل إله منها في يوم خاص معين . وهكذا كانت عبادة كل إله من هذه الآلهة تتكرر بعد مرور سبعة أيام . ثم أطلق اسم الإله الذي يعبد في يوم ما على ذلك اليوم نفسه ، وهكذا أصبح اليوم المكرس لعبادة الشمس - الأحد [يوم day - الشمس Sun] وبات اليوم الخاص بعبادة القمر - الاثنين [يوم day - القمر Mon] وهكذا حتى نهاية الأسبوع ، وعرف اليوم الأخير المخصص لعبادة زحل باسم يوم ساتورن وهو يوم السبت . ولما كانت اللغة الإنجليزية قد وصلت عن طريق الشعوب الشمالية فقد دخلت فيها بعض العناصر النورسية وظهرت في أسماء بعض أيام الأسبوع مثل (Wodon's day, Wednesday) (أى يوم الأربعاء) أو (Thor's day, Thursday) (أى يوم الخميس) ومع هذا فإن هذه الأسماء جميعها ترجع إلى الآلهة البابلية القديمة التي ما زالت أسماؤها محفوظة بين الشعوب الغربية يذكرونها كلها نطقوا باسم أى يوم من أيام الأسبوع . وهناك ما هو أهم من ذلك ، فإن خدمات علم الفلك البابلي لم تقف عند ذلك الحد ، بل أن هؤلاء الناس لاحظوا السماء وكواكبها إلى أن أصبح ذلك العلم بينهم أعظم من مجرد معرفة الغيب . وإذا رجعنا بالتاريخ إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد في عهد ملوك سومر وأكد نجد أن علماء الفلك في ذلك الوقت لاحظوا خسوفاً للقمر ، وهي حقيقة استفاد منها علماء الفلك المحدثين . بيد أن مثل هذه الملاحظات كانت في ذلك العهد البعيد أمر صدفة واتفاق كما أنها لم تكن على جانب كبير من الصحة . فضلاً عن أنها كانت لا تجري وفق نظام ثابت . وبمرور الزمن جرت العادة على التحقق من هذه الظواهر على نطاق أوسع ، حتى جاء عام ٧٤٧ ق.م في عهد الملك البابلي نبوخذ نصر ، حين أصبحت هذه الملاحظات تدون بصفة دائمة وتسجل بدقة بالغة وتحفظ وثائقها في مكان خاص . ولسوء الحظ لم تبق لنا كل هذه المجموعة من السجلات ، وأقدم ما وصل إلينا منها حتى الآن هو رقيم يرجع تاريخه إلى عام ٨٠٥ ق.م وعليه أقدم المعلومات الفلكية الدقيقة . ونعلم الآن أن علماء الفلك

الكلدانيين ظلوا يكتبون هذه الملاحظات فترة تروبو على ثلاثمائة وستين سنة . وأصبحت هذه المجموعة أول سلسلة طويلة للأرصاء الفلكية ، وأول الوثائق ذات القيمة في الدراسات الفلكية . وفي الواقع لم يقم علماء الفلك المحدثون بمثل هذه الارصاد الفلكية المستمرة خلال مثل هذه الفترة التي استغرقتها الارصاد البابلية (١) وما هو جدير بالذكر أن هذا العمل العلمي استمر حتى بعد أن فقد الشعب الكلداني استقلاله ووقع تحت سطوة الحكم الفارسي .

وهناك ما هو أعظم قدراً من جميع هذه المستندات الكثيرة والملاحظات ذلك هو استفادة علماء الفلك الكلدانيين منها قبيل عام ٥٠٠ ق . م وبعد أن مضى على جميع هذه الارصاد بصفة مستمرة ما يقرب من المائتي والخمسين سنة ، استطاع أحد الفلكيين الكلدانيين ويدعى « نوبو - ريمانو Nabu-rimannu » ، أن يستخدمها في وضع جداول لتحركات الشمس والقمر ، سجل فيها حسابه للوقت الذي يستغرقه هذان الجرمان السماويان في دورتيهما اليومية والشهرية والسوية وهلم جرا . . . كما أرخ أيضا وقت كسوف الشمس وخسوف القمر ، وأوقات وقوع بعض الأحداث الفلكية الهامة . لقد حسب طول السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ، وست ساعات وخمسين دقيقة ، وواحد واربعين ثانية . وهذا الجدول الزمني الرائع الذي وضعه نوبو - ريمانو كان أقدم بحث علمي ذي قيمة انشائية في علم الفلك وحوى عظمة لم يصل إليها العقل البشري من قبل .

وحسابات نوبو - ريمانو قاربت الصواب إلى حد يدعو إلى الدهشة ولنضرب مثلاً ببعض أشياء في الدورة السنوية للشمس والقمر ، فإن الأرقام التي ذكرها في جدولها لم تفرق إلا أقل من عشر ثوان خلال العام كله . بيد أنه بعد مضى ما يزيد

١ - ان السلسلة الوحيدة التي استغرقت وقتاً طويلاً وكانت تقزم بصفة مستمرة لمثل هذه الارصاد ، والتي يمكن أن تقارن بسلسلة الكلدانيين الفلكية هي الارصاد الخاصة بنصف النهار في جرينتش بانجلترا التي بدأت عام ١٧٥٠ م

قليلا عن قرن من الزمان ، وضع فلكى آخر كلدانى الأصل اسمه د كيدينو Kidinnu ، مجموعة مشابهة من الجداول كانت اكثر دقة من سابقتها . فلم تزد أرقامه التى بين بها الوقت اللازم لدورة الشمس والقمر السنوية عن ثانية واحدة من الوقت الحقيقى ، بل أن بعض حساباته لدورة الأجرام السماوية تعد اكثر دقة وصدقا من الأرقام التى كان يستخدمها فعلا الفلكيون المحدثون إلى عهد قريب . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن الفلكى الكلدانى كان تحت تصرفه سجلات عن الأرصاد القمرية خلال فترة ثلاثمائة وستين سنة ، وهذا لم يتيسر لأى عالم فلكى محدث ، وأثبت كيدينو أيضا أن هناك اختلافا بين طول السنة التى يقاس بين الاعتدالين ، وبين قياسها على أساس الوقت بين مرتين لاقتراب الأرض إلى أدنى بعد ممكن من الشمس^(١)

ولقد آلت الأبحاث الفلكية التى استغرقت قرنا من الزمان والتي قام بها الكلدانيون ، بالاضافة إلى حسابات نو- ريمانو وكيدينو إلى الاغريق ، فانكبوا على دراسة مسائل هذين الفلكيين الكلدانيين اللذين أطلقوا عليهما اسمى : نوريبانوس Naburianos وكيديناس Kidenas وعندما حاول المهندس الاغريق ميتون Meton أن يدخل تقويما عليا فى أثينا اقتبس طول سنته من جداول نو- ريمانو ووصف أحد علماء الفلك المحدثين هذين الفلكيين بقوله : « لها كامل الحق أن يوضعا بين أعظم الفلكيين ، ، إن هذين الكلدانيين اللذين أطلعا البشرية لأول مرة فى التاريخ على نظام ثابت لعالم الكواكب وأصبحا مؤسسى علم الفلك ، يجدر بنا أن نذكرهم باحترام وأن تظل اسمائهم خالدة بعد ان عفت ذكرى ملوك العالم القديم ومحاربوه .

وبينما نجد أن دولة الكلدانيين فاقت فى مضمار العلم كل ما جاءت به أشور ،

١ - هذه الفكرة فى الواقع هى اكتشاف التغير البطيء فى درجة ميل محور الأرض وهو التغير الذى يسرته عادة قبل تسليم الاعتدالين

نجد أن فن المعمار في بابل الكلدانية قد تأثر إلى حد بعيد بمؤثرات آشورية . بيد أن الكلدانيين قد تصوروا أنهم بعملهم هذا يعيدون مجد الحضارة التي قامت في بابل أيام حمورابي ، إذ شغف الكتاب باصطناع أسلوب قديم في الكتابة ، واستخدام تغييرات عتيقة ، وكان الملوك يحفرون تحت أسس المعابد سنين طويلة ، بغية الحصول على الوثائق القديمة التي توضع في أسس البناء وقواعده (مثل وثائق حجر الزاوية لدينا) والتي دفنها ملوك العصور الغابرة .

وإذا اعتمد شعب على الماضي فلا يعني ذلك شيئاً سوى أنه في طريق الاضمحلال ، فعلى أثر موت بنوخد نصر (عام ٥٦١ ق . م) . الذي يعد عهده ذروة الحضارة الكلدانية ، يبدو أن البلاد المتحضرة في الشرق الأدنى قد فقيدت الكثير من قوتها وقوتها السابقتين ، وعجزت عن أن تسير إلى الأمام أو أن تسجل انتصارات حضارية جديدة ، أو تكتشف سبلاً للمعرفة لم يصل إليها من عاشوا قبلهم ، مثلما كانت تفعله هذه الشعوب ، أي شعوب الشرق الأدنى ، خلال ثلاثة عصور زاهرة على ضفاف النيل ، وثلاثة عصور أخرى مشابهة على ضفاف الرافدين . وفي الواقع كانت قوة الشعوب السامية وقدرتها على التحكم في العالم القديم وأهله على وشك الاقتراب من نهايتها ، وأوشكت أن تخلى السبيل أمام شعوب جديدة من العنصر الهندو - الأوروبى الذى رأينا بعضاً من أقوامه — حكام الميتانى — يظهرون في الهلال الخصيب .

الفصل السابع (١)

غرب آسيا - قديم الاقوام الهندو - أوروبية الشعوب الهندو - أوروبية وتوزيعها

لقد رأينا كيف كانت الصحراء العربية مؤثلا لعدد كبير من السكان الرحل الذين ينتقلون بصفة مستمرة من المناطق العشبية على حافة الصحراء مهاجرين إلى المدن ، لبدأوا حياة مستقرة . وكما يوجد أراض عشبية في الجنوب فإننا نجد أراض مائلة لها في الشمال تمتد في نطاق واسع من الدانوب الأدنى وتوجه صوب الشرق على طول الشاطئ الشمالي للبحر الأسود ، مختزقة جنوب روسيا متوغلة في آسيا شمالا وشرقا حتى بحر الخزر (قزوين) .

وكانت هذه المناطق آهلة بسكان من البدو الرحل في العصور الغابرة ، وبين الحين والحين مدى آلاف من السنين ، كان ينحدر هؤلاء البدو الشماليون إلى أوروبا وغرب آسيا ويستقرون بهما ، تماما كما انحدر الساميون من الصحراء الجنوبية إلى منطقة الهلال الخصيب .

واندمج بين هؤلاء البدو الشماليين ، منذ عصور موغلة في القدم ، عنصر من الجنس الأبيض يعرف باسم الهندو - أوروبي . وأصبح هؤلاء الهندو - الأوروبيون أجداد الشعوب الناهضة القوية التي تقطن أوروبا وأمريكا اليوم . ومن زمن قديم بدأ الناس في الهجرة متجهين في سبل متفرقة حتى استقر بهم المقام في منطقة واسعة تبدأ غربا من الحدود الشرقية للهند متجهة صوب الغرب ومختزقة كل أوروبا حتى المحيط الأطلسي ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالهندو - أوروبيين ، بيد أن هذا النطاق الشمالي العظيم قد قوبل في الجنوب بنطاق مماثل من الشعوب السامية ، يمتد من بابل في الشرق ومختزقا

فينيقيا والممالك اليهودية صوب الجنوب حتى قرطاجنة وبعض المدن السامية التي أسسها الفينيقيون في غرب البحر الأبيض المتوسط .

وسنرى ابتداء من الآن أن تاريخ العالم القديم ليس تاريخاً للصراع الذي احتدم بين هذا النطاق السامي الجنوبي الذي جاء من المناطق العشبية الجنوبية ، وبين النطاق الهندي الأوروبي الشمالي ، الذي قدم من المناطق العشبية الشمالية ليوأجه الحضارة القديمة الممثلة في النطاق الشمالي ، وهكذا ، إذا نظرنا إلى الجدول في شكل ٧١ نجد أن كلا الجنسين يواجه كل منهما الآخر عبر البحر الأبيض المتوسط ، وكأنهما جيشان عظيمان يقفان قبالة بعضهما على خط يمتد من غرب آسيا حتى المحيط الأطلسي وتمثل الحروب التي نشبت فيما بعد بين روما وقرطاجنة بعض العمليات على الجناح السامي الأيسر بينما يمثل انتصار الفرس على السككديانيين حدثاً مشابهاً على الجناح السامي الأيمن .

انتهى هذا الصراع الطويل بانتصار الهنود — أوروبيين انتصاراً مبنياً وتم لهم التغلب على قلب الجيش وجناحيه عندما أصبح للإغريق والرومان السيادة المطلقة على عالم البحر الأبيض المتوسط بأسره . وتلا هذا النصر صراع طويل آخر نشب بين أعضاء النطاق الشمالي أنفسهم في سبيل الوصول إلى مركز الصدارة فيه .

وأخذت السيادة في النطاق الشمالي تنتقل من طرفه الشرقي إلى طرفه الغربي مبتدئة بالفرس ، ثم الإغريق ، وأخيراً الرومان الذين بسطوا سلطانهم على حوض البحر الأبيض المتوسط والعالم الشرقي .

ولكن دعنا الآن نعود ثانية إلى ذلك الوقت الذي سبق هجرة الشعب الهنود — أوروبي عن وطنه الأصلي في المناطق العشبية فنرى أن الدراسات الحديثة لم تقطع برأى في هذا الموضوع بتحديد المنطقة التي كان يقطنها هذا الشعب أول الأمر . ويتجه الرأي الآن إلى أن موطن هذا الشعب كان في منطقة المراعي العظيمة

الواقعة على الشواطئ الشرقية ، والشرقية الشمالية لبحر قزوين ، وربما عاش هناك الأجداد الأولون الذين انحدرت منهم كل الشعوب الهندو — أوروبية فيما بعد ، وكانوا يتكلمون بلغة واحدة عندما كانوا لا يزالون شعباً واحداً .

وكانوا يجوبون هذه المناطق بحرية مطلقة باحثين عن المراعى الخصبة لقطعانهم بحكم أنقسامهم إلى قبائل متعددة ، إذ كانوا يملكون أنواعاً من حيوانات مستأنسة تشمل الماشية والأغنام . واحتل الجواد مكان الصدارة بين حيواناتهم المستأنسة ، فلم يستخدم الهندو — أوروبيون الخيل في الركوب فحسب ، بل استخدموها أيضاً في جر عرباتهم ذات العجلات ؛ واستأنسوا الثور وكان عوناً كبيراً لهم في جر المحراث لأن بعض هذه القبائل ركن إلى حياة مستقرة وقام بزراعة الحبوب وبخاصة الشعير . ولما كان هؤلاء القوم يجهدون الكتابة ، فلم تقم لهم إلا حكومة ونظام إدارى بسيط ، وربما بدأوا في استخدام النحاس ، في الفترة التي شرعوا فيها يهاجرون ويرحلون ، وأخذت قبائل هذا الشعب تجوب تلك المناطق مستبعدة عن بعضها البعض وتوغلت في تجوالاتها حتى فقدت الاتصال فيما بينها . وترتب على ذلك اتساع شقة الخلاف بين الألسن واللهجات وتباينت التقاليد واختلفت العادات ، واصطبغت كل منها بصبغة محلية خاصة . وكان في استطاعة هذه الجماعات الهندو — أوروبية المتباينة أن تفهم في بادىء الامر مع بعضها البعض عند التقائها ، فلما زادت شقة الخلاف بين اللهجات تدريجياً ، جاء اليوم الذي حدث فيه أنه إذا التقت تلك القبائل المشتتة لم تستطع التفاهم مع بعضها ، وفي النهاية فقدت هذه القبائل كل معرفة بأصلها أو بمن كانوا يتصلون بهم في القرابة ، إذ أن معرفة أصل هؤلاء الشعوب وصلتهم بغيرهم أمر لم يكتشف إلا منذ زمن قريب وكانت النتيجة النهائية لذلك فيما يتعلق باللغة هي ما نراه الآن في لغات أوروبا الحديثة . وفي امكاننا أن نتبع أكثر من لفظة واحدة

مشتركة من شعب إلى شعب مبتدئين بانجلترا غرباً ومتجهين صوب الشرق عبر أوروبا حتى شمال الهند كما نرى في هذا الجدول .

الغرب			الشرق		
الانجليزية	الالمانية	اللاتينية	الآغريقية	الفارسية القديمة واقفانستية	الهند الشرقية السنسكريتية
brother	bruder	frāter	phrātēr	brātār	bhrātār
mother	mutter	māter	mētēr	mātar	mātar
father	vater	pater	patēr	pitār	pitār

أما في الغرب فإن أقدم جماعة معروفة لنا هي الجماعات التي وفدت من الأراضى العشيية الشمالية ودخلت آسيا الصغرى قرابة عام ٢٥٠٠ ق.م. وهؤلاء الغزاة الذين أسسوا الامبراطورية الحيثية . واندفعت جماعة أخرى نحو الجنوب والجنوب الغربي واستطاعت أن تخضع السكان الذين كانوا يقطنون المنحنى الغربي لنهر الفرات ، حيث أصبحوا الطبقة الحاكمة لأمة جديدة تدعى أمة الميتاني التي سبق لنا الإشارة إليها ، وإذا بعدنا أكثر من هذا نحو الغرب نجد أن أكثر القبائل الهندو - أوروبية التي سبقت غيرها في الهجرة نحو الغرب عبرت الدانوب وتوغلت في شبه جزيرة البلقان حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. ولا شك في أن بعض هؤلاء كانوا قد استقروا بإيطاليا في ذلك العهد . وكانت هذه القبائل الغربية فرعاً من الفروع المختلطة لأجداد الآغريق والرومان ، أو على الأقل كانوا أول من أدخل أقدم اللهجات اليونانية والرومانية (اللاتينية) إلى بلاد الآغريق وإيطاليا . وكان هؤلاء الناس أثر كبير وخاصة بعد قيامهم بحملاتهم التي شنوها لإخضاع منطقة البحر الأبيض المتوسط . ولكن لندع هؤلاء وشأنهم الآن ولنتابع سرد قصة توغل هؤلاء الهندو - أوروبيين أولاً في آسيا الصغرى (الأناضول) ثم في تقدمهم نحو الطرف الشرقي للهلال الخصيب .

الحضارات

عندما ينظر الإنسان إلى منطقة الجبال المرتفعة في غرب آسيا ، يحس بأن خلف هذا الستار المنيع من الجبال بل وبينها نفسها ، حدثت هجرات وحركات إنسانية هامة . وهذا أمر حقيقى فقد كانت هذه المنطقة مسرحا لحوادث هامة مدى وقت طويل ، وستحدث الآن عن دورها الذى قامت به .

تشمل هذه المنطقة المرتفعة نطاقا شاسعا من الاراضى يمتد من البحر الإيجهى غربا متجها صوب الشرق محاذياً للجانب الشمالى للهلال الخصيب ثم يتوغل شرقا بين بحر قزوين والخليج الفارسى ، حتى الهضبة الإيرانية فى الشرق . وتكفيينا نظرة سريعة على خرائط هذه المنطقة لترينا أنها كانت تشمل من الغرب إلى الشرق الأناضول (أو آسيا الصغرى الحثيثة) وأرمينيا وميديا وإيران وفى هذه المنطقة الشاسعة تقدمت الشعوب النيوليتية حتى وصلت إلى حضارة عصر البرونز ، وكانت عناصر حضارتها متشابهة وتتصل ببعضها البعض ، فإن بعض الأوانى الفخارية الجميلة التى عثر عليها حديثاً فى إيران تشبه شهباً تاماً مثيلاتها من الأوانى الفخارية التى اكتشفت فى الأناضول أى فى الطرف الآخر من المنطقة .

وليس فى مقدورنا أن نجد لهذه الحضارة المتوغلة فى الإتساع خاصية تعرف بها ، بيد أنه فى استطاعتنا أن نطلق عليها إسما جغرافياً ، وأن نسميها ، حضارة المنطقة المرتفعة ، لأن الاعتقاد السائد هو أن هذه الحضارة نشأت فى الأصل فى الهضبة الإيرانية ، ولقد اكتشفت كميات من أوانىها الفخارية ومصنوعاتها البرونزية فى غرب إيران وفى ميديا ، وتتصل بهذه الحضارة حضارة اخرى أعرق منها فى القدم وهى حضارة بلاد عيلام فى أول عصورها . أما فيما يتعلق بالشعوب التى نمت بينها حضارة المنطقة المرتفعة ، وأصل هذه الشعوب ، فليس لدينا عنها من المعلومات

إلا الزر اليسير ، ولا شك في أنها لم تكن جميعا من أصل واحد . ومن الجائز جدا أنهم لم يكونوا من الهندو - أوروبيين في بادىء الأمر . وقد لعبت الشعوب التي كانت تقطن الأناضول دورا هاما في نمو حضارة الأرض المرتفعة ، وتلك هي الشعوب الحيثية التي كانت تستوطن آسيا الصغرى بسبب ما كان في جبالهم من معادن .

كان الجزء الأكبر من آسيا الصغرى أو الأناضول (١) تحت سيادة الحيثيين ، وهي شبه جزيرة شاسعة تتراوح بين ستمائة وسبعمائة ميل في الطول ، وبين ثلاثة وأربعمائة ميل في العرض . أنها تقرب من ولاية تكساس . وفي وسطها منضقة مرتفعة مستوية السطح تكاد تشبه الصحراء . وحول هذه المنطقة المرتفعة في الوسط الشبيهة بالهضبة ، نرى سلسلة من الجبال تكتنف الجزء الأكبر منها وتصل إلى البحر ، وعلى جانبي سلاسل الجبال توجد وديان وسهول خصبة تدر محاصيل طائلة . وتغطي الغابات منحدرات الجبال وخاصة تلك التي تواجه البحر الأسود . أما الشواطئ الشمالية لآسيا الصغرى شرقي نهر الهاليس Halys فإنها مرتفعات جبلية غنية بالمعادن وخاصة الحديد . ولهذا كان الحيثيون أقدم الشعوب التي نشرت استعمال الحديد عندما أخذ يحل مكان البرونز في بلاد البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى .

ولعله من الأصوب أن نطلق على سكان الطرف الغربي لمنطقة « الأرض المرتفعة » في قارة آسيا في العصر الذي سبق غزوات الهندو - أوروبيين ، اسم « الأناضوليين القدماء » ، إذ لا شك في أن هؤلاء القوم كانوا يقطنون هذه المنطقة

١ - أناتوليا (أو الأناضول) كلمة griecية ترادف الكلمة اللاتينية Oriens أى الشرق ولكن تداولها قد حدد معناها لأنها تستعمل للدلالة فقط على آسيا الصغرى حتى الفرات الأعلى من ناحية الشرق . وقد أثبتت آخر الأبحاث الأثرية أن الشعوب الأولى التي سكنت في الأناضول ليس هم أجداد الحيثيين المعروفين في التاريخ ، إذ أن الحيثيين وفدوا بعد ذلك ، ولهذا يمكننا أن نسمى السكان الأوائل « الأناضوليون القدماء » وهو اصطلاح لا يدل في الواقع على أصلهم أو جنسيتهم .

عندما بلغ تقدمهم الاقتصادي حد المرحلة النيوليتية فقط . وكان من عادة هؤلاء الأناضوليين القدماء أن يهاجروا ، فاتجه بعضهم إلى أطراف آسيا الصغرى من الناحية الغربية ، وهاجروا منها إلى كريت ، ورحل بعضهم إلى بلاد اليونان نفسها وكان ذلك في العصر الذي سبق عصر معرفتهم للمعادن . ونحن نذكر كيف هاجر بعضهم من الطرف الشرقي لآسيا الصغرى إلى فلسطين في جماعات كبيرة فأثروا في سكانها وأصبحت معالم وجوههم وخاصة تلك الأنف المحدبة هي السائدة في منطقة فلسطين بأسرها .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن الأناضوليين القدماء . وقد يستلزم الأمر عشرات من السنين في التنقيب والبحث لجمع شتات الحقائق لمعرفة قدر كاف عن حياة هذا الشعب وتاريخه . وقد عثر على عمق ثمانين قدما تحت أحد الأكوام الختية المعروف باسم تل اليشار Alishar على منزل من العصر النيوليتي فعرفنا منه الشيء اليسير عن بعض ما يتصل بحياتهم قبيل فجر « عصر المعادن »

أما الهندو - أوروبيون فإنهم جاؤوا على الأرجح من الشمال ومن الشرق من ناحية جبال القوقاز حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م وكان هذا أول ظهورهم على صفحات التاريخ ، وقد دلت الاكتشافات الحديثة على أن هؤلاء الهندو - أوروبيين الذين أتوا إلى الأناضول هم الذين نعرفهم باسم الحثيين الذين كانوا في طليعة التحركات الهندو - أوروبية في غرب آسيا التي انتهت أخيراً باحتلال الهلال الخصيب والسيطرة على الشرق الأدنى بأسره على أيدي الميديين والفرس .

وأدخل الهندو - أوروبيون الحصان المستأنس إلى آسيا الصغرى ومن ثم إلى جميع بلاد الهلال الخصيب ، ولم يتسبب عن هذا الغزو انقراض الأناضوليين القدماء بل خضوعهم لحكم الغزاة الجدد الذين أصبحوا الطبقة الحاكمة كما حدث في بلاد ميتاني . أما فيما يتعلق باللغة فقد نشأت لغة مختلطة ، وتضمنت هذه اللغة المختلطة



شكل ٧٢ : حيثى قديم وسليله أرمنى حديث

الى اليسار رأس حيثى قديم كما حفريها مثال مصرى على حائط معبد فى طيبة بمصر منذ ثلاثة آلاف سنة . وهى تشبه الى حد كبير وجوه الارمن الذين مازالوا يعيشون فى القطر الحيثى كما نرى فى الرسم الذى على اليمين

الجديدة ألفاظا أناضولية قديمة إلى جانب الألفاظ الهندو - أوروبية . كما اختلطت الاصطلاحات النحوية ، وظلت هذه اللغة المختلطة مدى ألف سنة إحدى اللغات الهامة فى غرب آسيا . وسنسمى هذه اللغة المختلطة « اللغة الحيثية » ، لنميزها عن لغة عصر ما قبل مجيء الهندو - أوروبيين . كان الحيثيون عند غزوهم للأناضول قوما لامدنية لهم ، ولم تنشأ الحضارة الحيثية إلا بتأثير من حضارات الهلال الخصيب . فحن نذكر كيف كانت القوافل البابلية تسير محملة بالتجارة منذ عصر بعيد إلى آسيا الصغرى ، ونذكر أيضا كيف استقر بعض التجار الآشوريين هناك . وكان وجود هؤلاء التجار سببا فى تعلم الحيثيين أساليب المعاملات التجارية ، ثم تعلموا بعد ذلك قراءة الرقم التى كان يسطر عليها التجار قوائم البضائع وأصنافها والمراسلات التجارية التى كان يبعث بها التجار الآشوريون مع تلك السلع . وقد عثر على كميات هائلة من هذه الرقم فى المدن الحيثية ، كما عثر فى الحفائر منذ وقت غير بعيد على كثير من الرقم احتوت على معاجم تحوى صفحاتها ثلاثة أعمدة من الكلمات : الأول سومرى ، والثانى آشورى بابلى ، والثالث حيثى . وهكذا تعلم الحيثيون كتابة الكلمات الحيثية بالكتابة المسبارية . وأصبحت الرقم شائعة الاستعمال بين الحيثيين ، ومن

المرجح أن استعمال هذه الرقم ^(١) قد وصل إلى كريت عن طريق هؤلاء الحيثيين ، وتقدم هؤلاء الحيثيون تقدما كبيرا في حضارتهم بعد أن تعلموا الكتابة ، ولم يأت عام ٢٠٠٠ ق . م . إلا وأصبحوا شعباً على جانب كبير من الحضارة والرقى ، وصارت لهم القدرة الكاملة على منافسة الشعوب العظيمة في الشرق الأدنى . ونهضوا مرتين لينافسوا مصر وآشور ، وسنطلق على أولى هاتين الفترتين العظيمتين الامبراطورية الحيثية الاولى (من حوالى عام ١٩٠٠ إلى ١٦٥٠ ق . م) وعلى الثانية الامبراطورية الحيثية الثانية (من حوالى عام ١٤٠٠ إلى عام ١٢٠٠ ق . م)

وأقدم ملك حيثي وصل إلينا اسمه هو « أنيتا » (Anitta) ، الذى قام فى مدينة كوسار Kussar فى المنطقة الشرقية لآسيا الصغرى . ولعل ذلك كان عام ٢٠٠٠ ق . م . ولا نعرف على وجه التحديد المنطقة التى قامت فيها تلك المدينة . ومن الواضح الجلى أن الحيثيين لم يكونوا إذ ذاك أمة واحدة ، بل كونوا عدة ممالك مختلفة كانت مثل الممالك الأوغرى فى صراع دائم مع بعضها البعض . ولكن القيادة العليا لهذه الممالك آلت أخيراً إلى مملكة الختى ^(٢) Hatti التى كانت تقع داخل المنحنى الكبير لنهر الهاليس فى وسط آسيا الصغرى وعاصمتها تعرف بحاتوساس (Hattusas) . وقد تمكن ملوك ختى Hatti من أن يخضعوا الممالك المجاورة وكونوا بذلك امبراطورية صغيرة وفى أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد تولى الملك فى حاتوساس ملك قدير هو الملك « مورسيل » (Mursil) ، أول الملوك الذين يحملون هذا الاسم . وفى الأيام التى أخذ فيها خلفاء حورابى Hammurabi يضعفون كان مورسيل الأول هو الذى تقدم

١ - حوت الرقم الحيثية كثيرا من علامات الكلمات البابلية مما مكن العالم التشكوسليفامى « بدفتش هروتزنى » Bedfich Hrozny اثباتا الحرب العالمية الاولى من حل رموز اللغة الحيثية المكتوبة بالطريقة المسماية وزادت معلوماتنا عن الحيثيين بعد ذلك زيادة مطردة . وقد أثبت العالم الالمانى أميل فورر Emil Forrer ان الرقم التى اكتشفت فى عاصمة الحيثيين تحوى امثلة من سبع لغات الى جانب اللغة الحيثية

٢ - « الختى » هى اصل كلمة الخيى والخييين التى وردت فى التوراة

مع نهر الفرات واستولى على بابل وأطاح بأخر فرد من أسرة حمورابي . بيد أن خلفاء مورسيل لم يكونوا مثله في المقدرة فلم تلبث الأمبراطورية الحيثية الأولى أن سقطت قبل أن تصطدم بمصر .

وقامت الأمبراطورية الحيثية الثانية قرابة عام ١٤٠٠ ق . م . واستمرت لمدة قرنين من الزمان صاحبة السلطان والنفوذ في آسيا الغربية . وكان مؤسس هذه الأمبراطورية هو سبيلوليوما Suppilulyuma ، كفا قائد عرفته آسيا الغربية منذ حملات تحتمس الثالث ، تلك الحملات التي بدأت في فترة تقل عن القرن قبل بدء حملات الحيثيين الهائلة . فلما تقدم سبيلوليوما في سوريا وعلى شواطئ الفرات بعد عام ١٤٠٠ ق . م أخذ يقضى على نتائج الانتصارات التي أحرزها سلفه المصرى في تلك البلاد . ولم يكن هناك تحتمس آخر ليرد عدوان هذا القائد الحيثى القوي . بل كانت هناك ثورة الملك أخناتون التي أضعفت من روح المصريين الحربية وأسلمتهم لليأس فلم يكن في مقدورهم عمل شيء إلا أن يرقبوا تقدم الحيثيين في سوريا واخضاعهم لها ، ثم ضمها إلى الأمبراطورية الحيثية . وعبر سبيلوليوما الفرات بعد ذلك ودحر قوات الميتاني ، وهكذا أصبح الفاتح الحيثى مسيطراً على جزء كبير من آسيا الغربية . وهناك رقيم له أهمية خاصة عثر عليه مع الرقم التي اكتشفت في العاصمة الحيثية «حاتوساس» وهو رسالة جديرة بالاعتبار كتبت بالمسامرية موجهة إلى الأمبراطور الحيثى من إحدى ملكات مصر^(١) وهي إما كانت أرملة إخناتون أو إبنته الثالثة التي تزوجت بتوت عنخ أمون ،

وهذه الرسالة دليل قاطع على سطوة وقوة الفاتحين الحيثيين لأن الملكة المصرية تقول له في رسالتها ، أن ليس لها ولد ليخلف أباه المتوفى على العرش وترجو الحاكم

١ - يتجه أكثر الباحثين في السنوات الأخيرة إلى الإيمان بأن تلك الملكة هي نفرتيتي ، وإنما فعلت ذلك بعد موت إخناتون عندما رأت بوادر انتصار أعدائه وانهايار حركته الدينية . (المغرب)

الحيثي أن يرسل إليها أحد أبنائه زوجها وملكها على مصر ،
ولو تم هذا الزواج لأصبحت للأسرة الملكية الحيثية حينئذ السلطة العليا على
الأمبراطوريتين المصرية والحيثية ، ولأصبحت هاتان الأمبراطوريتان مجتمعتين
أعظم أمبراطورية عرفها التاريخ . بيد أن الشك ساور الأمبراطور الحيثي في أمر
هذا العرض الغريب الذي تقدمت به الملكة المصرية ، وأراد أن يستوثق من الأمر
قبل أن يبعث بابنه إلى مصر . ولكن عندما استقر رأيه على إرسال أحد أبنائه كان
الوقت متأخراً جداً وفشل كل شيء . فعندما كان الأمير الحيثي الشاب في طريقه
إلى مصر كان أعداء أسرة اخناتون الأقوياء قد أطاحوا بالملكة الأرملة ، وألقوا
القبض عليه وقتلوه . وهكذا خسر سيلوليوما فرصة استيلائه على مصر دون حرب
أو بذل أى مجهود .

وكان لديه أبناء آخرون . فتوجه ملوكا على أم البلاد في سوريا وبهذا جعل
الطرف الشمالي للامبراطورية المصرية جزءاً من الامبراطورية الحيثية . وفي الجنوب
امتدت امبراطوريته حتى فلسطين ، التي ظلت تحت حكم مصر . أما في الغرب فإنه
عبر الفرات وامتدت حدوده حتى شملت جزءاً عظيماً من دولة الميتاني ، كما امتدت
حدوده الشرقية في وقت من الأوقات حتى وصلت إلى آشور . أما في الشمال والغرب
فقد شملت الأمبراطورية الحيثية الثانية معظم آسيا الصغرى ، وأحست مدينة
طروادة التجارية التي كانت تتمتع بقسط كبير من السطوة بضغط قوة الحيثيين ، إذ لم
تكن قد أصبحت تحت السيادة الحيثية ودانت بالولاء لأمبراطورها .

وهكذا باتت الأمبراطوريتان المصرية والحيثية نديتين متنافستين في سبيل الوصول
إلى مركز الصدارة في العالم ، وكانت منافسة عنيفة قوية بينهما استلزمت حرباً دامت
أكثر من ربع قرن من الزمان بين أحفاد سيلوليوما وبين الفرعنة سبتي الأول
ورمسيس الثاني . وعندما كانت الحرب محتدمة بين الفريقين وخاصة بعد عام

١٣٠٠ ق. م ، بدأت دولة آشور في نهضتها فسبب ذلك مضايقة للحيثيين . وأخذوا يعقدون المعاهدات بينهم وبين الملوك الموالين لهم في سوريا ، ينص فيها هؤلاء الملوك على أنهم يعتبرون الآشوريين أعداء لهم ويعاملونهم معاملة الأعداء ، ومن بين الرقم التي اكتشفت في حاتوساس توجد نسخة من رسالة جديرة بالاهتمام بحث فيها الآشوريون الملك الشاب في بابل ليهاجم آشور من الخلف .

وعندما نشبت الخلافات بين الحيثيين أنفسهم عقد حفيد سيلو ليوما واسمه حاتوسيل Hattusil معاهدة صلح مع رمسيس الثاني وهكذا انتهى الصراع بين هاتين القوتين وقامت علاقات وثيقة بين الاسرتين المالكتين ، وتبادل ملكات مصر وملكات خيتا رسائل التهئة على المعاهدة السلية الجديدة ، وهذه الرسائل مكتوبة على رقم ويرجع تاريخها إلى حوالي عام ١٢٧٠ ق. م ، وعثر عليها الباحثون بين السجلات والمدونات الملكية التي استخرجت من خرائب العاصمة حاتوساس (بوزاز كوى) . وبعث الامبراطور الحيثي بعد ذلك بابنته إلى مصر لتصبح زوجا لرمسيس الثاني . ورسم نحاتو رمسيس مناظر تمثل وصول العروس الحيثية على المعابد المصرية . بل إن بعض هذه المناظر رسم على أحد معابد هذا الملك (معبد أبو سمبل) على مقربة من الشلال الثاني .

لقد وصلت حضارة الامبراطورية الحيثية الثانية إلى مستوى عال من الرقى . وكان لها أثر كبير فيما حولها ولنتحدث عن أهم ما حققته .

نشأت الدولة الحيثية عن مجموعة كبيرة من الدويلات الضعيفة التي أخضعها دويلة (حتى) ، وكان على كل دويلة من هذه الدويلات أن تقدم لجيش الامبراطور بعض المشاة وراكبي العربات فتكونت قوة الامبراطور الحربية من هذا الجيش المختلط بالإضافة إلى الجنود الذين يجمعهم هو نفسه من مملكته . أما الحكومة فإنها كانت تطبق مجموعة حكيمة من القوانين وكان الملك نفسه مقيداً بنصوصها ، وما

يدل على تقدم الحضارة الحيثية أنه بعد توقيع معاهدة الصلح مع مصر رأى أحد ملوك الحيثيين (ربما كان الملك حاتوسيل) أن يدخل تعديلات جديدة على هذه القوانين جعلتها أكثر رحمة وإنسانية عما كانت عليه من قبل ، وبقي من هذه اللوائح حوالى مائتى بند وهى جزء غير قليل من هذا القانون وهى مكتوبة على رقم وكثيراً ما يشير فيها الملك إلى العقوبات القديمة التى كانت أكثر عنفاً وشدة ، وما أدخله عليها فصارت أكثر رحمة وأخف وطأة . كانت عقوبة سرقة رأس من الغنم تبلغ غرامة قدرها ثلاثون رأساً ، أما الآن طبقاً للقانون الجديد فقد خفضت هذه الغرامة إلى خمسة عشر رأساً فقط . ولم تطبق عقوبة الإعدام فى جرائم القتل ولا شك أن هذا القانون الحيثى كان أكثر عطفاً ورحمة من القانون الآشورى . وكان أعظم شفقة وإنسانية من قوانين بابل أو مصر . وهذا الاحترام الذى أظهره الملوك الحيثيون نحو القانون أمر جدير بالإعجاب ، وبما هو جدير بالذكر أيضاً أن سيلوليوما قد اعترف فى إحدى كتاباته بأن غزوه للأمبراطورية المصرية فى سوريا كان غزواً غير مشروع ، وأن الوباء الذى أنتشر بين شعبه بعد ذلك كان جزاء عدلا من الآلهة عما أتاه .

ولا ريب فى أن هذه العقلية المستنيرة التى قادت خطى الملوك الحيثيين كان لها أثر كبير فى التقدم الملحوظ الذى حققه الحيثيون فى ميادين أخرى غير ميادين السياسة فقد بنى المعماريون الحيثيون أقدم مباني هامة من الحجر فى آسيا . كما أن مدينة حاتوسلس ذات الأسوار القوية المنيعة كانت فى الواقع أول مدينة كبيرة نشأت فى تلك القارة إذ فاقت مدينة بابل التى كانت معاصرة لها فى الاتساع ، أما مدينة نينوى التى أقامها الآباطرة الآشوريون فقد كان أمامها قرابة ستة قرون أوسبعة حتى تظهر فى الوجود .

وخير ما تظهر فيه عبقرية المهندسين الحيثيين هو ذلك الطراز المعمارى الجديد الذى أدخلوه على واجهة قصر الملك . وكانت هذه تتكون من إيوان مسقوف فى

الوسط ، يحمل سقفه عمودان ، وعلى كل جانب من الايوان برج مربع . وأطلقوا على هذا المبنى اسم « المنزل ذو البرجين » ، وقد اقتبس الملوك الآشوريون هذا الايوان وأدخلوه في عمارة قصورهم . ثم وصل أخيراً إلى الفرس .

وعرف المهندسون الحيثيون أهمية النحت في تزيين مبانيهم . فأقاموا على جانبي المدخل الرئيسي في قصر الملك تمالين من الحجر لأسدين حارسين على جانب كبير من الدقة والجمال . وفكرة تماثيل أوصور الحيوانات الحارسة مأخوذة عن المصريين الذين كانوا يصنعون تماثيل أبو الهول الذي اقتبسه الحيثيون عن المصريين أيضاً .

وزينوا الجدران بعمل افريز سفلى للحائط يتكون من قطع كبيرة مستوية من الحجر تنحت فيها صور بارزة . نقل الحيثيون هذه العادة إلى آشور . كما نقل الحيثيون أنفسهم رموزاً ذات قيم فنية ودينية عن مصر وبابل . فجد مثلاً بين الصور البارزة الحيثية قرص الشمس الجناح المصري كما نجد رمز البابليين القديم وهو النسر الذي يفرد جناحيه ورأسه على هيئة رأس أسد وفي بعض الأحيان له رأسان أما قرص الشمس فقد انتقل شرقاً إلى الآشوريين والفرس ، وأما النسر فقد عبر البحر الأبيض واتجه صوب الغرب إلى أوروبا فيما بعد ومنها إلى الولايات المتحدة حيث أصبح النسر الأمريكي .

وتعتبر رقم الأباطرة الحيثيين أقدم قصص تاريخية تميزت بأسلوب أدبي ومكتوبة نثراً . فقد كان الكتاب الحيثيون يولون الأدب عظيم اهتمامهم ، وأدى بهم هذا الشغف إلى حب استنساخ المؤلفات البابلية القديمة وإقبالهم عليها . لقد كانت قصة البطل البابلي جلجامش (Gilgamesh) ذائعة معروفة في جميع أنحاء آسيا الصغرى . وإلى جانب المؤلفات الدينية كان هناك أيضاً بعض أبحاث خاصة مثل ذلك البحث في تربية الخيل الذي اقتبسه الحيثيون عن الميتانيين . وعلى عكس الكتاب الذين ظهروا في الحضارات العظيمة الأخرى حرص الكتاب الحيثيون

على أن يعرفهم الناس بأنهم مؤلفون فأضافوا أسماءهم إلى مؤلفاتهم . فكانوا بذلك أقدم المؤلفين الذين شعروا بكيانهم كما يفعل الآن الكتاب المحدثون .



شكل : ٧٣ - أمير حيثى يصطاد أيلًا

يقف الأمير الحيثى فى العربيه والى جانبة سائقها ، ويرمى الامير بسهمه ذكر الايل بينما يجرى كلب الصيد الى جانب الجوادين . والمنظر منقوش على حجر وهو بوجه عام مثل لابس به للفن الحيثى . وفى أعلى الصورة كتابة باللغة الهيروغليفية الحيثية

وعندما بدأ الأباطرة الحيثيون فى تشييد المباني الحجرية شعروا بحاجتهم الماسة إلى خلق طراز للكتابة يلائم الآثار الضخمة الهائلة لتزيين المباني بالكتابات التاريخية كما فعل المصريون ، ولهذا ابتدعوا طريقة فى الكتابة أساسها استعمال الصور كعلامات ، ولا زالت بعض هذه الكتابات التاريخية التى كتبها بهذه العلامات الهيروغليفية الجديدة . تراها على واجهة الصخور وعلى الجدران القائمة يشاهدها المسافرون فى منطقة متسعة من آسيا الصغرى من البحر الأيجهى إلى الفرات . ورغم أن هذه الكتابات الهيروغليفية التى كتبها الحيثيون لم تحل حتى الآن

حلا تماماً فإن الباحثين تقدموا في ذلك تقدماً يستحق الإعجاب (١).

وتوحى إلينا المدونات الحيثية باحتمال وجود عناصر مصرية وبابلية في الديانة الحيثية. فقد عبد الحيثيون مجموعتين عظيمتين من الآلهة: آلهة الأرض وآلهة السماء. فإلى جانب « الأرض الأم »، كان لديهم أيضاً إله للشمس التي آمن بها الحيثيون إيماناً صادقاً. وكان هذا الإله الأخير على جانب كبير من الأهمية جعلت الإمبراطور الحيثي يسمى نفسه « الشمس ».



شكل ٧٤ : حلية بارزة من الفضة عليها نقش مسمارى ونص هيروغليفي
حيثي

كتب صانع هذا الطبق النص الاتي حول حافظته باللغة الحيثية مكتوباً بالمسمارية « تاركونديموس ملك دولة مرا » . وعلى جانبي رسم الملك نرى نقشين بالعلامات الهيروغليافية الحيثية . ويرى الدكتور اجنيس جلب Dr. Ignace Gelb من علماء المعهد الشرقي ان لهذا النقص أهمية عظيمة لان ترجمة النص الهيروغليفي هي : « تاركونديموس ملك دولة مرا » ، وبعبارة أخرى فان نقوش هذه الحلية الفضية المستديرة ليست الا نصاً حيثياً واحداً مكتوباً بلغتين أي أنه مماثل لحجر رشيد في مصر ونقش داريوس في بهستون . فاذا حددنا قراءة بعض العلامات الهيروغليافية فانه يصبح من الميسور الانتفاع والاستعانة بها في قراءة النصوص الاخرى وبمثل هذه الطريقة البطيئة المضنية يجتهد العلماء في تحديد نطق أو معنى بضع علامات قليلة الى أن يأتي اليوم الذي يتصنقون فيه من حل جميع الغاز الكتابة الحيثية الهيروغليافية

١ يختلف الباحثون في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه الكتابة الهيثية الهيروغليافية ولو أن غالبيتهم يميلون الى الاعتقاد بانها لم تظهر حتى نهاية الامبراطورية الحيثية الثانية . وعلى أية حال فهناك ما يمكن ان يثبت أن ظهورها سبق قيام الامبراطورية الثانية .

ووصلت الحضارة الحيثية إلى ذروة ازدهارها في الوقت الذي كانت فيه
الامبراطورية المصرية في أوج عظمتها ، وفي الفترة نفسها التي كانت فيها كносوس ،
Cnossus في جزيرة كريت في عصرها المجيد ، ويوم كانت طروادة في غرب
آسيا الصغرى قد بنت مدينتها السادسة العظيمة . ولما كانت الحضارة الحيثية تقع
بين الحضارتين العظيمتين حضارة جنوب أوروبا وحضارة الشرق الأدنى ، فقد
كانت همزة الوصل بين الطرفين وكان أثرها على الشعوب الإيجمية تأثيراً مستمرا .
فقد تلتق الأغرريق عن العالم الحيثي مبادئ الفن ، وأصول المعمار كما اقتبسوا منه
بعض العقائد الدينية .

وهناك أمر آخر له دلالة الكبرى وهو أن الحيثيين ، كانوا أصحاب الفضل في
نشر استعمال الحديد في جميع أنحاء الشرق الأدنى . ويجب علينا ألا نخطئ الفهم
ونعتقد أن مهمة الحيثيين اقتصر على نقل الحضارات بين الأمم فإننا رأينا كيف
ساهم الحيثيون بنصيب وافر في حضارات الشرق الأدنى القديمة ، وقدموا له كثيراً
من المبتكرات الجديرة بالاعتبار ، واقتبس الآشوريون كثيراً منها ثم انتقل منهم
إلى الفرس ، وهم شعب من الجنس الهندو - أوروبى الذي سكن في غرب آسيا ،
ولنبداً حديثنا عنهم الآن .

الشعوب الآرية والنبي الايراني زرادشت

أجمع الباحثون على أن القبائل الشرقية من النطاق الهندو - أوروبي كانت ترعى قطعانها في منطقة المراعي العظيمة في شرق بحر قزوين قرابة عام ٢٠٠٠ ق . م بعد أن تركت موطنها الأصلي ؛ وفي هذا الوطن الجديد كونوا شعباً يطلق عليه بحق اسم الشعب الآرى (١) ، وجعلوا من هذه المنطقة وطناً لهم لفترة من الزمن .

ولم يعرف الآريون الكتابة ، ولم يتركوا آثاراً لهم . ورغم هذا فإن معتقدات أحفادهم ترينا أن القبائل الآرية كان لها في ذلك الحين ديانة رفيعة المستوى لخصت كل السلوك الانساني في أنه « أفكار طيبة ، أعمال طيبة ، ولعبت النار دوراً هاماً في هذه الديانة ، وكان لديهم جماعة من الكهنة أطلقوا عليها اسم « مشعلى النار » .

وعندما تشتت شمل الآريين . ولعل ذلك كان حوالى عام ١٨٠٠ ق . م انقسموا إلى مجموعتين فاجتهدت القبائل الشرقية نحو الجنوب الشرقي واستقرت آخر الأمر في الهند ، وفي كتبهم المقدسة المسماة وبالفيدا Vedas والتي كتبت باللغة السنسكريتية ، يتردد صدى أيام الوحدة الآرية ، كما احتوت هذه الكتب على كثير من الاشارات إلى الوطن الآرى القديم شرقى بحر قزوين .

١ - من المحتمل جدا أن الشعب الهندو - أوروبي الاول لم يكن له اسم يطلق على جميع قبائله . ونطلق كلمة « آرى » على بعض الاحيان تجاوزا على الشعب الاول هذا . ولكن ليس لهذا الاستعمال أساس من الصحة . فان صفة آرى (التى جاءت عنها فيما بعد لفظة ايران ، وايراني) تدل على جماعة من القبائل هامة فى الواقع الاجزاء من الشعب الاول ، انفصل عن ذاك الشعب واستوطن المنطقة التى تقع شرق بحر قزوين مباشرة ، ويجدر بنا أن نذكر عندما نسمع لفظة آرى يطلقها بعض الناس على الشعوب الاوروبية التى من أصل هندو - أوروبي أو يقول بعضهم أننا من سلالة آرية يجب أن نذكر أن هذا التصير خطأ: من الناحية التاريخية رغم كثرة استعماله ، وذلك لان الآريين ينتسبون الى القبائل الشرقية من الشعب الهندو - أوروبي الاول ، أما الاوروبيون والامريكيون فينتسبون الى القبائل الغربية من هذا الشعب ، أى أن الآريين هم أبناء عمومة الأوروبيين لا أجدادهم

واحتفظت قبائل الجماعة الثانية بلفظة « آرى » ، فى كلمة إيران ولذا نسميهم الآن إيرانيين . وهجر هؤلاء أيضا الوطن الآرى واتجهوا نحو الغرب والجنوب الغربى خلال الجبال التى تحدها الهلال الخصيب ، وكان حكام الميثانيين قبيلة من مجموعة تلك القبائل الإيرانية . وإذا توغلنا شرقا نجد جماعتين من الإيرانيين^(١) على جانب كبير من القوة . هما الميديون والفرس ، الذين قدر لهم أن يخضعوا الهلال الخصيب وأن يؤسسوا آخر امبراطورية شرقية عظيمة فى غرب آسيا .



شكل ٧٥ : مذابح للنار على مقربة من مدينة برسبوليس من عهد الفرس القدماء

وقدر أننا قبل الآن كيف كانت الشعوب التى تقطن الجبال المحيطة بالطرف الشرقى للهلال الخصيب خطرا دائما منذ أقدم العصور ، يهدد سلامة سكان بابل وأشور ، ويذهب بطمأنينتهم . وكانت مملكة عيلام ، وأورارتو Urarto بوجه خاص عدوتين خطرتين لأشور مما حدا بالباطرة الأشوريين الى شن غزوات متوالية لنهب هذه البلاد حتى تمكنوا أخيراً من كسر شوكتها والقضاء عليها . ولعل

١ - لقد أطلق اسمهم على الهضبة الإيرانية العظيمة بأسمها ، تلك التى تمتد من جبال زاغروس فى الغرب حتى نهر الهند شرقا . ولقد عرفت هذه المنطقة جميعها لدى الإغريق والرومان باسم أريانا Ariana تلك النسبة (مثل إيران) المشتقة بالطبع من لفظة آرى

آشور ارتكبت خطأ جسيماً بهذا العمل لأنه ربما أمكن لهذه البلاد بما كان لديها من القوة ما يجعلها تصد تقدم الهندو - أوروبيين وأن تكونا دولة تحمي حدود الآشوريين والكلدانيين .



شكل ٧٦ : رسم ملون ، يحتمل أن يكون لزرادشت

عثر على هذا الرسم الملون في معبد لاله « متراس » في دورا على الفرات وقد كشفت عن هذا المعبد بعثة مشتركة من جامعة ييل والاكاديمية الفرنسية للنقوش والفنون الجميلة برئاسة الاستاذ كلارك هوبكنز Professor Clark Hopkins (باذن من قاعة الفنون الجميلة بجامعة ييل)

ولما كانت الشعوب التي على الحدود قد أضعفتها غزوات الآشوريين فلم يلق الميديون أى عناء أو مقاومة ، واستطاعوا حوالي عام ٧٠٠ ق . م تقريباً تأسيس إمبراطورية إيرانية قوية في الجبال التي تقع شرقي نهر دجلة ، وأخيراً امتدت هذه

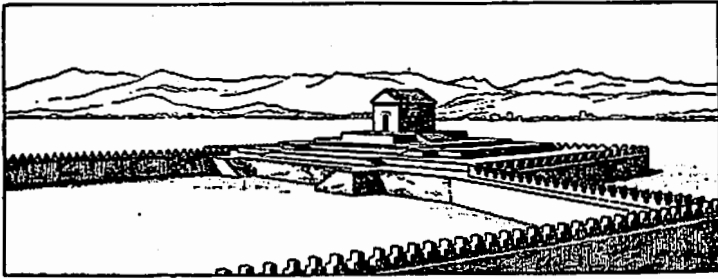
الامبراطورية من الخليج الفارسي حيث شملت بلاد فارس، وتجه صوب الشمال الغربي مع سلسلة الجبال حتى منطقة البحر الأسود وبذلك أصبحت واجهة الجناح الشرقي للهندو - أوروبيين موازية إلى حد ما لنهر دجلة في هذا المكان ولكنهم واصلوا تقدمهم وامتد هذا الجناح إلى مسافات أبعد فيما بعد ، وأسس الميديون مدينة إكباتانا Ecbatana وجعلوها عاصمة لهم. وتقع هذه المدينة في مواجهة الممر الذي يخترق جبال زاغروس مؤدياً إلى الهلال الخصيب مباشرة ، وإلى مدينة بابل رأساً .

وبعد مرور قرن من الزمان ، توجس نبوخذ نصر وخلفاؤه في بابل خيفة من الميديين الاقوياء ، عائدین بأذهانهم دون شك إلى عام ٦١٢ ق . م . حين سارع هؤلاء الميديون إلى الاتحاد مع غيرهم واشتركوا في مهاجمة نينوى وكان الكلدانيون على نهر الفرات يمثلون زعامة الدم السامي الذي قدم أهله من المراعي الجنوبية ، ولكن هذه الزعامة كانت على وشك التخلي عن مكانها لزعامة الدم الهندو - أوروبي القادم من المراعي الشمالية ، ونحن اذ نشاهد الكلدانيين يفسحون الطريق أمام الميديين والفرس ، يجدر بنا أن نذكر أننا نشهد انقلاباً خطيراً بين الأجناس المختلفة وأن هؤلاء الايرانيين الذين على وشك السيطرة على الشرق كانوا من ابناء عمومة الأوروبيين لأن كلاهما من نسل الرعاة الرحل أو الشعب الهندو - أوروبي الأول ، الذي عاش يوماً ما في المراعي النائية في وسط آسيا ، منذ خمسة آلاف سنة مضت على وجه التقريب .

وكان لجميع هؤلاء الايرانيين ديانة جميلة آلت اليهم منذ العهود الآرية القديمة التي سبقت هجرتهم . وبعد جيل من سقوط نينوى - وربما كان ذلك قرابة عام ٥٧٠ ق . م - ولد نبى ميدي يدعى زرادشت (١) وشرع هذا النبي في تأمل حياة

١ - كان هناك خلاف في الرأي في تحديد وقت ظهور زرادشت وقبل الكثيرون تواريخاً متتالية في القدم . ولكن اتفقت آراء الباحثين أخيراً على أنه عاش في القرن السادس ق . م

الناس بغية الوصول إلى ديانة جديدة تلائم حياتهم وتسد حاجتهم ، تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر ، هذا الصراع الذى كان يراه حوله أينما ساروالذى رآه ممثلاً فى ديانة الشعب الميدى وفى عقائدهم وفى آلهتهم القدماء . وبدا له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر ، واعتقد أن الخير ليس إلا كائناً إلهياً أطلق عليه اسم مازدا Mazda ، الذى كان إسماً لأحد الآلهة القدامى أو « أهورا مزدا ، Ahuramazda ومعناها « رب الحكمة ، الذى رأى فيه أنه هو « الله ، وكان يحيط بأهورا مزدا جماعة من الأعوان يشبهون الملائكة وكان أعظمهم مكانة هو « النور ، ويدعى « مثرأ ، Mathra ، ويقف ضد أهورا مزدا وأعوانه جماعة شريرة ترأسها روح شريرة قوية أطلقوا عليها اسم «أهريمان ، Ahriman وهو الذى أخذه اليهود ثم المسيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم « الشيطان ،



شكل ٧٧ - أقدم معبد فارسى ، كما كان يوم تشييده
كشف الاستاذ هرتزفلد Herzfeld عن بقايا هذا المعبد فى مدينة بازار جاده Pasargadae ويعتقد أن الملك قورش Cyrus هو الذى شيده ، ويقوم هذا المعبد على مقربة من قصر الملك وقبره فى تلك المنطقة (عن هرتزفلد Herzfeld)

وهكذا نشأت عقيدة زرادشت من الصراع القائم فى الحياة عينها . ولذا أصبحت قوة هائلة فى هذه الحياة . وكانت هذه الديانة من أنبل الديانات التى ظهرت فى العالم ، دعت هذه الديانة كل إنسان وأهابت به أن يختار أحد الطريقين - إما أن

يملاً قلبه بالخير والنور أو ينغمس في الشر والظلمة وسواء اتخذ الانسان هذا السبيل أم ذلك ، فإنه سيلاقي جزاءه ويحاسب على ما أتاه . وكانت هذه العقيدة أقدم ديانة ظهرت في آسيا تقول بالحساب بعد البعث . ولم تكن دعوة زرادشت إلا سموأ بالعقائد القديمة التي كانت منتشرة بين أهله ورفعأ لأهتهم القديمة إلى المثل الأعلى . ولهذا أبقى زرادشت على احترام الآريين للنار وعبادتهم لها على أنها رمز ظاهر للخير والنور كما احتفظ أيضاً بفكرة الكهنة مشعلى النار .

ولما لم يستطع زرادشت أن يؤثر في قومه بدعوته الجديدة هجر الميديين وذهب إلى الفرس يدعو إلى دينه الجديد ولعله لم يجد في السنوات الأولى إلا القليل من الاستجابة إليه ، إذ تتضح آماله ومخاوفه في تلك المجموعة الصغيرة من التراتيل التي تركها ، وهي - على الأرجح - كل ما وصل إلينا من أقوال ذلك النبي ، ونحن نعرف شدة شغف الآريين بتريية الخيل ، ولهذا لاندشع عندما نقرأ أن زرادشت استطاع أخيراً أن يجعل أحد الملوك الأقوياء يؤمن به عندما شفى جواداً كسيحاً كان الملك يعتز به . وقبل أن تحين ساعة هذا النبي كانت عقيدته الجديدة قد لاقت نجاحاً كبيراً وثبت قدمها ، ولم يحل عام ٥٠٠ ق . م حتى كانت الزرادشتية هي الديانة الأولى بين الإيرانيين ، كما قبلها أباطرة الفرس أيضاً . وليس من المستبعد أن يكون الملك دارا شيد مقبرة هذا النبي . ولسنا نعرف من أقوال زرادشت غير التراتيل التي ذكرناها آنفاً وإلى جانبها بعض تعاليمه التي احتفظت بها بعض المؤلفات التي جمعت في العهد المسيحي المبكر بعد وفاة هذا النبي بعدة قرون . ويجمع هذه التراتيل كتاب الأبتستا (الابستاف) Avesta الذي يمكننا أن نسميه « إنجيل الفرس » .

قيام الأباطورية الفارسية

لم يتحس شعوب من الشعوب لديانة زرادشت كما فعلت مجموعة القبائل الإيرانية التي نسميها «الفرس». وقد آلت اليأس عن طريقهم معلوماتنا عن هذه الديانة. سقطت دولة العيلاميين على إثر غزو الآشوريين لها في منتصف القرن السابع قبل الميلاد فعرضت عيلام للغزو الخارجي، وتمكن الفرس من احتلالها، وعند سقوط نينوى عام ٦١٢ ق. م. كان الفرس ينعمون بالاستقرار في المنطقة التي تقع في الطرف الجنوبي لجبال زاغروس، وشمال الخليج الفارسي وشرقه مباشرة. وشواطئ هذه المنطقة لا تبعد كثيراً في طبيعتها عن حال المناطق الصحراوية بيد أن الوديان التي تتخلل الأراضي الجبلية البعيدة عن الساحل كانت ودياناً غنية خصبة. وفي هذه الوديان احتل الفرس منطقة تبلغ الأربعة أميال طولاً وكانوا أهل جبال أقرباء تغلب عليهم الفظاظلة ويحيون حياة زراعية مستقرة لا توجد فيها أية منظمات جدية بالاعتبار، ولم يكن لديهم فن أو كتابة أو أدب، ولكن أذهانهم كانت ملأى بذكريات ماضيهم، فبينما كانوا يقومون بمرث حقولهم أورعي قطعانهم كانوا يقصون قصصاً يروون فيها أعمال أسلافهم وتقص تاريخ عقيدتهم القديمة التي كانوا يؤمنون بها.

وقبلوا أن يكونوا تحت ولاية أبناء عمومته الميديين الذين كانوا يسيطرون على البلاد الواقعة في شمالهم الغربي، ثم جاء الوقت الذي نظمت فيه إحدى القبائل الفارسية التي كانت تقطن جبال عيلام أمورها وأصبحت مملكة صغيرة اسمها «أنشان» Anshan. وبعد أن مرستون عاماً تقريباً على سقوط نينوى كان يحكم أنشان ملك فارسي يدعى قورش Cyrus، استطاع أن يجمع شمل القبائل الفارسية الأخرى في أمة واحدة. وهكذا ثار قورش على حكم الميديين. فجمع

جنوده الفلاحين واستطاع بعد ثلاث سنوات أن يهزم الملك الميدي وأن يجعل من نفسه سيداً للناطق الميديّة بأسرها . وافتت أعمال قورش أنظار الغرب وأخذوا يرقبونه وقلوبهم ممتلئة بالاعجاب والخوف .

كانت الحيوية المتدفقة في هذا الفاتح الجديد لا ينضب لها معين . أما حيوية جنوده الفلاحين فقد كانت متدفقة طاغية لا يستطيع صدها أحد ، ويبدو أن الفلاحين الفرس كانوا رماة مهرة ، وكانت الغالبية العظمى في الجيش الفارسي من الرماة ، الذين كانت عاصفة سهامهم التي يطلقونها على العدو من مسافة كبيرة تغمر الأعداء قبل أن يلتحموا بهم ويقاتلوهم بدأ بيد . وبعد ذلك تتقدم فصائل الفرسان الفارسية المدربة ، التي كانت تبق حول جانبي الجيش ، فإذا جاءت لحظة الهجوم هجموا وأكملوا القضاء على العدو ، وقد تعلم الفرس هذه التنظيمات من الأشوريين ، أعظم من عرفهم الشرق كجنود محاررين .

وعقدت الدول العظمى ، بابل (كالديا) ومصر ، وليديا ، تحت حكم الملك كروسس Croesus في غرب آسيا الصغرى . وحتى إسبرطه في بلاد الأغر يق ، فيما بينها تحالفاً قوياً ضد هذا الخطر المفاجيء الذي ظهر وكأنه نور شهاب ثاقب في سماء الشرق . ولم يضيع قورش لحظة واحدة فباغت كروسس بهجوم مفاجيء في ليديا ، لأنه كان صاحب الفكرة في إنشاء هذا الحلف ، ثم تابعت انتصارات الفرس فسقطت ساردس Sardes عاصمة ليديا عام ٥٤٦ ق . م ووقع كروسس أسيراً بين يدي قورش . واستولى قورش أيضاً على الشواطئ الجنوبية في آسيا الصغرى . وهكذا امتدت سيادة المملكة الفارسية الصغيرة فأصبحت في مدى خمس سنوات صاحبة الصدارة في العالم الشرقي ، وأصبحت تحكم المنطقة من جبال عيلام حتى البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك آسيا الصغرى أيضاً .

وعندما اتجه قورش شرقاً ، لم يجد عناء في هزيمة الجيش الكلداني الذي كان

يقوده ولي العهد الشاب « بلشاصر » Belshazzar ، الذي ورد اسمه في سفر دانيال (الإصحاح السابع) وأصبح اسماً معروفاً لكل شخص في العالم المسيحي . أما الأسوار الضخمة العالية التي أقامها نبوخذ نصر لحماية بابل فإنها لم تدفع عنها غائلة الهجوم ، وسقطت المدينة عام ٥٣٨ ق.م. أمام هجمات الفرس دون مقاومة تذكر . وهكذا ، لم يمحض على سقوط نينوى إلا أربعة وسبعون سنة فقط حتى نشب الصراع بين سكان الأراضى العشيية الشمالية وأهل الأراضى العشيية الجنوبية . وانهار الشرق السامى تماماً أمام زحف القوى الهندو - أوروبية .

وأسس قورش عاصمته وأقام قصره عند بازارجاده Pasargadae حيث تم الكشف عن بقايا قصر هذا الفاتح العظيم . فنجد على إحدى الصور البارزة التي عثر عليها الجزء الأسفل من صورة الملك ، وعلى طيات لباسه نرى نقشاً مكتوباً بالعلامات المسماة نقرأ فيه الكلمات الآتية : « قورش ، الملك العظيم ،

وفي هذا المكان أيضاً أقام قورش معبداً للديانة التي نادى بها زرادشت الذي كان مازال حياً في أيام قورش وبعد مضي تسع سنوات على سقوط بابل ، خر قورش ، أول فاتح عظيم من الجنس الهندو - أوروبى ، صريعاً في ميدان الوغى (عام ٥٢٩ ق.م.) أثناء قتاله مع البدو القاطنين في شمال إيران ، ووضع جثمانه بما يليق به من احترام وإجلال في مدينة بازارجاده في قبر ضخم يؤثر في نفس الناظر إليه ببساطه وعمارتة ، وقد رآه الإسكندر الأكبر في ذلك المكان بعد انقضاء مائتي سنة .

صار غرب آسيا بأسره في قبضة الملك الفارسى . وفي عام ٥٢٥ ق.م. أى بعد أربع سنوات فقط على وفاة قورش غزا ابنه قبيز أرض مصر ، وبعد انتصار الفرس على آخر دولة قويه في الشرق ، أصبحت حدود الإمبراطوريه الفارسيه مشتملة على الشرق المتحضر كله من دلتا النيل حتى البحر الإيجهى بما في ذلك جميع البلاد



شكل ٧٨ : مقبرة قورش فى بازار جاده
من المحتمل أن يكون قورش نفسه شيد هذه المقبرة على مقربة من معبده وقصره ،
وظل جثمانه فيها مايقرب من مائتى سنة عندما جاء الاسكندر الاكبر فوجد الجثة
ملقاة على أرضية المكان بعد أن جردها السارقون مما كان عليها من حلى . وأمر
الاسكندر ، فوضعوا الجثة فى مكانها وأغلق باب حجرة الدفن ، ولكن اللصوص
عادوا فنهبوها ، وهى الان خالية من كل شىء (عن رسم بالريشة للمصور جورج
بلاومان George T. Plowman)

التي حول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وامتدت من هذه الحدود
الغربية صوب الشرق حتى كادت تصل إلى الهند ، ولم يستغرق هذا العمل الضخم
سوى خمسة وعشرين سنة منذ اليوم الذى قهر فيه قورش جموع الميديين . وقد
كان للإمبراطورية الأشورية الفضل فى تمهيد الطريق لهذا العمل العظيم إذ أن
الفرس بدأوا يقتبسون الكثير عن سبقهم من الحضارات .

مضارة الإمبراطورية الفارسية

ورأى الفرس أن مدينة بابل كانت مدينة عظيمة فخمة وحولها أسوارها الضخمة التي أقامها نبوخذنصر والتي كانت تمتد من النهر إلى النهر . كما شاهدوا مبانيه الهائلة التي يراها الناس من مسافة بعيدة في السهل البابل . وكانت هذه المدينة المركز التجارى الأول في غرب آسيا وكانت أعظم سوق عرفه الشرق القديم . أما على ضفاف النيل فقد حكم الأباطرة الفرس المدن الرائعة التي تزخر بالآثار العظيمة التي تحدثنا عنها فيما سلف وكان لتلك الحياة المتحضرة التي رآها الفرس على ضفاف النيل وما رآوه أيضا على ضفاف الفرات أثر كبير عليهم كما سيتضح لنا .

وكانت اللغة الآرامية وهي اللغة التي كان يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملأون الأسواق البابلية ، قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره . وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق من البردى ، إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئا فشيئا . ولهذا رأى الموظفون الفرس أنهم مضطرون لتأدية أعمالهم الحكومية ، مثل جمع الضرائب باللغة الآرامية في جميع أنحاء النصف الغربى للإمبراطورية الفارسية ، وكانوا يعثون برسائلهم الحكومية إلى بلاد النيل وغرب آسيا الصغرى باللغة الآرامية ، لأنها كانت اللغة العالمية في جميع الأعمال الخاصة بالتجارة والإدارة .

ولهذا كانت حكومة الملوك الفرس ، مثلها في ذلك مثل الإمبراطورية الآشورية ، حكومة ذات لغتين ، أى أنهم كانوا يستعملون لغتين هما الآرامية والفارسية القديمة واستخدم الفرس في كتاباتهم للغة الفارسية حروفا آرامية ، كما يفعل اليوم من يكتبون الانجليزية بحروف لاتينية يد أنه كان لهم إذ ذاك حروف هجائية مسمارية ربما أخذوا فكرتها عن الكتابة الآرامية .

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠
٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠
٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠
٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠

١

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠
٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠
٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠
٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠

ب

شكل ٧٩ : النقشان الفارسيان القديمان اللذان كانا أول النفوش التي حلت رموزها وقرئت

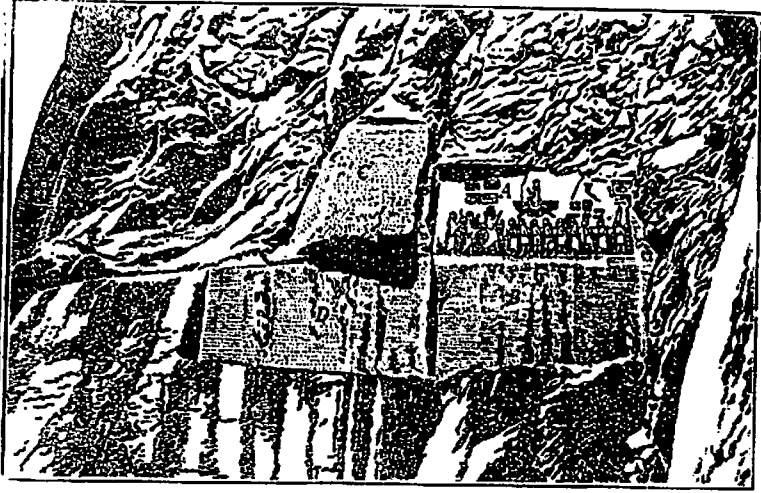
كان من عادة الكتاب الفرس أن يضعوا بعد نهاية كل كلمة شرطة صغيرة مائلة ، ونرى في الرسم أرقاما موضوعة فوق هذه الشرط للمساعدة على تحديد كل كلمة . وقد لاحظ « جروتفند » أن بعض الكلمات تتكرر كتابتها في كل نقش من النقشين . فمثلا نرى في النقش العلوى (١) أن ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ هي الكلمة نفسها . وفي النقش الآخر (ب) تتكرر الكلمة نفسها في ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٧ . ولما كان هذان النقشان فوق رسم ملوك من الفرس فقد ظن جروتفند ان هذه الكلمة التي تتكرر دائما يجب أن تكون هي كلمة « ملك » ولما كانت في كل من النقشين تأتي في مكان رقم ٢ فتكون الكلمة الاولى أى رقم ١ هي اسم هذا الملك أى يكون بدء النص هو « دارا الملك » ووجد جروتفند بعد ذلك أن القلب ملوك الفرس كانت معروفة في الوثائق الفارسية من العصور التالية . وكان ترتيب ورود هذه الالقب مساعدا لجروتفند على الظن بأن ترتيب النص كان كالاتى :

١	٢	٣	٤	٥
اسم الملك	الملك	العظيم	ملك	الملوك
فارسي				

٦	٧	٨
ملك	اسم الملك	ابن
فارسي		

٦ ، ٧ ، ٨ تعنى « ابن الملك »

وأخذ يجرب بعد ذلك أسماء ملوك الفرس وخاصة ماكان عدد حروفه يصلح لان يكون في المكان المخصص للاسماء ، ووصل الى أن الاسم المحتمل لان يكون في المكان رقم ١ من النص العلوى هو اسم « دارا » والاسم الذي في المكان رقم ١ في النص الاسفل هو « كزرکس » وسنرى نتيجة ذلك في شكل ٨٠



شكل ٨١ : نقش النصر - نقش الملك دارا الاكبر على صخور يهستون -
الذي يمكن تسميته بأنه حجر رشيد قارة آسيا
هذا الاثر الفخم هو اهم وثيقة تاريخية في آسيا . وهي مقسمة الى أربعة
اقسام - ا رسوم بارزة ، اما ب ، ج ، د فهي كتابات منقوشة على الصخور ونقش
ب مكتوب في سطور يبلغ ارتفاع كل منها نحو ١٢ قدما ويسجل انتصار
داريوس على أعدائه عندما أحدثوا ثورات واسعة النطاق بعد اعتلائه للعرش .
وهذا النقش مكتوب باللغة الفارسية بالابجدية المسماة الجديدة المكونة من
تسعة وثلاثين حرفا التي أوجدها الميديون على ما يظن . أما النقشان الآخران
(ج ، د) فهما ترجمة للنقش الفارسي (ب) . فاما النقش (ج) فهو باللغة
البابلية في حين أن النقش الثالث (د) فهو مكتوب أيضا بالمسمارية ولكنه بلغة
منطقة عيلام أي باللغة العيلامية .

وهكذا أراد « الملك العظيم » أن يعلن انتصاره وينشره على الناس مكتوبا بأهم
اللغات التي يتكلمها سكان المناطق الشرقية ، وأمر بوضع هذه النقوش في مكان
قريب من بهستون على الطريق بين بابل والهضبة الإيرانية حيث تمر القوافل
فيراها المارون منقوشة على واجهة الصخر على ارتفاع ثلاثمائة قدم ، ونقشها
الفنانون بحجم كبير لتسهل رؤيتها اذ تبلغ في ارتفاعها ٢٥ قدما أما عرضها فهو
٥٠ قدما

ومن الصعب جدا أن يصل الإنسان الى مكانها وقد خاطر السير هنري
رولنسون (Sir Henry Rawlinson) بحياته عندما نقل هذه النقوش
الثلاثة بين أعوام ١٨٣٥ ، ١٨٤٧ . وعكف على دراستها فساعدته على حل رموز
البابلية المسمارية القديمة . وبهذا تكون نقوش دارا هذه هي التي ساعدت
العلماء على معرفة لغة وتاريخ بابل وآشور

وقد أدت هذه النقوش لدراسات تاريخ ولغة غرب آسيا ما أداه حجر رشيد
لدراسات المصرية (مرسوم من الصور الفوتوغرافية التي أخذتها بعثة المتحف
البريطاني) .

قراءتها ، وهكذا ظل تاريخ بابل وأشور مدفوناً تحت أنقاض المدن التي قامت على ضفاف دجلة والفرات .

كانت الكتابة المسهارية الفارسية مكونة من تسعة وثلاثين حرفاً هجائياً ولهذا لم تكن صعبة . وقد تمكن جروتفند Grottefond وهو مدرس ألماني ، في أوائل القرن الثامن عشر أن يتعرف على اسم دارا واكرزركس وبعض الألفاظ الفارسية الأخرى . ثم استطاع عدة باحثين أوروبيين آخرين أن يتوصلوا إلى معرفة أصوات أكثر الحروف الهجائية المسهارية في اللغة الفارسية ، وأتم السير هنري رولنسون وهو ضابط بريطاني حل رموز الكتابة المسهارية الفارسية في عام ١٨٤٧ وأصبح العلماء منذ ذلك التاريخ يستطيعون قراءة النقوش التي كتبت باللغة الفارسية القديمة ، ولكن عدد هذه النقوش كان ضئيلاً إذ ذلك وكانت الأهمية الكبرى لقراءة هذه النقوش الفارسية هي أنها ربما كانت وسيلة تساعدنا على معرفة قراءة الكتابة المسهارية البابلية .

فقد لاحظ الباحثون منذ أمد بعيد أن النقش الثالث في أثر بهستون Behistun العظيم للملك داريوس قد كتب بنفس الحروف المسهارية التي توجد على كثير من الرقيم الفخارية وعلى بعض الآثار التي عثر عليها في بابل فاعتقد الباحثون أنه إذا أمكننا قراءة النقش الثالث في بهستون ، يصبح في استطاعتنا قراءة الوثائق البابلية والآشورية القديمة ونجح رولنسون بعد ثلاث سنوات قضائها في دراسة نقوش بهستون من أن يحل رموز بعض الكتابة البابلية أيضاً المكتوبة بالطريقة المسهارية وعند ذلك بدأت أطلال المدن البابلية وخرائب الدور الآشورية تفسح عما خبأته من أخبار ، وتخبّرنا رويداً رويداً عن العصور الثلاثة العظيمة في تاريخ بلاد الدجلة والفرات . وهي فترة تزيد على ألفين وخمسمائة عام من تاريخ الإنسان في غرب آسيا ، كان العالم يجهلها جهلاً مطبقاً .

ويرجع الفضل في قدرتنا على قراءة المدونات المسهارية ومعرفة هذه المعلومات الجديدة إلى الوثائق التي خلفها لنا ملوك الفرس .

وكان تنظيم هذه الإمبراطورية الشاسعة . التي تمتد من نهر السند حتى البحر الإيحيى (تقرب من طول الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب) ، ومن المحيط الهندي حتى صحراء بحر قزوين ، عملا جبارا ، كانت هذه الإمبراطورية تتطلب مجهودا في التنظيم على نطاق واسع ، أعظم من أي نوع من التنظيم حاول أي حاكم آخر أن يفعله من قبل . كان هذا العمل أكبر من أن يتم كله على يدى قورش الذى بدأه ثم آتته دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) الذى سيظل التنظيم الذى وضعه عملا من الأعمال الخالدة المجيدة في تاريخ الشرق بل في تاريخ العالم كله .

كان حكم دارا حكما عادلا رحيا مستنيرا ، ولكنه لم يكن لرعاياه من الشعوب أى صوت فى الحكومة ، وكان العاهل الفارسى يلقب بالملك الأكبر منذ أيام قورش ، وكان كل ما يقرره الملك الأكبر يصبح قانونا وعلى الشعوب أن تخفى أمام كلمته ، ويقول دارا فى نقش بهستون : لقد انصاعت هذه البلاد لأوامرى والحمد لأهورا مزدا ، وكل ما أمرتهم بعمله كانوا ينفذونه ، ونلاحظ هنا حقيقة هامة نستشفها من هذا النص ألا وهى أن هذا النظام لم يكن محاولة للحكم على نطاق أعظم مما عرفه العالم حتى ذلك الوقت لحسب ، بل كان حكومة فى قبضة رجل واحد . ولم ينس العالم القديم المثال الذى وضعته الإمبراطورية الفارسية الشاسعة التى حكمها فرد واحد .

وفى سبيل إتمام هذا التنظيم العظيم عمل دارا على أن يؤلى نفسه ملكا فعليا على كل من مصر وبابل ، ثم قسم باقى الإمبراطورية إلى عشرين ولاية ، وكانت كل

ولاية من هذه الولايات تعرف باسم « ساتريه » Satrapy لأن كلا منها كان تحت إمرة وال أو حاكم يدعى ساتراب Satrap يعينه الملك الأعظم . وأنه وإن كانت هذه التنظيمات شبيهة بما كان متبعاً في امبراطوريات الكلدانيين وآشور ومصر إلا أنها تعد خطوة تقدمية في نظام حكم الولايات تحت إمرة الحكام . وفي الواقع كانت الإمبراطورية الفارسية بنظامها الجديد ، المثال الأول في التاريخ لمجموعة من الشعوب الخاضعة التي تحكم كأقاليم ، ويمكن أن نطلق على هذا النظام « أنه نظام إقليمي » . وتمتعت الأمم الخاضعة أو بالأحرى الأقاليم الواقعة تحت الحكم الفارسي بقسط كبير من الاستقلال في إدارة شئونها المحلية طالما كانت تقدم للملك الأكبر الجزية المفروضة عليها ، وطالما كانت ترسل لجيشه جنوداً . ولقد دعول الملك الأكبر في سبيل الوقوف على أسرار أي ثورة محلية ومنعها ، كثورة حاكم أو شعب ضد الحكم الفارسي ، على تعيين موظفين يقيمون في كل دولة من الدول التابعة له . وكان يطلق على هؤلاء وفقاً لعادة مصرية قديمة : « آذان الملك أو عيون » ، وكانت مهمتهم تنحصر في إبلاغ الملك أية قرينة على العصيان ، وكانت كل هذه التنظيمات تحسينات أدخلها الملك الأكبر على نظام الحكم في الإمبراطورية الآشورية .

كانت الأراضي الزراعية مقسمة إلى إقطاعات شاسعة في حوزة نبلاء أقوياء ، أو بعض ملاك الأراضي الأغنياء ، فلم يكن هناك إلا غدد ضئيل من الزراع الذين يملكون أراضيهم ، وكانوا جميعاً يدفعون ما عليهم ، لتقدم مع الجزية التي كانت مفروضة على جميع أنحاء الإمبراطورية وكانت هذه الجزية تجبي عينا في المنطقة الشرقية من الإمبراطورية ، وذلك وفقاً للتقليد القديم .

أما في المنطقة الغربية من الإمبراطورية ولاسيما ليديا والمستعمرات الإغريقية في غربي آسيا الصغرى حيث كانت العملة المعدنية معروفة منذ عام ٦٠٠ ق . م .

فإن الجزية كانت تدفع بالعملة . أما الأقطار الشرقية، مصر و بابل، وبلاد الفرس نفسها فلم تكن بعد قد اقتبست هذه الطريقة ، وعلى أية حال فقد شرع دارا فى سك عملة ذهبية كما سمح لولائه أن يسكوا عملة فضية ، وكانت النسبة ١٣ : ١ ، أى أن الذهب كان يعادل ثلاث عشرة مرة قيمة الفضة وكان للعملة المسكوكة فضل كبير فى تيسير التبادل التجارى بين الأمم ولهذا أصبح استعمالها عاما وأكثرت انتشارا فى الشرق الأدنى خلال العهد الفارسى .

ويمكننا أن نقول بوجه عام أن دارا مثله فى ذلك، كمثل اليا بانين فى العصر الحديث، أظهر مهارة فائقة فى اقتباس خير ما فى الحضارات العظيمة التى تحيط به لى يطبقها فى حكومته ، فلقد أدرك سريعا الخير الذى يعود من استخدام التقويم المصرى الذى يقسم السنة إلى اثنى عشر شهرا كل منها ثلاثون يوما ، فأمر باقتباس هذا التقويم فى الحكومة الفارسية، وأعجب دارا إعجابا شديدا بما وصل إليه المصريون فى الطب . فأمر بإعادة أحد رؤساء الكهنة الذى كان على جانب عظيم من المعرفة ، وكان أسيرا فى بلاد الفرس ، فأصدر إليه تعليماته لىذهب إلى صا الحجر، وهى مدينة تقع فى غربى الدلتا، وأن يعيد بناء مدرسة طبية مصرية كانت قد تهدمت مبانيها، ونحن نقرأ تلك القصة على قاعدة تمثال لهذا الكاهن الكبير فى مجموعة متحف الفاتيكان بروما ونعرف منها كيف نفذ هذا الكاهن أوامر دارا وأعاد بناء دارى المدرسة ، وكانت إحدى الدارين تختص بالمدرسة نفسها ، أما الأخرى فيرجح أنها كانت المكتبة ، وجمع لها الطلبة من أرقى العائلات ليدرسوا فيها، وهياها بما يلزمها من الآلات، التى كانت تستخدم على الأرجح فى العمليات الجراحية . ويستطرد النقش قائلا : لقد فعل صاحب الجلالة (أى دارا) ذلك لإدراكه قيمة هذا الفن (الطب) لىنقذ حياة كل من أصابه السقم . وهكذا أسس هذا العاهل الفارسى الكبير أقدم مدرسة طبية كمؤسسة ملكية .



شكل ٨٢ : جنود من الفرس

بالرغم من ان هؤلاء الجنود كانوا يحملون الحراب عند تأديتهم عملهم كحرس في القصر ، الا انهم كانوا من الرماة كما نرى من كثافة السهام المعلقة فوق ظهورهم والقوس المعلق على الكتف اليسرى . وكان من عادة جنود الفرس ان يشرعوا حرابهم وهم ملتفون حول الملك في ساحة القتال ، تأمل الملابس الفخمة التي يلبسها حراس القصر .

هذا الرسم مأخوذ من أصل زاهي الالوان على قوالب مزججة وهو فن اقتبسهُ الفرس عن الاشوريين واستخدموه في تجميل جدران القصور .

وفي عهد دارا . أيضا قام عالم الفلك الكلداني « نوريमानو » Naburimannu بأبحاثه الفلكية في بابل ، كما أن هناك دراسات أخرى من هذا النوع قام بها « كيدنو » Kidinnu في عهد الحكم الفارسي أيضا .

وليس أدل على حنكة دارا الأكبر السياسية من حرصه على أن يجعل من بلاد الفرس دولة ذات قوة بحرية عظيمة ، ولم يكن يسيرا على أمة تقطن قلب

اليابسة ومكونة من جماعات من الرعاة والفلاحين ، وتفصلها عن الماء شواطئ صحراوية أن تسيطر على البحر وتسوده . واضطر دارا إلى استخدام ملاحين من الأجانب ، ومن أعماله أنه بعث بملاح ماهر من ملاحى البحر الأبيض المتوسط يدعى « سكيلاكس » Scylax ليكتشف نهر السند فى الهند . ثم أمره دارا بعد ذلك أن يبخر إزاء شواطئ آسيا من مصب نهر السند متجها صوب الغرب حتى خليج السويس ؛ فكان سكيلاكس أول بحار غربى عرفناه أبجر يازاء هذا الشاطئ الجنوبى لآسيا ، ذلك الشاطئ الذى كاد أن يكون مجهولا لدى الشعوب الغربية وكان ذلك حوالى عام ٥٠٠ ق . م .

وفى السويس أعاد دارا حفر القناة المصرية القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر ، وكانت قد ملئت بالطين والرمال منذ زمن غير يسير . وقد عثر على قطع متناثرة للوحات حجرية كبيرة ، وكان دارا قد أقامها على طول الطريق القديم لهذه القناة . وتحمل هذه اللوحات نصا يتحدث عن إعادة حفر هذه القناة . وهذه هى بعض كلمات « الملك العظيم » : « أمرت بحفر هذه القناة من مجرى الماء الذى يوجد فى مصر والمعروف باسم النيل حتى البحر (البحر الأحمر) الذى يمتد من بلاد الفرس ، تم حفر هذه القناة كما أردت ، وأبحرت السفن من مصر إلى بلاد الفرس عن طريق هذه القناة ، وذلك وفقا لمشيتى ، . ومن الواضح أن دارا كان يراوده أمل أثبتت الأحداث خطاه وهو جعل الشاطئ الجنوبى لبلاد الفرس يساهم فى النشاط التجارى المطرد بين الهند وعالم البحر الأبيض المتوسط .

فكما كانت بلاد الفرس فقيرة فى صغار الملاك للأراضى كانت تفتقر أيضا إلى التجار الصغار الطموحين الذين ربما ظهر منهم مغامرون ينهضون بشؤون التجارة .

وأحسن دارا معاملة المدن الفينيقية ، ولم يفعل ما فعله الأشوريون ونجح في إعداد أسطول حربي فينيقي ضخم . وسوف نرى أن ابن دارا ، الكركس Xerscus (خشيارشا) ، استطاع أن يعتمد على المئات من السفن للأعمال الحربية وللنقل في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وعندما دعت الحاجة إلى استخدامها في غزو أوروبا . وهكذا حقق الملوك الفرس المستنيرون ما لم يحققه الأباطرة الأشوريون وأصبحت فارس أعظم قوة بحرية في آسيا .

وحافظ الأباطرة الفرس على طرق المواصلات بشقهم طرقا صالحة تمتد في جميع أنحاء الإمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها ولعل هذه الطرق أسدت للامبراطورية الفارسية ماتسديه لنا الآن السكك الحديدية ولكن على نطاق ضيق بالطبع .

وكان للرسل الملكيين نظام بريدي أدق وأسرع مما كان متبعاً في الإمبراطورية الأشورية ، وكان هؤلاء الرسل يمتازون بسرعة مذهشة ، ولكن نقل البضائع كان يحتاج إلى وقت أطول . فمثلا من سوسا Susa أو برسبولس Persepolis إلى البحر الإييجي كان يتطلب من الوقت ما يعادل ما نحتاجه الآن لطوف حول العالم وما يدل على فائدة تلك الطرق انتشار ذلك النوع من القوت الذي ينمو في البيت ألا وهو الدجاج . فقد كانت في الأصل دجاجة برية تعيش بين الأدغال في الهند ثم استأنسها الهنود الشرقيون ولم تصبح منتشرة في منطقة البحر الأبيض المتوسط حتى جاءت بها وسائل المواصلات الفارسية من الهند إلى البحر الإييجي .

كانت مدينة سوسا العيلامية القديمة التي تقع في جبال زاغروس هي العاصمة وفيها كان يقطن الملوك ، بيد أن هواء بابل المعتدل اجتذب العاهل الفارسي أثناء الشهور الباردة في السنة فكان يرحل إلى قصور الإمبراطورية الكلدانية البائدة ليقم بها . وقد حرص ملوك الفرس الأوائل على أن يقيموا في وطنهم الفارسي

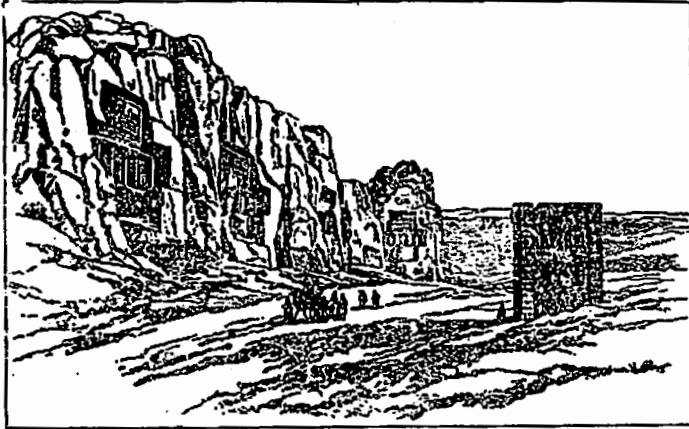
القديم ، رغم بعده ولقد رأينا أن قورش قد أقام قصرأ فخماً عند بازارجاده على مقربة من المكان الذى هزم فيه الميديون وأن دارا قد بنى أيضاً قصرأ رائعاً عند برسبولس التى تبعد نحو الأربعين ميلاً جنوب قصر قورش . وبالقرب من أطلال برسبولس توجد مقابر دارا واكسر كسيس وغيرهم من الأباطرة المتأخرين . لأنهم كانوا حريصين على أن يدفنوا فى موطنهم الأصيلى فى فارس .

وأخذ البناءون الفرس يتعلمون فن المعمار من الشعوب الشرقية القديمة التى أصبحت خاضعة لإمبراطوريتهم . فاقبسوا المدرجات الهائلة التى كانت تقوم عليها القصور الفارسية عن البابليين . كما اقتبسوا الثيران المجنحة التى تقوم أمام أبواب القصر والسلام المؤدية إليها عن آشور . أما بواكى الأعمدة التى تمتد أمام القصور وتملأ أنبهاها والتى كانت أقدم ردهات ذات أعمدة بنيت فى آسيا - فإنهم اقتبسوها من مصر إذ كانت تقوم على ضفاف النيل منذ أكثر من ألفين من السنين قبل ذلك التاريخ ^(١) وكذلك جدران القصور الزاهية الألوان والتى بنيت من طوب مزجج فإنها جاءت إلى بلاد الفرس من الغرب . وهكذا اندمجت الحضارات العظيمة التى حكها الأباطرة الفرس فى حياة إمبراطوريتهم .

وأدى اندماج تلك الحضارات القديمة التى نشأت فى الشرق الأدنى تحت نظام شامل إلى إيجاد حالة جديدة لها خطرها الكبير فى تاريخ أوروبا فقد رأينا قورش وكيف وصلت انتصاراته إلى شواطئ البحر الإيجهى ورأينا المدن الإغريقية التى تقع فى غربى آسيا الصغرى وقد أصبحت تحت الحكم الفارسى . وهكذا امتدت تلك الإمبراطورية العظيمة على طول جنوبى أوروبا . وإذا تأملنا خريطة للعالم ووضعنا فى أذهاننا أن تقدم الإمبراطورية نحو الغرب قد امتد فى النهاية تحت حكم دارا

١ - مما يلفت النظر أن الفرس لم ينقلوا المقعد فى البناء عن البابليين . فان جميع الابواب فى قصر دارا تعلوها قطعة حجرية أفقية هى مانسيبها « العتب » وقد نقلوا ذلك من الابواب المصرية

فشمل الأراضي الأوروبية حتى نهر الدانوب، فإتنا ندرك أن وقوع اصطدام حربي بين الإمبراطورية الفارسية وبين بلاد الأغر يق أصبح أمراً لا مفر منه . وسيكون لهذا الموقف فيما بعد أثر أعظم ، عندما يؤدي إلى اندماج أقوى بين حضارات الشرق الأدنى وبين الحياة في أوروبا الغربية إلى درجة لم تكن ميسورة من قبل . ولم تكن تلك الحروب بين بلاد الفرس وأوروبا ذات أهمية كبرى بالنسبة لبلاد الفرس ، ولكنها كانت العامل الأساسي في تطور تاريخ بعض الأمم الصغيرة مثل الأغر يق .



شكل ٨٣ : مقابر ملوك الفرس الاوائل على مقربة من مدينة برسبوليس (تخت جمشيد)

بعد موت قورش وابنه قمبيز ، بدأ ملوك الفرس منذ عهد دارا الاول في نحت مقابرهم في واجهة هذا الصخر على مسافة يسيرة من مدينة برسبوليس . وهنا مقابر دارا الاعظم واكسر كسيس ودارا الثاني وارتا كسر كسيس الثاني وارتا كسر كسيس الثالث ودارا الثالث وكلها منحوتة في الجبل خلف قصور برسبوليس ولو أضفنا عليها مقبرة كورش (شكل ٧٨) يصبح لدينا مقابر جميع الملوك الفرس التسعة ماعدا قمبيز الذي غزا مصر فان قبره لم يعثر عليه حتى الآن . وأمام كل مقبرة تقوم بضع أعمدة يفتح وسطها الباب . وفوق الأعمدة نرى مربعا منحوتا في الصخر فيه رسم الملك يتعبد للاله أهورامزدا أمام مذبح للنار وقد فتحت هذه المقابر وسرقت محتوياتها كما حدث لمقبرة كورش وجميع هذه المقابر لاتحوى شيئا الاّن اللهم الا التوابيت الحجرية الضخمة الموضوعة في أماكن معدة لها في الجدران ، تلك التوابيت التي دفن فيها دارا واكسر كسيس وغيرهم من الملوك وعائلاتهم .

كان الحكم الفارسي بالنسبة للعالم الشرقي على وجه العموم فترة رخاء وسلم استمرت نحو قرنين من الزمان (انتهت حوالي ٣٣٠ ق.م).

ومع تقدم الزمن لم يعد ملوك الفرس في قوة قورش أو دارا أو مهارتهما ، فقد أحبوا الترف وركنوا إلى الدعة وألقوا كثيراً من مهام الحكم على عاتق ولائهم وموظفيهم ، وترتب على ذلك أن أصبحت الحكومة في حالة فساد وعجز ، وكان مصيرها إلى الضعف والاضمحلال .

وكتب المتأخرون وخاصة الاغزيق عن الحكام الفرس وصورهم لنا كطغاة شرقيين قساة القلوب غير متحضرين ولكن هذا الوصف مليء بالتخامل وخاصة إذا تحدثنا عن الحكام الفرس الأولين . فلقد شعر بعض هؤلاء الأباطرة الفرس شعوراً عميقاً بواجبهم في أن يهينوا حكومة عادلة لأمم الأرض . فيقول دارا الأكبر في نقش بهستون ، ولهذا مد أهورا مزدا يد المساعدة لي .. لأنني لم أكن شريراً ، ولم أكن كذوباً ولم أكن طاغية ، وما كان أحد من أجدادي هكذا . لقد حكمت طبقاً لقواعد العدل ، .

ولا ريب في أن الامبراطورية الفارسية . أعظم امبراطورية شهدتها العالم القديم تمتعت بحكومة عادلة رحيمة لم تعد لها أي حكومة سبقتها في بلاد الشرق ، وتدل كثير من هذه التصريحات مثل تلك التي وردت في نقش دارا وأشرنا إليها منذ لحظة على أن الحكام الفرس كانوا أتباعاً مخلصين لتعاليم زرادشت . وقد ساعدتهم قوتهم على نشر هذه العقيدة النبيلة في جميع أنحاء غربي آسيا الصغرى . وهنا ظهر متراس ، الذي كان زرادشت ينظر إليه على أنه أحد أعوان أهورا مزدا ظهر على أنه بطل النور ، وفي آخر الأمر إلهاً للشمس ، وطغنا اسمه على اسم أهورا مزدا شيئاً فشيئاً . وانتقل متراس من آسيا الصغرى إلى أوروبا ، وزاد انتشار عبادته فيما بعد في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وأصبحت بعد ذلك منافساً خطيراً

للديانة المسيحية لأنه فيما يتعلق بالديانات ، وبالنسبة لكثير من الأمور الأخرى ، أتمت الامبراطورية الفارسية تحطيم الحدود الدولية ، وكان ظهورها بداية فترة طويلة من الزمن تنافست فيها الديانات الرئيسية في الشرق لنيل مركز الصدارة بين جميع الأمم .

كانت بلاد الفرس آخر قوة عظيمة عرفها الشرق الأدنى القديم . وقد آن الأوان لتوجه أنظارنا صوب الغرب لنشهد تقدم الحضارة في بلاد أوروبا، ولكن لنقف هنيهة لتتذكر ما حققته الشعوب الشرقية القديمة . لقد اخترع الشرق الأدنى لأول مرة في التاريخ مجموعة كاملة من المخترعات التي لم تتفوق عليها مخترعات أخرى سوى مخترعات العالم الحديث . كانت الشعوب الشرقية أول من ابتدع الفن والهندسة والأدب والعلوم . وكان لدى الشرقيين أقدم القوانين المكتوبة وتمت بينهم أقدم عقيدة نادى بوحداية الله ورعايته الأبوية لجميع البشر .

ولم جانب ذلك فقد قبل الشرق دائماً فكرة الملكية كأمر طبيعي ولم يخطر في ذهن أحد أن يؤخذ رأى الناس في الطريقة التي يحكمون بها . ولم يعرف الناس ما نسميه الآن الحرية كما نفهمها في عصرنا الحالي ، ولم يحلم أحد بالنظام الذي يجعل الناس أصحاب الكلمة في حكم أنفسهم وهو ما نسميه بالديموقراطية .

وكما قبل الشرقيون حكم الملوك بدون مناقشة فأنهم آمنوا بحكم الآلهة . فاعتقدوا أن أى عاصفة تثار تسبب فيها إله من الآلهة وأن كل كسوف للشمس كان من عمل إله غاضب أو روح شريرة ، ولم يهتم الشرقيون كثيراً ليعرفوا الأسباب لحدوث هذه الظواهر ولهذا لم تتقدم بينهم العلوم الطبيعية تقدماً ذا شأن ، أما الديانة فشوهتها الخرافات وحرم الفن والأدب من بعض مصادرها الأساسية اللازمة للتطور والالهام .

وكان ما زال أمام الناس أشياء كثيرة لا حصر لها ، وكان عليهم ان يصلوا اليها ، وذلك في إدارة الحكومة وفي التفكير في دنيا الطبيعة ، وفي إدراك ما في الطبيعة من غرائب وجمال ، وفي التعمق في الفن والأدب وفي غيرهما من الميادين وقدر لهذا التقدم أن يتم مستقبلا في أوروبا ، التي تركناها عند حديثنا عن العصر النيوليتي في آخر الفصل الثاني .

ويجب علينا أن نتبع الآن سير الحضارة وهي تنتقل من الشرق الأدنى القديم مارّة بشرق البحر الأبيض المتوسط لتصل إلى سكان أوروبا ، وذلك منذ أربعة آلاف وخمسة آلاف سنة .

« انتهى »

فهرس الاعلام

١٢٣ ، ١١١ :	ابنوس ، خشب ال
٢٥٢ ، ١٣٠ ، ١٠٨ ، ٨٨ :	أبو الهول ، تمثال
٢٥٠ :	أبو سمبل ، معبد
١٨٣ :	أتانا ،
١٤١ ، ١٣٨ ، ١٣٧ :	أتون ، الإله
١٤٣ ، ١٣٤ ، ١٠٤ :	أناث ،
١٤٤ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ١ :	أخاتون ، الملك
٢٤٨	
١٨٤ :	أدابا ،
٢٠٠ :	أدونيس ،
١٢٠ :	أدوين سميث ، بردية
١٥ :	أديسون (مخترع)
١٧٢ :	أريكوى ، قبيلة ال
٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ :	أرامى ، أراميون ،
٢٤٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢١٤ ، ٢١٠	
٢٦٦	
٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢١٤ :	أرمينيا ، بلاد
٢٦١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٤٢ :	آرى ، آريون
٢٥٧ :	أريانا ، منطقة
٨٥ ، ٨٠ ، ٦٦ ، ٥٠ ، ٤٨ ، ٤٥ :	أزميل ،
٢٦٣ :	اسبارطه ، بلاد
٢٤٢ ، ١٥٣ ، ٥٠ ، ٣٠ :	أسبانيا ، بلاد
٤٩ ، ٣٥ ، ٢١ ، ١٩ ، ١٣ ، ١٢ ، ٨ ، ٢ :	آسسيا ،
١١٠ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ :	
١٢٧ ، ١٢٤ ، ١٢٢ ، ١١٧ ، ١١٤ :	
١٢٩ ، ١٢١ ، ١٣٧ ، ١٣٤ ، ١٣٠ ، ١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٠ :	
١٧٨ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٦ :	
٢١٨ ، ٢٠٥ ، ١٩١ ، ١٨٨ ، ١٨١ :	
٢٥١ ، ٢٤٦ ، ٢٣٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٠ ، ٢١٢ ، ١٧٢ ، ١٦٤ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٤٠ ، ١٣٠ ، ١٢٠ ، ١١٠ ، ١٠٠ ، ٩٠ ، ٨٠ ، ٧٠ ، ٦٠ ، ٥٠ ، ٤٠ ، ٣٠ ، ٢٠ ، ١٠ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ :	
٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٥٢	
١٩٣ ، ١٦٠ ، ١٥٦ ، ٥٩ ، ٤٥ ، ١٣ :	آسيا الغربية :
٢٣٩ ، ٢٢٨ ، ٢١٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٢	
٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٤ ، ٢٥٧ ، ٢٤٣	

١٦٩ ، ١٤٤ ، ١٤٠ ، ٥٩ ، ٤٥ ، ٢١ :
٢٠١ ، ٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٩٣ ، ١٧٧
٢٤١ ، ٢١٥ ، ٢١٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤
٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤
٢٧٢ ، ٢٦٣

آسيا الصغرى ،

٢٧٦ ، ٢٠٤ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٤ :
٥٤ :

اسطول مصرى قديم ،
اسكتلندا ،

٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٨ :

اسكندر الاكبر ،

٨٠ :

اسكندرية ، ال

٥٧ ، ٥٠ ، ٣٣ ، ٣٢ :

اسكنديناوة ،

٢٤٢ :

اسكيتيون ،

٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٩١ ، ٦٦ ، ٤٣ ، ٢٥ :

أسلحة ،

١٣٢ ، ١١١ ، ١٠٦ :

أسوان ، مدينة

١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٨١ ، ١٥١ ، ٩٣ :

أشور ، آشوريون

٢٠٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٩٨

٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣

٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٨

٢٢٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٨ ، ٢١٦

٢٣٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥

٢٥١ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣١

٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٢

٢٧٤ ، ٢٧٢

٢٣٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧

٢٥٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧

٢٧٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٢٦

١٧٨ :

أشسنتوتا ،

٢٢٤ :

أشور - بانى - بال ، الملك

٢٣ :

أطلس ، جبال ال

١١٩ ، ١٠٥ :

أغانى شعريّة ،

٢٥٥ ، ٢٤١ ، ٢٣٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٢ :

اغريق ، اغريقيون

٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٦٣ ، ٢٥٧

١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٥٥ :

أكد ، اكديون

٢٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨٠

١٩٩ ، ١٩٦ ، ١٩٣ ، ١٩٠ ، ١٨٦

٢٣٤ ، ٢٣١ ، ٢٢٦ ، ٢٠٠

٢٧٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٠ :

أكزكسيس ، الملك

٢٢٧ :

اكسينوفون ،

١٦٩ ، ١٠٦ :	الفنتين ، جزيرة
٢٦ ، ٢٢ ، ٢ :	المانيا ،
١١٠ ، ١٠٨ ، ٨٧ ، ٨٦ :	امحوتب ، الوزير
١١٧ ، ١١٦ :	امزاء الاقاليم ،
١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٣٣ :	امنحوتب الثالث ، الملك
١٣٧ ، ١٣٦ :	امنحوتب الرابع ، الملك
١٤١ ، ١٣٧ :	امون ، الاله
١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٦ ، ١١٥ :	امنمحات ، الملك
٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤١ :	اناضول ، ال
١٧٢ :	آن - انى - بادا
٧٩ ، ٧٧ ، ٥٠ ، ٢٢ ، ٢١ ، ١٩ :	انجلترا ،
٧٥١ ، ٦٧١ ، ١٧٦ ، ١٥٧ ، ٢٤١ :	
٢٦٢ :	انشسان ،
١٦٥ :	انليل ، الاله
٢٦٠ :	اهريمان ،
٢٧٩ ، ٢٧١ ، ٢٦٠ :	اهورامازدا ،
٣٢ ، ١٦ :	اوبر ماير ، (مؤلف)
١٤٢ ، ١٣٥ ، ١١٩ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢ :	اوزيريس ، الاله
٢١٢ :	
٢٥٧ ، ٢١٤ :	اورارتو ،
٥٧ ، ٢١ :	اورال ، جبال ال
١٧٢ ، ١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٦ ، ١٥٨ :	اور ، مدينة
١٨٢ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٥ ، ١٧٤ :	
٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٨٩ ، ١٨٦ ، ١٨٥ :	
٣٢ ، ٣١ ، ٢١ ، ١٩ ، ١٤ ، ١٢ :	اوروبا ،
٥٠ ، ٤٩ ، ٤٤ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ :	
٨٩ ، ٥٩ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٢ :	
٢٣٢ ، ٢٠٣ ، ١٧٣ ، ١٤٣ ، ١٣٥ :	
٢٧٧ ، ٢٧٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٨ :	
٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٨ :	
٤٢ :	اوستراليا ،
٥٧ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٨ ، ٥ ، ٣ ، ١ :	امريكا ، امريكيون ،
١٣٣ ، ٧٧ ، ٧٢ ، ٦٤ ، ٦٢ ، ٥٨ :	
١٧٣ ، ١٦٨ ، ١٦٦ ، ١٥٤ ، ١٥٢ :	
١٢٩ :	ايجه ، بحر
٢٦١ ، ٢٥٧ ، ٢٤٣ ، ٢٠٦ ، ٢١ ، ٤ :	ايران ، بلاد
٢٦٤ ، ٢٦٢ :	
٢٤١ ، ٣٠ ، ١٤ :	ايطاليا ،

ب

٩٣ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،	بابل ، بابليون ،
١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ،	
١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،	
١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،	
١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،	
٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ،	
٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،	
٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ،	
٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ،	
٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ،	
٢٧٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٠ ،	بازار جاده ، مدينة
٧٣ ، ٧٢ ،	بالرمو ، حجر
١٤٨ ،	بتوليمايوس ، الملك
١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٩ ،	الابيض المتوسط ،
٣٣ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ،	بحر ، ال
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٢ ،	
١١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٥١ ،	
١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ،	
١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ،	
٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ،	
٢٦٥ ، ٢٨١ ،	
٥٧ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١٢١ ،	الاحمر ، ال
٤٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٩ ،	الاسود ، ال
١٢٤ ، ١٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٦٤ ،	بحر ايجيه ،
١٥٢ ،	بحر الجليلية ،
١٤ ، ٥٦ ،	بحر ، ال
٥٤ ، ٥٦ ،	بحر البلطيق ،
٧٨ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،	بردى ، نبات وملفات ال
١٣٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،	
٢٧٦ ، ٢٧٧ ،	برسبوليس ، مدينة
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٩١ ،	برونز ، ال
٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٢٣ ، ٢٤٣ ،	
٢٤٤ ،	

٣١ ، ١٦ :	برى (مؤلف) ،
١٤٨ :	بطليموس ، بطالمة ،
١٧٤ ، ١٥٨ ، ٩٨ ، ٩٦ ، ١٦ :	بقر ، ابقار ،
٢٦٤ :	بلشاصر ، الملك
١٦٠ :	بلوخستان ،
١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٤ ، ١١١ :	بونت ، بلاد
٢٥٤ :	بهستون ، حجر
١٣٥ :	بورخارت (مؤلف) ،
١٦ :	بورنييه (مؤلف) ،
١٥٥ ، ٩٣ :	بيبلوس ، مدينة

ت

٢٢ :	تابير ، حيوان ال
١٦٤ :	تالنت ، وحدة موازين ،
١١١ ، ١٠٣ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٥٣ ، ١٣ :	تجارة وصلات تجارية ،
١٩١ ، ١٨٢ ، ١٦١ ، ١٧٩ ، ١١٢ :	
٢٤٦ ، ٢٠٦ ، ١٩٨ :	
٩١ :	تحنيط ، ال
١٤٣ ، ١٣٤ ، ١٢٨ ، ٢١ :	نحوتمس الثالث ، الملك
٥٩ ، ٤ :	تركيا ،
٢٤ ، ١٢ ، ١١ :	تسمانيا ، جزيرة
١١١ :	تعدين ، حملات ال
٢٧٣ ، ١٦٣ ، ٧٢ ، ٧١ :	تقويم ، ال
٢٤٥ :	تل اليشار ،
١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٨ :	تل العمارنه ،
١١٩ :	الدينى ، ال
٩٢ :	تموز ، الاله
١٦ :	تورنييه ، مؤلف ،
١٤٢ ، ١٤١ ، ١٣٧ ، ١٣٤ ، ١٠٥ :	توت عنخ امون ، الملك
٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٢٤٨ ، ١٤٤ :	

ث

١٤ ، ٨ :	ثدييات ، ال
٣٣ ، ٢٢ ، ٢١ :	ثلج وثلوج ،
١٥٨ ، ١٠٨ ، ٩٦ ، ٤٦ ، ٣٩ ، ٣٢ :	ثور وثيران
٢٤٠ ، ٢٢١ :	

ج

١٣٤ ، ٨٠ ، ٧٩ :	جبانة ،
١٢٠ :	جبر ، علم ال
٤٤ :	جبل طارق ،
١٥٦ ، ١٥٥ ، ٩٣ :	جبيل ،
١٢٠ :	جراحة ، ال
١٢٩ :	جرانيت ، ال
٢٧٠ :	جروتوند ، مؤلف ،
٣٠ ، ٢٠ :	جزائر ، ال
٥٩ :	جزر ، ال
٥٦ :	جزر ، ال
١٥٣ ، ١٥١ :	جزيرة ، شبه
١٢٢ :	جسور ، اقامة ال
٢٥٢ ، ١٨٤ :	جلجمش ،
١٩٠ ، ١٧٩ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٠١ :	جلد ، ال
٢٢٠ ، ٧٦ ، ٢٢ :	جمل ، ال
١٥٦ ، ١٥٢ ، ٥٨ ، ٥٧ :	جنس ، ال
٥٧ :	جنس ، ال
٥٧ :	جنس ، ال
٥٧ :	جنس ، ال
١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٧٧ ، ١٥٦ :	جنس ، ال
٥٧ :	جنس ، ال
٢٤٠ ، ٢٠٣ ، ١٢٦ ، ٣٠ ، ١٠ :	جواد (انظر حصان وخيل) ،
١٠٤ ، ١٠٣ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ :	جيزة ، ال
١٩١ ، ١٤٥ ، ١٢٣ ، ١٢٢ :	جيش ، ال
٣٣ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ١٩ :	جيولوجيون ،

ح

٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٧ :	حاتوساس ، مدينة
٢٥١ ، ٢٥٠ :	حاتوسيل ، الملك
٦٢ ، ٣٤ :	حبشة ، جبال ال
١٦٥ :	حبوب ، ال
١٠٤ :	حطب حرس ، الملكة
١٢٧ :	حتشبسوت ، الملكة
١٤٨ :	حجر ، رشيد
٢٣٢ :	حدائق بابل ،

٢٤٤ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ١٩١ ، ١٤٤ ،	حديد ، ال
٢٥٥	
٣٠ ، ٢٧ ، ١٧ ، ١٢ ،	حرية ، ال
١٠٦ :	حرخوف ، رحالة ،
٢٤٥ ، ١٩٨ ، ١٥٨ ، ٣٠ ، ٢٨ ،	حصان ، ال
١٢٦ ، ١٢٣ ، ١٢٢ :	حصون ، حصن ،
٩٨ ، ٩٧ :	حلي ، ال
١٩٢ ، ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ،	حمورابي ، الملك
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،	
٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٣٦ ، ٢١٦ ، ١٩٩	
٢٢٠ ، ١٩٨ ، ١٩٢ ، ١٥٨ ، ٩٧ ، ٣٦ :	حمير أو حمار ،
٢٤١ ، ٢٢٤ ، ٢١٩ ، ٢٠٤ ، ١٩٩ ،	حيثيون ، ال
٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،	
٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،	
٢٥٥	

خ

٢٢١ ، ١٩٦ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٦٠ :	ختم ، أختام اسطوانية ،
١٩٢ :	خران ،
١٩٢ :	خرانو ،
١٩٦ ، ١٩٤ ، ١٦٣ ، ١٥٥ ، ٩٠ ، ٧٨ ،	خشب ، ال
٢٧٦ :	خشبارشا ،
١٤٠ :	خط ، ال
١٤٠ :	خطابات تل العمارنة ،
٤٧ ، ٣٠ ، ٢٧ :	خطافات الصيد ،
١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ٨٨ :	خفراع ،
٢٧٥ :	خليج السويس ،
١٧٧ ، ١٥٨ ، ١٥٦ ، ١٥١ ، ٩٢ ، ١٤ ،	خليج ، ال
٢٥٩ ، ٢٢٦	
٨٨ :	خنتكاوس ،
٣٢ :	خنزير ، ال
٢٢٣ ، ٢٢٢ :	خورسباد ،
١٠٤ ، ٨٨ :	خوفو ،
٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢ :	خيتا ،
٢٤٥	

الوحشية ، ال : ١٤ ، ٩٦ ، ١٢٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣ ، ٢٢٠ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦١

د

دائرة ، ال : ١٢١ : الفلكية ،
دارا ، ملك الفرس ، : ٢٥٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
دارا الثاني ، : ٢٧٧ :
دارا الثالث ، : ٢٧٧ :
دانيمرك ، بلاد ال : ٤٥ ، ٥٠ ،
دانوب ، نهر أو وادي ال : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٧٧ ،
دجلة ، نهر أو وادي ، : ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٦ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
٢٠٦ ، ٢٢٧ ، ٢٥٧
دشليت ، (مؤلف) ، : ٢٩ :
دلابورت (مؤلف) ، : ١٨٧ :
دلتا ، ال : ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١١١ ، ١١٤ ،
١٢٤ ، ٢١٦ ، ٢٧٣
دلتا نهر النيل ، : ٦٢ ، ٢٦٤ :
دمشق ، مدينة : ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ،
دهشور ، منطقة أثرية ، : ٨٦ :
دورا ، على الفرات ، : ٢٥٨ :
دور شاروكن (مدينة) ، : ٢١٥ ، ٢٢٢ :
ديوريت ، حجر ال : ٩٨ ، ١٩٢ ، ١٩٦

ذ

ذهب ، معدن ال : ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٥٩ ،
١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٢٠

ر

رافدين ، بلاد ال : ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ،
١٩٨ ، ١٩٧
رع ، الاله ، : ٩٤ ، ١٣٦ :
رشيد ، حجر ، : ١٤٨ :
رصاص ، معدن ال : ١٥٩ ،

١٠٣ :	رقيق ، أرقاه ،
٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ١٤٤ ، ١٢٦ ، ٦٠ :	رمسيس الثاني ، الملك
١٤٣ :	رمسيس السادس ، الملك
٣٢ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٢٧ ، ٢٦ :	رنة ، حيوان ال
١ :	روكفلر ، جون ،
٢٣٩ ، ١٩٤ ، ١١٣ ، ١٥ :	روما ، مدينة
١٠٩ ، ٩٥ ، ٨٩ ، ٧٢ ، ١٧ ، ٣ :	رومان ، ال
٢٥٧ ، ٢٤١ ، ٢٣٩ ، ٢٢١ ، ١٤٧	
١٧١ ، ١٢٢ ، ٧٠ :	رى ، أعمال ال
٥٢ :	رياضية ، ألعاب

ز

٢٧٦ ، ٢٣ ، ٢١ :	زاجروس ، جبال
١٠٠ :	زجاج ، صناعة ال
٢٣٣ :	زحل ، كوكب
٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦ :	زرادشت ، النبي الايراني
٢٧٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٢	
١٥٩ ، ٩٦ ، ٩٢ ، ٨٣ ، ٧٠ ، ٦٨ ، ٦٥ :	زراعة ، ال
٨ :	زرافة ، حيوان ال
٦٠ ، ٥٨ :	زنوج ، حياة ال
٨٦ :	زوس ، الملك

س

١١٢ :	ساحورع ، الملك
٢٦٣ ، ٢٠٧ :	ساردس ،
٢١٤ :	سامرة ، مدينة ال
١٧٦ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٣ ، ١٥٢ :	سامى ، ساميون ،
١٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨٠ ، ١٧٨ ، ١٧٧	
٢٣٠ ، ٢٠٤ ، ١٩٩ ، ١٨٩ ، ١٨٧	
٢٦٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٣	
٢٥١ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ :	سبيلوليوما ، الملك
١٩٩ ، ١٩٦ ، ١٨٨ ، ١٨٠ ، ١٧٧ :	سرجون ، الملك
٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢١٩ ، ٢٠٠	
٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢١٨ ، ٢١٥ ، ٢١٣ :	سرجون الثاني ، الملك
٢٤٢ :	سردينيا ، جزيرة

١٩٣ :	سفر التكوين ،
٢٦٤ :	سفر دانيال ،
١٠١ ، ٥٩ ، ٥٤ ، ١٣ :	سفن ، ال
١٠٣ ، ١٠٢ :	سقارة ،
٢٧٥ :	سكيلاكس ، (ملاح)
١٤١ :	سمنخكارع ، الملك
٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢٠١ :	سنحاريب ، الملك
٢٣٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢١٩	
٢٧٥ ، ٢٧١ ، ١٦٠ :	سند ، وادى ال
١١٧ :	سندباد ، ال
٢٠٦ ، ١٥٣ :	سنسكريت ، سنسكريتية
١٠٤ ، ٨٦ :	سنفرو ، الملك
١١٧ :	سنوهي ، قصة
١١١ ، ١٠٦ :	سودان ، ال
١٤٠ ، ١٢٣ ، ١٠١ ، ٩٣ ، ٤ ، ٣ :	سوريا ، سوريون ،
٢٠٤ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٥٤ ، ١٤٢	
٢٣٣ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧	
٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٢	
٢٧٦ ، ١٧٩ :	سوسا ، مدينة
١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٨ :	سومريون ، ال
١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٨ ، ١٦٦ ، ١٦٥	
١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧٢	
١٨٢ ، ١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٧٧	
١٨٩ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٣	
١٩٩ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٩٣	
٢٤٦ ، ٢٣٣ ، ٢٠٠	
٢٧٥ :	سويس ، ال
٩٩ ، ٤٧ :	سويسرا ،
٢٢٧ :	سياكسارس ، الملك
١٤٤ :	سييتى الاول ، الملك
١١١ ، ٨٥ ، ٨٣ ، ٤٢ :	سينا ، شبه جزيرة

ش

٢١٢ ، ٢١١ :	شجرة الحياة ،
٢٠٨ ، ١٧٠ ، ١٤٩ ، ٩٢ ، ٦٢ ، ٥٩ :	الادنى ، ال
٢٤٧ ، ٢٣٦ ، ٢٢٨ ، ٢١٩ ، ٢١٠	
٢٨٠ ، ٢٥٥	

١٩٨ ، ١٨١ ، ١٥٨ ، ١٢٠ ، ٤٧ ، ٣٨ :	شعير ، ال
٨٠ ، ٧٩ :	شلال ، شلالات ،
١٢٧ ، ٦٥ ، ٦٤ :	شلال ، ال
١٢٣ :	شلال ، ال
١٢٧ :	شلال ، ال
١٩٢ ، ١٨٩ ، ١٣٨ ، ١٣٦ ، ٩٤ :	شمس ، عبادة ال
٢٥٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ١٩٦	
٢١٢ ، ٢١١ :	شمس ، قرص ال
١٤٨ :	شمبوليون ، عالم أترى ،
١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٦٥ ، ١٦٠ ، ١٥٧ :	شنعار ، سهل
١٩٨ ، ١٨٦ ، ١٨٥	
٣٨ :	شوفان ، ال
٨٩ ، ٤٠ ، ٣٨ ، ٣٦ :	شونة ، شونات الفلال ،
١٦٧ ، ٧٢ ، ٢٥ ، ١٩ ، ٥ ، ٢ :	شيكاجو ، مدينة

ص

٢٧٣ :	صا الحجر (مدينة) ،
٢٣٨ :	صحراء ، ال
٥٨ ، ٥٦ ، ٢٣ ، ١٤ :	صحراء ، ال
١٥٩ :	صفيح ، ال
٢٤٢ ، ٧٣ ، ٢٨ :	صقليه ، جزيرة
١٧٩ ، ٩٧ :	صلب ، معدن ال
٧٧ :	صمغ ، استعمال ال
١٨٩ ، ١٦٠ :	صوف الاغنام ،
١٩٦ ، ١٩٣ :	صوقية ، الملابس ال
١٢٤ :	صومال ، بلاد ال
٢٧ ، ٢٦ ، ٢٣ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٢ :	صيد ، صيادون ،
٣٨ ، ٣٧ ، ٣٥ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٢٨	
١٠٢ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤	
٢٢١	
٥٩ ، ٥٨ ، ٥٦ :	صين ، ال

ض

٣٩ :	ضبع ، استثناس ال
١٧١ ، ١٢٢ ، ١٠١ ، ٨٩ ، ٧٣ ، ٧٠ :	ضرائب ، فرض وجباية ال
١٨٩	

ط

٢٧٣ ، ١٨٣ ، ١٢٠ :	طب ، دراسة ال
٢١٥ :	طرسوس (مدينة)
٢٥٥ ، ٢٤٩ ، ١٦٩ :	طروادة (مدينة)
٢١٣ ، ١٩٨ ، ١٧٢ ، ١٦٩ ، ٩٠ ، ٨٦ :	طوب ، ال
٢٢١ :	طوب مزجج ، ال
١٩٩ :	طوفان ، ال
١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٥ :	طيبة ، مدينة
١٤٤ ، ١٤١ ، ١٣٧ ، ١٣٤ ، ١٣٢	

ظ

٢٩ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ١٨ ، ١٧ :	ظران ، ال
١٨١ ، ٥٤ ، ٥٣	

ع

١٠١ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٣٠ ، ٢٧ ، ٢٦ :	عاج ، ال
١٢٨ ، ١١٢ ، ١٠٥	
١٥٥ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٤٠ ، ١٢٠ ، ٢ :	عبري ، عبرانيون ،
٢٠٤ ، ١٩٣ ، ١٨٤ ، ١٦٨ ، ١٦٥	
٢٣٢ ، ٢١٦ ، ٢١٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٥	
١٠ :	عجلة ، اختراع ال
٤٧ :	عجلة الفخار ،
١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٢ :	عرب ، ال
٢٤٠ ، ٢٢٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣ ، ١٥٨ :	عربات ،
٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢١٢ ، ١٩٤ :	عشتر ، الالهة
٨٠ ، ٧٩ :	عصر الاتحاد الاول ،
١٣٤ ، ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٠ ، ٨٨ :	عصر الاهرام
٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ :	عصر ، ال
٥٨ ، ٣٤ ، ٣٢ ، ٣١	
٢٤ ، ٢٢ ، ١٩ :	البليستوسين ، عصر ،
٢١ ، ١٣ :	البليوسين ، عصر ،
٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ :	الجليدي الكبير ، عصر ، ال

عصر ، ال : ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ،
٣٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
١٤٥ ، ٩٢ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٤٥

عصر ، ال : ٩٥ : الروماني ،

عصر ، ال : ١٢٥ : العتيق ،

عصر العمارنة : ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،

عصر الفترة الاولى ، : ١١٧ ، ١٢٥ ،

عصر الفترة الثانية ،

عصر ما قبل التاريخ ، : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،

عصر العادن ، : ٤٣ ، ٨٠ ، ٢٤٥ ،

عصر ، ال : ١٠٩ : المسيحي ،

عصر ، ال : ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ،

النيوليتي ، : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٩٧ ،

٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٨١ ،

عظم ، : ١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٧ ،

١٦٣ ، ٧٨

٢٧٣ : عملة ذهبية ،

٢٧٣ : عملة فضية ،

٢٧٢ : عملة معدنية ،

٢٠٢ : عملة نقدية ،

١٥٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٢٦ ، عموريون ، ال

١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، عيلام ، عيلاميون ، ال

١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ،

٢٦٣

غ

١٥٥ : غابات الارز ،

١٥٧ : ، غال ، بلاد ال

٤٨ : ، غزل ، آلة ال

٨ : ، غوريلا ، ال

ف

٩٢ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٧٧ ، ٢٣٥ ، فارسي ، فرس ، فارسي ،

٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ،

٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،

- ١٧٨ ، ١٦٣ ، ١٠٢ ، ٩٧ ، ٧٩ ، ٥٣ : ،
١٨٣
١٧٦ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٤٩ ، ٨ : ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٣ : ،
١٩٧ ، ٢٠٦ :
١٤ ، ٢٢ :
١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٦ : ،
٥٤ ، ٥٠ :
١٦ ، ٣٢ :
٢٤٢ :
١٧٧ ، ١٧٣ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٣٠ : ،
١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ : ،
٢٢٠ :
١٦ :
٤ ، ٩٣ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥١ : ،
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٨٥ : ،
٢٠٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ :
٧١ ، ١٩٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ : ،
٢٣٥ ، ٢٧٤ :
٢٥٦ : ،
٩٧ ، ١٠٤ : ،
١٥ : ،
٧٠ ، ١٢٢ : ،
٨ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤١ : ،
١٣٤ ، ١٦٠ :
٩٣ ، ١٥٥ ، ١٧٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ : ،
٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ : ،
٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٧٦ :
٣٦ ، ٤٠ : ،
- فخار ، ال
فرات ، ال
فرس النهر ،
فرنسا ،
فروينيوس (مؤلف) ،
فريجيون ،
فضة ، ال
فلامان (مؤلف) ،
فلسطين ،
فلك ، علم ال
فيدا ، ال
فيروز ، ال
فيزوف ، بركان
فيضان ، ال
فيل ، ال
فينيقيا ،
فيوم ، ال

ق

- ٣ : ،
١٧٧ ، ٢٤٢ : ،
٢٢٩ ، ٢٤٢ : ،
٢٣٠ : ،
- قادش ، موقعة
قبرص ، جزيرة
قرطاجنة ، مدينة
قرقيش ، بلدة

٥٢ ، ٤٨ :	،	قرى البحيرات السويسرية
٢٧١ ، ٢٥٦ ، ٢٣٨ ، ٢٢٧ :	،	قزوين ، بحر
٢٢٥ ، ٢٢٤ :	،	قطن ، نبات ال
٢٦٤ :	،	قمبيز ، الملك
١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٤٧ ، ٤٩ ، ٤٧ ، ٣٨ :	،	قمح ، نبات ال
١٩٨		
١٢٤ :		قناة السويس ،
١٢٤ :	،	قناة ، بين النيل والبحر الاحمر ،
٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٠ :	،	قورش ، الملك
٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧١		
٢٤٥ ، ٢١ :	،	قوقاز ، بلاد ال

ك

٢١ :	،	كاربات ، جبال ال
١٤٣ :		كارتر (أثرى) ،
١٩٧ ، ١٩٦ :	،	كاسيون ، ال
٢٠٠ ، ١٩٣ :		كبادوسيا ،
٢٧٤ ، ٢٣٥ :		كيدينو ،
٢٠٢ :		كيكولى ، (فارسن ميتانى) ،
٢٠١ ، ٢٠٠ :		كيليكيا ، بلاد ،
٩٨ ، ٦٥ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤١ :	،	كتان ، ال
١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٦ :	،	كرنك ، معبد ال
٢٦٣ :	،	كروسس ، الملك
٢٥٥ ، ٢٤٧ ، ١١١ :	،	كريت ، جزيرة
٢٩ :		كركدن (أنظر وحيد القرن) ،
٢٦ :	،	كرومانيون ، رجل ال
٢٤٢ :		كلتيون ،
٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٤ :	،	كلديا ، كلدانيون ،
٢٣٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ :		
٢٦٨ ، ٢٦٣ ، ٢٥٩ ، ٢٣٦		
٨٧ :	،	كلوسسيوم ، ال
١٤٨ :	،	كليو باترا ، الملكة
٢٠٦ ، ١٥٥ :	،	كنعانيون ، ال
٢٥٥ :	،	كنوسوس ، مدينة
١٨١ ، ٥٤ :		كهрман ،
١٦٥ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٧ :		كهنة المعابد ،

١٦٦ : كولدوى ، عالم أنرى ،
٤٠ : كيتن تومسون ، عالمة أثرية ،

ل

١٨٩ : ، لارسا ، مدينة
٢٢٣ : ، لازورد ، حجر ال
٢١ : ، لبنان ، جبال
١٧٥ : ، لجش ، مدينة
١٠٧ : ، لوتس ، زهرة ال
١٧٦ ، ١٣٥ : ، لوفر ، متحف ال
١٦٧ : ، (مؤلف) لويد ، سيتون
١١٤ : ، ليبيا ، بلاد
١٦ : ، ليموزى (مؤلف) ،

م

١٦٠ : ، مارشال ، (مؤلف) ،
١٤٦ ، ١ : ، مصرى ،
٢٢٤ ، ٢٢١ ، ١٣٥ : ، متحف برلين ،
١٧٩ ، ١٣٤ : ، متحف اللوفر ،
١٢٧ : ، متحف المتروبوليتان ،
٢٥٨ : ، متراس ، الاله
١٧٠ : ، مجدو ، مدينة
١٥٩ ، ٩٦ ، ٨٣ ، ٦٩ ، ٦٨ : ، محراث ، محاريث ،
١٥٣ ، ٥٧ : ، الاطلنطى ، محيط ، ال
٥٧ : ، المتجمد الشمالى ، محيط ، ال
٢٣٢ ، ٢٣١ ، ١٩٣ ، ١٩٠ : ، مردوخ ، الاله
١٠٢ : ، مرووكا ، مقبرة
٢٠٠ ، ١٧١ : ، مركبات ، ذات عجلات ،
٢٢١ ، ٢١٢ ، ١٩٨ ، ١٧٢ : ، مرمر ، حجر ال
١٧٥ ، ١٧٢ : ، مس - أنى - بادا ،
١٤٨ ، ١٣٣ ، ١٣٠ ، ١٢٨ ، ١٢٧ : ، مسلة ، مسلات ،
١٩٣ ، ١٨٩ ، ١٧٨ ، ١٦٣ ، ١٤٠ : ، مسمارى ، مسمارية ،
٢٦٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ، ٢٠٦ ، ١٩٩ : ،
٢٧١ ، ٢٧٠ : ،
١٣٨ : ، مشرق اتون (انظر تل العمارنة) ،
١ : ، ٤ ، ٥ ، ١٣ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ : ، مصر ، مصريون ،
٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ : ،
٧٢ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٥ : ،

٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ،
١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٩٠ ، ٢٠٨ ،
٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧ ،
٢٧١

الجنازى ، ٨٨ :

معبد ، ال

العلوى ، ٨٨ :

معبد ، ال

١٣٠ :

معبد الكرنك ،

٨٨ :

معبد ، معبد الوادى ،

١٠ ، ١٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٦ ،

معدن ، معادن ،

١٠٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ٢٠١ ،

٢٠٢ ، ٢٤٤

٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٩ ، ١٦٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ،

معهد ، ال

٢٢٣

الشرقى بشيكاچو ،

٤١ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٧ ،

مقابر ،

١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،

١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢١٣ ،

٢٧٨

٤٩ ، ٩٨ ، ١٣٤ ، ١٦٠ ، ١٩٣ ،

ملابس ،

٨٠ ، ٨٣ ،

منا ، الملك

٤٢ ، ٥٣ ، ٨٣ ، ١٧٧ ، ١٩٤ ،

منجم ، مناجم ،

٢٢٠ ، ٢٠١ ،

منجنيق ، استعمال ال

١٧٧ ، ٩٠ ،

منف ، مدينة

١٨٧ :

مورتجات (مؤلف) ،

٢٤٨ ، ٢٤٧ ،

مورسيل ، الملك

١٠٥ ، ١٣٩ ،

موسيقى ،

٩١ ، ٩٨ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

موميا ، موميات ،

٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٢٦ ،

ميتانى ، ميتانيون ،

٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ،

٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ،

٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،

ميدون ، ال

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨ ،

٢٧٧

١٦٤ :

مينا (وحدة موازين)

ن

- ١٢٩ : نابوليون ، فى مصر ،
٢٢٧ : ، نيوبولاسر ، الملك
، ٢٥٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ : ، نبوخذ نصر ، الملك
٢٦٦ ، ٢٦٤
٢٧٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ : ، نيوريمانو ،
، ١٠٢ ، ٩٨ ، ٨٥ ، ٨٠ ، ٤٣ ، ٤٢ : ، نحاس ، معدن ال
، ١٨١ ، ١٧٩ ، ١٧٤ ، ١٦٠ ، ١٥٩
٢٤٠ ، ٢١٠ .
١٧٩ ، ١٧٨ : ، نرام سين ، الملك
١٦٠ ، ١٠١ ، ٩٨ : ، نسيج ، نساجون ،
١١٥ : ، نفررو هو . الحكيم
٢٠٢ ، ١٠٢ ، ٧٠ ، ٥٤ : ، نقود ، استعمال ال
١٢٢ ، ٢٢ : ، نمسا ، ال
١٢٣ ، ١٢٢ : ، نوبة ، بلاد ال
٢٦ : ، نياندرتال ، انسان ال
١٧٢ ، ١٦٥ : ، نييور ، مدينة
، ٢٢٠ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٥ ، ٢٠٦ : ، نينوى ، مدينة
، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢١
، ٢٦٢ ، ٢٦٠ ، ٢٥١ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨
٢٦٤
٢٧ : ، نيوبرى ، (مؤلف) ،

ه

- ٢٤٤ هاليس ، نهر
١٩٣ : ، هران ،
٢٦١ : ، هرتزفيلد ،
، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٦٢ : ، هرم ،
، ١٠٤ ، ١٠٣ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٥ ، ٩٣
، ١١٥ ، ١١٣ ، ١١١ ، ١٠٨ ، ١٠٦
١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢١٠ :
١٢٥ ، ١٢٤ : ،
، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٢ ، ١٥١ : ، الحصيب
١٩٨ ، ١٩٦ ، ١٧٨ ، ١٥٧ : ، مكسوس ال
هلال ، ال

٦٨ ، ٦٧ :	هليوبولس ،
٧٣ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٥ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٦ ، :	هند ، ال
١٥٢ ، ٩٢ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤	
، ٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ :	هندور أوربية ، اقوام ،
، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٠	
، ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤	
٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٥٩	
١٠٥ ، ١٠٤ :	هودج ،
٨٨ :	هولشر ،
١١ :	هولندا ،
٧٨ :	هيرايطقى ، ال
٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٨٧ :	هيرودوت ،
١٤٩ ، ١٤٨ ، ٧٨ :	هيوغليفي ، ال
٢٥٤ ، ٢٥٣ :	هيوغليفيه حيثية ،
٩٦ :	هيكل ، ال

و

٣٧ :	وادي الملوك ،
، ٥٨ ، ٤١ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٢٠ ، ٨ :	وادي النيل ،
١٤٢ ، ٦٢	
٢٠٥ ، ١٠١ ، ٧٩ ، ٧٨ :	ورق ، ال
١٧٢ :	وركاء ، ال
١٦٦ ، ١٦٥ :	وولى ، الاستاذ
٤ :	وير ، اديت وليامز (مؤلفة)

ي

٥٩ :	يابان ، ال
١٣٤ :	يافا ، مدينة
، ٢٤٢ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٠٦ ، ١٦٣ :	يهود ، ال
٢٦٠	
١٥٧ :	يوليوس قيصر ،
، ١٣٥ ، ١٠٩ ، ٨٦ ، ٧٩ ، ٦ ، ٤ ، ٣ :	يونان ، يونانيون ،
، ٢١١ ، ١٩٤ ، ١٦٤ ، ١٤٨ ، ١٤٦	
٢٤٥ ، ٢٤٢	

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف: أسامة العبد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يعرض جيمس هنرى برستيد، الأستاذ بجامعة شيكاغو ورائد علم المصريات فى أمريكا، لنشأة الحضارة وانتصارها من البدايات الأولى (فى العصر الجليدى والعصور الحجرية القديمة والعصر الحجري الحديث) حتى اكتشاف الزراعة، ولارتقاء حضارات الإنسان فى مصر والشرق الأدنى القديم التى تعاصرت وتفاعلت مع بعضها فى علاقات تجارية وسياسية وعسكرية. يتتبع برستيد قصة الحضارة المصرية إلى نهاية العصر الفرعونى ثم حضارة السومريين فى بلاد الرافدين وحضارة الأشوريين والبابليين، وينهى برستيد قصته بقدم الشعوب الهندوأوربية وقيام دولة الحيثيين فى غرب آسيا ثم بقيام الإمبراطورية الفارسية.